

الفهرست

نُبذةُنا الشَّخصيَّةُ العرب في أوروبا

(١٥)	(خطبة طارق)	٢	عبد الرحمن الأموي
١٨	العرب في الاندلس	١٢	الاندلس
		١٣	فتح الاندلس

عبد الرحمن الداخل

٣٦	انصافه	٢٤	فراره من بلاده
٣٧	ميله الى الجند	٢٥	حكايته عن نفسه
٣٨	فضله	٢٧	ذهابه الى افريقية
٣٩	أوصافه	٢٨	مهمة بدر
٤٠	أدبه	٣٠	ذهاب الداخل الى الاندلس
٤٠	أمثلة من شعره	٣١	فتح قرطبة
٥٢	أمثلة من نثره (محادثته . خطابه . كتابته)	٣٣	أخلاق الداخل
		٣٣	صرامته
٦٣	أثره في الحضارة الاندلسية	٣٥	ديمقراطيته

هشام بن الداخل

٦٧	فضله على العربية	٦٦	موجز تاريخه
٦٨	مثال من أدبه	٦٦	مثال من عدله
		٦٧	أثره في الاندلس

الحكم الاول

٧٤	مثال من إقدامه	٧٠	رباطة جأشه
٧٤	مثال من شعره	٧٢	صفاته وأخلاقه
٧٥	أثره في الاندلس	٧٢	ميله الى اللهو
		٧٢	مثال من شهامته

الدين في اسبانيا

٩٣	أثر العقيدة الدينية	٧٦	الاسلام في اسبانيا
١٠٠	المسيحية في اسبانيا	٧٧	يحيى بن يحيى
		٧٩	شيوخ المذهب المالكي

عبد الرحمن الثاني

١٠٨	أوصافه	١٠٦	أثره في الحضارة الاندلسية
١٠٨	أمثلة من شعره	١٠٧	أثره في الحركة الفكرية
٩١٠	فضله على الغناء	١٠٧	ولاه بالنساء

زرياب الموسيقى

١١٦	(فضله على الموسيقى)	١١٢	(غيرة اسحق الموصلى منه)
١١٦	(سعة حفظه)	١١٤	(رحلته الى الاندلس)
١٢١	أثر الشرق فى الاندلس	١١٥	(احتفاء عبدالرحمن الثانى به)

ابن هباني والمتنبى

(١٤٤)	(ترجمته)	١٢٧	تمهيد
١٥٦	المقارنة بينهما	١٢٩	مختار شعر ابن هانيء
(١٦٤)	(أساليب الشهرة)	(١٢٩)	(ترجمته)
		١٤٤	مختار شعر المتنبي

مجل بن عبد الرحمن

١٨٠	المذهب الحنبلى فى اسبانيا	١٧٨	موجز تاريخه
		١٧٩	صفاته

١٨١ المنذر بن محمد

عبد الله بن مجمل

١٨٥	أمثلة من اثره	١٨٣	موجز تاريخه
١٨٧	مثال من شعره	١٨٤	أوصافه
		١٨٤	حزنه على أمه

عبد الرحمن بن ساجد

١٨٩	نبذة من تاريخه	(احتفاء الاندلسيين به) ٢٠٦
١٩٤	(التاريخ والبلاغة)	(نقور الألبيري منه) ٢٠٦
١٩٩	أثر المصطفى الأندلس	خطبة البلوطي ٢٠٩
١٩٩	سبب تعلقه بالخلافة	(زوجته) (٢٠٩)
٢٠٠	مشور الخلافة	طرف من أخبار الناصر ٢١٤
٢٠١	أثره في الحضارة لاندلسية	مع بن شهيد
٢٠١	تشبيد مدينة الزهراء	سطوة لدن في زمنه ٢١٧
٢٠٤	المصر للدهي	هنايته تربية الحكم ٢٢١
٢٠٤	هدية قسطنطين	مؤامرة عبد الله ٢٢١
٢٠٥	ارتباك أبي على القاني	فشي المؤامرة ٢٢٣
٢٠٥	(ترجمة القاني)	مشالان من شعر الناصر ٢٢٠

الحكم الثاني

٢٢٥	نبذة من تاريخه	تشده في محاربة الحر ٢٣١
٢٣٠	حروبه	مشالان من شعره ٢٣١

الموشحات

٢٣٣	نبذة	نمذج من الموشحات ٢٣٤
-----	------	----------------------

٢٧٢	موشحة ابن المعتز	٢٤٤	أثر مجالس الأدب والغناء
(٢٧٢)	(ترجمته)		في الشعر
٢٧٣	اختراع الموشحات	٢٤٨	تعنت المقاد
٢٧٦	موشحة ابن بقي	٢٥٤	ابن رشيق والتجديد
٢٧٧	أثر الغناء في اختراع الموشحات	(٢٥٤)	(ترجمته)
		(٢٥٧)	(شكوي ابن قتيبة)
٢٨١	كانت الموشحات مما يتغنى به	٢٥٨	سلطان الغناء
٢٨٣	الغناء	٢٦٢	أثر الغناء في الشعر العربي
		٢٦٦	الشكوي من القافية

٢٨٩ نماذج مختارة من الزجل ٢٨٨ الأزجال

هشام الثاني وحاجبه المنصور

٣٠١	مثال من صرامته	٢٩٢	ولاية هشام
٣٠٢	مثال من فطنته	٢٩٥	كيف وصل المنصور الى الملك
٣٠٣	نفاذ بصيرته	٢٩٥	وفوده الى قرطبة
٣٠٤	شعوره بحجده	٢٩٥	تعلقه بالسيدة صبح
٣٠٧	مثال من تأملاته	٢٩٦	تدرجه في المناصب
٣٠٩	اثر البلاغة في نفسه	٢٩٦	طموحه الى الملك
٣١١	مثال من اثره	٢٩٧	استبداده بالملطن
٣١٦	مثالان من شعره	٢٩٨	أثره في الاندلس
٣١٨	مجالس الادب واللهو	٢٩٨	حق العصبية
	في زمنه	٢٩٩	تشبيد الزاهرة
		٣٠٠	ولعه بالغزو

كيف امتحنوا صاعدا	٣٢٠	(أمثلة من أكاذيبه)	(٣٢٥)
بداهة صاعد	٣٢٢	مناقضته مع ابن العريف	٣٣١
(ترجمته)	(٣٢٢)	مجلس انس ورقص	٣٣٣

خط التكميل في البشارة الأندلسية

ملوك الطوائف	٣٣٦	(حفظ أبي ضمضم)	٣٤٧
أثر التهذيب العربي في	٣٣٧	(حفظ الخوارزمي)	٣٤٨
الاسمانيين		(عناية العرب بالحفظ)	٣٤٨
شكوى القارو	٣٣٨	(حفظ الحميري)	٣٥٠
شعر العرب الاسمانيين	٣٤٠	ابن عبدون والاصمعي	٣٥١
الاغاني لدارجة	٣٤٢	أثر الحفظ في الشعر العربي	٣٥٣
عناية الاندلسيين بالحفظ	٣٤٣		

نظرات
فتاوى الشيخ العلامة ابن القيم
مجموعه محاضرات

القاهرة في الجامعة المصرية

وصار ما كان من ملك ومن ملك
كما حكى عن خيال الطيف وسنار



مقرون للطبع محفوظ للمؤلف

الطبعة الاولى

١٩٢٤ - ١٣٤٢ هـ

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر
لصاحبها مصطفى محمد

مطبعة المكتبة التجارية

قاهرة عام ١٩٢٤

الاهداء

نشأت ميالا الى الأدب ، وما زال ينمو
هذا الميل حتى أصبح كلفا بدراسته
وقد وقفت المدارس المصرية حائلا دون
اشباع هذه النهضة ، ووجدت في الجامعة المصرية
الجو الطاق الذي تأنس اليه نفسى ويلتئم مع
مزاج تفكيرى
وهذه محاضرات كانت الجامعة المصرية
من اكبر المشجعين على اظهارها

فالى كل من وضع حجرا فى بناء هذا
المعهد انعمى المصرى اخرا أو فكريا فى إنشائه ،
والى أساتذته وطلابه ومشجعيه ، أهدي هذا
الكتاب ...
طامل كيرنى

مقدمة

(١)

طلب الى حضرة الدكتور احمد ضيف، أن أترجم الفصل التاسع من كتاب « تاريخ آداب العرب للأستاذ نيكلسون » لأثني في الجامعة المصرية ، وهو الفصل الذي أفردته من كتابه الممتع ، للكلام على تاريخ الادب العربي في اسبانيا

(٢)

لم أكد أقرأ هذا الفصل حتى بدا لي خطره ونفاسته ، وعرضت لي عدة ملاحظات على بعض ما جاء فيه ، ولم أكد أشرع في مناقشة أهم نقطة الرئيسية ، حتى اتسع أمامي مجال البحث ، وشجبنى على مواصلة ما رأيته من النقص الشديد الذي يكاد يفسد كل مطاع على الكتب العربية التي تناولات الكلام في هذا الموضوع ؛ وما عنته من الحاجة الماسة الى كتاب يوفر على طلبة الادب الاندلسي وغيرهم من المشتغلين به ، قبلا مما يتكبدونه من عناء البحث في الاسفار العربية الضخمة المهوشة ، ويحفظ وقتهم لثمين من الضياع !

وذكرت أن جلال نهضتنا القومية لا يتناسب مع جهلنا عظاما لغتنا الذين تركوا أوضح الاثر في بلاغة نستمد منها الحياة والقوة ، فلئن كان من الحق ألا يجهل الانسان اعظم الامم ذوي الاثر الكبير في الحضارة العالمية ، فهو أجدر ألا يجهل عظامه قبل كل شيء !

دفعتنى هذه الاعتبارات الى عدم الاختصار على ترجمة هذا الفصل الممتع، وثم، اتخذته مرجعاً من المراجع الكثيرة التى رجعت اليها، بدلاً من اتخاذ موضوع المحاضرة

(٣)

اقتصرت فى هذا الكتاب على ترجمة النصف الاول من هذا الفصل، وقد أقيمت القسم الاكبر من هذه المحاضرات منذ أكثر من عامين فى الجامعة المصرية، ثم نشرت بعضها فى احدى الصحف الادبية، فليقت من الاستحسان و لرضى ما شجعتنى على طبعها

(٤)

ولم يفتنى أن أورد فى حوشى الكتاب كثير من التعليقات الضرورية التى اضطررتى ضيق لرسن الشديد، الى الاكتفاء بالإشارة إليها دون ذكرها، وقت اللقاء المحاضرات وقد تعمدت ذكر امثلة وعناذج شغلت مكاناً من الكتاب ما كانت لتشغله، لو أن كتاباً حديثاً سبقتنى الى الاستشهاد بها، أو لو أنى وثقت أن جمهور الأدباء عندنا يمعنونها !

(٥)

(وبعد) فهذه نظرات سريعة أقيمت بها الى تاريخ الأدب الاندلسى، وسأتابعها بعد قليل بالقسم الثانى منها، فليقرأها القارئ على أنها مقدمة لدراسة الأدب فى ذلك العصر، وليتخذها نواة لكتاب واف يتناول فيه ذلك التاريخ بشئ من التوسع والاسهاب اذا أمكننا الفرص وكان فى الاجل بقية ...

كامل كيلانى

القاهرة ٢٠ يناير سنة ١٩٢٤

- ل -

أهم المصادر العربية

التي رجعت إليها

نفع الطيب	لمقرى
المعجب في تلخيص أخبار المغرب	لمراكشى
الاحاطة في أخبار غرناطة	لابن الخطيب
المقدمة	
تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر	لابن خلدون
قلائد العقيان	للمفتح بن خالان
الدخيرة	لابن إسماعيل
وفيات الأعيان	لابن خلدون
فوات الوفيات	لابن شاكر
العرب في أصفهان	لحميد دياب
مقدمة الألبانة	للبيستاني
العمدة	لابن رشيق
الشعر والشعراء	لابن قتيبة

أهم المصادر الأجنبية

Nicholson : a Literary History of the Arabs.

Dozy : l'histoire des musulmans de l'Espagne jusqu'à la conquête de l'Andalousie par les chrétiens (711—1110).

Dozy : Recherches sur l'histoire et littérature de l'Espagne pendant le moyen âge.

Encyclopédie Islamique.

Pizzi : Letteratura Araba.

نُبذةٌ بآشِخِيَّةِ العرب في أوروبَّا (١)

وَمَا يَسْتَرْعى النظر، أَنه قبل نهاية القرن الاول الهجرى،
أُتْمَدَ حُكْمُ الْمَلِكِ الْأَمْوِى، الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ (٧٠٥ - ٧١٥ م)
اجْتِازَ الْمُسْلِمُونَ، تَحْتَ قِيَادَةِ طَارِقٍ وَمُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ، الْبَحْرَ
الْأَبْيَضَ الْمَتَوَسِّطَ

وَبَعْدَ أَنْ هَزَمُوا رُودْرِيكَ الْقُوطِىَّ فِي مَوْقِعَةٍ كَبِيرَةٍ
قَرِيبَةٍ مِنْ قَادِسْ، أَخْضَعُوا بِسُرْعَةٍ جَمِيعَ مَا نَبَقَ مِنْ إِسْبَانِيَا. وَاقْتَدَ
طَالُ أَمَدَ الشَّكِّ فِي مَصِيرِ هَذَا الْإِتْلِيمِ الْجَدِيدِ، فَانْثَوْرَةَ الْبَرْبَرِ
الَّتِى قَامُوا بِهَا فِي أَفْرِيقِيَا (٧٣٤ - ٧٤٢ م) امْتَدَّتْ إِلَى إِسْبَانِيَا
وَكَادَتْ تَهْدِدُ الْعَرَبَ بِزَوَالِ مُسْتَعْمَرَاتِهِمُ الَّتِى ائْتَلَكَوْهَا

وَلَمْ يَكْدِ يَزُولُ هَذَا الْخَطَرُ حَتَّى عَادَ الْمُتَنَصِّرُونَ، ضَرْمُوا
مِنْ جَدِيدِ نَارِ الْحَزَازَاتِ وَالسَّخَائِمِ، آتَى وَرَثَتُهَا عَنِ أَسْلَافِهِمْ

(١) مَعْرُوبَةٌ عَنْ كِتَابِ الْأَسْتَاذِ نِيكَلَسَرْدِ الْمُسَمَّى تَارِيخِ آدَابِ الْعَرَبِ

A Literary History of the Arabs

من قيس وطلب ، ثم بدأت الاحزاب السياسية وبدأ
المتبارون من السوريين واليمنيين يلجئون الى سيوفهم مرة
اخرى ، ففرقت البلاد في بحر من الفوضى

عبدالرحمن الأموي

وفي هذه الاثناء حدث أن عبدالرحمن بن معاوية ، حفيد
الخليفة الاموي هشام ، فر من المذبحة العامة التي ختم بها
العباسيون 'نتصاهم على الأسرة الأموية'
وبعد أن قسى الشدائد سألها مدة خمس سنوات ،
لا يرقه في سياحته الا بدر ، رفيقه الامين ، وصل الى مدينة
سبته . حيث جأ الى ركن مزعزع بين قبائل البربر
وكان الثروة والضموح والثقة التامة بالنفس في
تحقيق ما يصبوا اليه ، جعلت عبدالرحمن يفكر في مشروع
العودة بجزيرة

دعي بنفسه في اسبانيا مؤملا أن يكسب الملك
بمساعدة العرب الذين عرف حق المعرفة أن فيهم الكثيرين
من المؤمنين لأسرته

وعلى ذلك فقد أرسل بدرا في سنة ٧٥٥ م برسالة سرية
عبر بها البحر، فاتم له ذلك السفير اكثر مما كان يتوقع منه
وقد كان الحصول على مؤازرة العملاء لمبد الرحمن
سهلا. لانه كان رئيسهم بطبيعة الحال ، ولانهم بلا شك
سيتمسمونه للمائدة اذا نجح ، ولاكن عددهم كان على كل حال
قليلا بالتمسك الى سواهم

ولا أمل للداعي في انجاز ما يدعوا اليه ، الا اذا ساعده
أحد الحزبين العظيمين، حزب السورين أو حزب اليمنيين،
وعن يقود الحزب الثاني حينئذ. الحاكم الضعيف يوسف
ابن عبد الرحمن الفهرى ، وضابطه الصميل بن حاتم الذى كان
- رغم كفاءته - قاسي القلب ، وقد كانا لمسيطرين وصاحبي الكلمة
النافذة ، وكانا يسومان خصومهما سوء المذاب بلارحمة

فيكان ذلك باعثا على مسارعة اليمنيين الى جانب عبد الرحمن ،
لا حبا فيما يدعوا اليه ، بل مدفوعين الى ذلك بما مل الاخذ
بالتأثر والانتقام من أعدائهم ، حقا أن هؤلاء انفسهم
المسلمين هم من ذلك الجنس البدوي :

هذه نصوص من هذه النصية لا تله الحية لا حية :

ثم احتل اشبيليا بعد بضعة أشهر من حلوله اسبانيا .
وهزم يوسف والصميل تحت أسوار قرطبة، وجعل معه
واليها عليها، ورأس في نفس ذلك المساء أهلها الذين اجتمعوا
في المسجد الكبير لاداء الصلاة، واعتبر حاكم اسبانيا في
مايو سنة ٧٥٦ م

وظل عبد الرحمن يعمل على حماية مملكته وتدريب
قواها أثناء حكمه الطويل الذي استمر اثنتين وثلاثين عاما
وكادت تخرج الملكة من قبضته مرارا - لولا
حذقه وحمته - ولم كان العبد الملقى على عاتقه شديدا وشاقا .
فقد كانت أمامه العصبيية العربية القوية الشكيمة، التواقة
الى الاستقلال بشئونها، والتي تعد الحكومة عدوة لها،
ولم يكن ثمة من سبيل الى ردهم الا بجيش يفوق
قوتهم، ولهذا لجأ الى الاستعانة بالجنود المرتزقة (المأجورة)
الذين أحضرهم من برايرة افريقيا، ومن ثم نشأت في العرب
نفس الاسباب التي أدت بالملكة العباسية الى السقوط .
وهو
يمكن شأن هذه الاسباب هنا أقل اثرا من شأن تلك

الاسباب هناك

ثم كان تعصب المسيحيين الذين كانوا يقطعون ، بما
فيهم احزاب الوطنى الاسباني ، الى رفع النير الاجنبى عنهم ،
فجاء ذلك ضغثا على ابالة ، ومن ثم وجب إيجاد قوة خارقة ،
تهيمن على تلك العناصر المتمردة

هم ان الدولة التى وضع أساسها عبد الرحمن الناصر لم
تتشأ أكثر من قرنين ، ولـسكنها مع ذلك استطاعت أن
تخلد لها ذكرا رفيعا بين سائر الدول بما نالتة اسبانيا على
يديها من الرقى والمدنية والتهذيب ، مما لم تتمتع به فى زمن ما
ويعزى الفضل فى ذلك كله ، الى المخاطر الجرىء عبد الرحمن
الذى لم يغمطه ، حتى أعداؤه ، حقه من الاعجاب والثناء
فقصد قولا إن اخليفة^(١) المنصور العباسى سأل حاشيته
ذات يوم : « من صقر قريش ؟ »

(١) ماخضة عن كتاب البيان المغرب طبعة دوزى (المجلد

الذى صحيفة ٦١)

فاجابوه : « ذلك لفيك يا أمير المؤمنين ، » (هذا هو
الجواب الطيبى لسؤاله)

« فانت الذى أخضع جبابرة الملوك وقع الدين الداخلى ؛ ،
فأجابهم الخليفة « كلا ليس هذا القبي ! »
« اذن معاوية ، أو عبد الملك »
فقال لهم النصور :

« كلا - انما صقر قريش هو عبد الرحمن بن معاوية
الذى جاب مهامه ، افريقيا بمفرده ؛
والذى استطاع أن يحقق إرثه من غير جيش يداويه
في أقليم مجهول وراء البحر ؛
والذى استطاع أن يخضع اعداءه ويسحق العصاة ؛
ويشيد امبراطوريته العظيمة بلا - لاح يؤازره غير - لاح
الاناة ومضاء المزينة ؛
ان عملا كهذا لم يأتيه قبله أحد ، ، ا . هـ

نقلنا هذه القطعة التي افتتح بها الاستاذ نيكسون
فصله الحادى عشر، اخص بموضوع بحثنا اليوم، لمتبينوا منها
بأنفسكم، طريقته الخاصة فى الاداء، واجازه الشديد، وميله الى
الاثيان بيمان كثيرة وآراء شتى فى اسطر وجيزة، وليكن
(كما قلنا فى أول المحاضرة) لا يقنعنا مثل هذا القدر اليسير فى
الكلام على نشأة أمة نريد أن نتخصص فى دراستها (الاسيافى
جامعة) ولا نستطيع أن نغرب هذا الجزء من فصله من غير أن
نشعر بنقص، حتى فى بعض نقط جوهرية لا نستطيع
اغفالها مهما كان المقام ضيقا

افتتح الاستاذ نيكسون ذلك الفصل دون أن يتكلم
بشيء عن الاندلس نفسها أو يبين لنا جغرافيتها وأهمية
موقعها الى غير ذلك، وقد يكون عذره فى هذا اعتقاده بأن
طلاب الآداب لا بد أن يكونوا ملمين بالمأما تماما بمثل هذه
الاشياء، وأنهم يعرفون بلا شك موقعها الجغرافى ومكان البلاد
المهمة فيها من الخريطة، وهو عذر لا تردد فى قبوله

ثم تكلم عن فتح طارق بن زياد وموسي بن نصير
هذه البلاد من غير أن يوضح لنا بإيجاز أهم الأسباب التي
أطمعت العرب فيها، وروح الفتح التي كانوا متشبعين بها وقتئذ،
والظروف الجمة التي اشتركت في العمل على سقوطها في أيديهم
نعم أنه كتب بضعة أسطر قليلة جداً في الفصل الخامس
الذي عقده على الدولة الأموية أثناء كلامه عرضاً عن فتوحات
الوليد وبين أهمية هذه الفتوحات ، وقال إنها كانت أعظم
الفتوحات الإسلامية وأعودها بالموائد الجمة ، وأن طارقاً
اجتاز البحر إلى إسبانيا بعد أن خضعت قبائل البربر القاطنة
شمال إفريقيا وأمكنه - زيادة على أنه لم يوف هذه النقطة - لم
يبين لنا نوع الأمم التي كانت تقطن هذه البلاد وطبائعهم
ولم يعرفنا كيف وما هي العوامل التي أدت إلى
استسلامهم للعرب ، وكيف فتح للعرب باب الأمل على
مصر أعياه واتيحت لهم الفرصة في امتلاكها ، ومن الذي
أرشدهم إلى الطريق المؤدية إلى فتحها وامتلاكها ، بهذه
السهولة وفي هذا الزمن اليسير ؟



فليس يقتنع من يتصدى لدراسة الادب أو البلاغة
بإسرد بضع حوادث مشتتة لا ترجع الى أصل، أو يكتفى
بإطلاع على بضع نماذج من البلاغة العربية أو الانداسية
أو سواها، وبضع ملح وطرف وفكاهات، أو يقتصر على معرفة
أبلغ ما كتب وأحسن ما قيل، ولا الحسد الأقصى الذى
وصات اليه البلاغة التى يعنى بدراستها، ولا الامام بوضع
قصائد سامية الخيال جليلة المعنى، ليعترف آداب أمة معرفة
تنلج صدره، وتكون مدعمة على أساس ثابت

نعم لن يقتنع بمثل هذا القدر الذى يقتصر عليه مؤرخو
الآداب عندنا، من غير أن يدفعه ذلك الى الاستزادة، وإلى
البحث والتدقيق عن تاريخها المفصل وارتباطه بأدبها

وثم يستنتج بنفسه من سير الحوادث العديدة مزاجها
وتأثير ذلك المزاج فى أدبها، وليس لنا بد من معرفة نشأتها
ونشأة أمم ملوكها واشدهم أثر فيها وفى أدبها، ومعرفة اخلاق
أهلها وإدراك أثر تباين اجناسهم ومواهبهم فى الادب .
فقد كانوا خليطاً من أمم شتى تمتاز كل أمة منهم بمواهب

خاصة بها، فتكون من نسلهم أمة جمعت مواهب لا يستهان بها، تفسر لنا ما شاهده من اثرهم في الحضارة - في البلاغة - في الفنون - في الطب - في الجغرافيا وفي كل شيء، مما لا يكاد يصدقه العقل، لذلك لا نستغرب قط من مؤرخي الآداب (الغربيين علي الاخص) أن يعنوا بالتاريخ العام للأمة التي يحملون أديها ويدرسون بلاغتها عناية لا تقل عن عنايتهم بنفس الآداب أو البلاغة التي يتصدون لبحثها.

إذن فليس لنا بد من تخصيص بعض هذه المحاضرات لذلك . ليس لنا بد من نظرة اجمالية في تاريخ الابدس لتتعرف منها سكان هذه الجزيرة (او شبه الجزيرة إن شئتم) وماذا آل اليه أمرهم ، وما الذي اطمع العرب فيها الخ . مما نراه جد ضروري لمعرفة للوثرات التي جمعت الآداب الاندلسي ممتارا عن سواه

لان هذه الاسباب التي تختلف عن سواها ، جديرة كذلك أن تنتج آدبا مختلفة عن سواها
وكما ازدادت عناية مؤرخي الآداب بدرس التاريخ العام مفصلا . وتحليل العظماء الذين خطوا للتاريخ طريقه ،

كلما ازدادت مقدرتهم على تفهم الروح الادبية
وتطورات البلاغة

*
* *

والئن كان مقام الاستاذ نيكاسون لا يسمح له بشيء
من ذلك « كما يقول » فان مقامنا يسمح لنا بشيء قابل منه:
وانا لنجتزىء القول اجتزاء، ونالخص الكم هذا الجزء
الضرورى الذى اغفله الاستاذ نيكاسون من كتابه فيما يلى:

(٣) الأندلس

ترك شرح جغرافيتها للسبب الذي تركه من أجله
الأستاذ نيكاسون، ونبدأ بالعصيم من تاريخها فنقول:
تغلب على بلاد الأندلس من قديم الزمان أمم شتى
من الأفرنج واليونان والقرطاجنيين والقوط الذين استوثق
لهم الأمر بعد الرومان ^(١) وصاروا المهيمنين عليها عدة
قرون قبل الإسلام. ولما سادت المسيحية في الغرب اعتنقوها
فيمعن اعتنقها، وكان يسمى ملكهم، وقت الفتح الإسلامي،
رودريق

ولم يقتصر على امتلاك بلاد الأندلس فحسب بل
تعدوا ذلك إلى طنجة فاستعبدوها كما استعبدوا بلاد البربر
التي كان اسم ملكها حينئذ يليان، وكان خاضعاً لهم، يقطن
سبتة ويدين بدينهم

وفي هذه الأثناء كان الفتح الإسلامي يتسدد بسرعة

(١) هذا مهم جداً لمؤرخي الآداب، لأهمية الأثر الذي ينشأ
عن هذا الاختلاط

مدهشة في زمن الوليد بن عبد الملك
وكان بطله وقتئذ موسى بن نصير الذي ناط به الوليد
هذه المهمة ، فذهب في نفر من المتطوعة حتى ورد مصر
وأخذ من جنودها فريقا ، ثم نزل بالقيروان فصبه افريقيا
فاخذ معه عددا من الاقوياء الاشداء وفي مقدمتهم طارق
ابن زياد البربري ، وظل يفتح بلاد البربر حتى بلغ طنجة
ففتحها ونشر الاسلام فيها ، وخلف مولاه طارقا عليها بعد
أن أخضع يليان ملكها للاسلام

فتح الاندلس

كيف ولماذا فتحت الاندلس ؟ ومن لذي سهل للعرب
الطريق الى ذلك ؟ استبساد رودريق القوطي هو اكبر
العوامل التي أدت الى ضياع ملكه
فقد كان من عادة كبار القوط بالاندلس ان يرسلوا
أولادهم وبناتهم الى طليطلة ليتشرفوا بخدمة ملكهم ، فاذا
بلغوا ، زوجهم بعضا ببعض
وحدث أن كان من بين تلك البنات ابنة يليان حاكم

سبته وكنت غاية في الحسن ففتنت رودريق ، وحاول اخذها
مكرهة ، فاحتالت حتى أعلمت أباه بذلك

فأضمر الحقد في نفسه لرودريق ، وحلف ليقوضه
ذعائمه ما يمكن . وأخذ أباه من رودريق ، ثم ذهب من توه
الى طارق فأفشى له أسرار القوط ، ودله على أماكنهم
وطريقة أخذهم ، فسار طارق بأذن من موسى بن نصير على
رأس جيش من العرب والبربر الى بلاد الاندلس

قال صاحب كتاب المعجب وهو من رجال القرن
سابع الهجري :

« وولد موضع برنه - فيما يقال - منها ، المدينة المعروفة
بأجزيرة خضراء اليوم

نزل قبيل الفجر فصلى بها الصبح بموضع منها ، وعقد
لرايت لأصحابه ، فبني بعد ذلك هذين مسجدا ، وعرف بمسجد
الرايات . وهو باق الى وقتنا هذا . أسأل الله إبقائه الى أن
تقوم الساعة : (١) »

وَمَا بَلَغَهُ ذُو رُودْرِيقٍ، قَالَ خُطْبَتُهُ الْمَعْرُوفَةُ، الَّتِي لَا تَقْلُ
بِلَاغِهَا عَنْ أَبْلَغِ خُطْبِ الْقَوَادِ الْمَشْهُورِينَ (١)

(١) قَامَ فِي أَصْحَابِهِ، خَمْدُ اللَّهِ وَأَتْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ حَثَ الْمُسْلِمِينَ
عَلَى الْجِهَادِ وَرَغَبِهِمْ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ! أَيْنَ الْمَقَرُّ؟ الْبَحْرُ مِنْ وَرَائِكُمْ، وَالْعَدُوُّ
أَمَامَكُمْ، وَلَيْسَ لَكُمْ وَاللَّهُ إِلَّا الصَّدَقُ وَالصَّبْرُ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ فِي
هَذِهِ الْجَزِيرَةِ أَضْيَعُ مِنَ الْإِيْنَامِ فِي مَادِبَةِ اللَّئِيمِ، وَقَدْ اسْتَقْبَلَكُمْ
عَدُوُّكُمْ بِجَيْشِهِ، وَأَسْلَحَتِهِ وَأَقْوَاتِهِ مَوْفُورَةٌ، وَأَنْتُمْ لَا وَزَرَ
لَكُمْ لَا سِيُوفَكُمْ، وَلَا قُوَّاتٍ إِلَّا مَا تَسْتَخْلَصُونَهُ مِنْ أَيْدِي
عَدُوِّكُمْ. وَإِذَا امْتَدَّتْ بِكُمْ الْإَيَّامُ عَلَى افْتِقَارِكُمْ، وَلَمْ تَنْجُزُوا لَكُمْ
أَمْرًا. ذَهَبَ رِيحُكُمْ، وَتَعَوَّضَتِ الْقُلُوبُ مِنْ رَعْبِهَا مِنْكُمْ الْجُرْأَةُ
عَلَيْكُمْ. فَادْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ خِذْلَانِ هَذِهِ الْعَاقِبَةِ مِنْ أَمْرِكُمْ،
بِمَنَاحِزِهِ مِنْ انْطَاغِيَةٍ؛ فَقَدْ لَقِيتُ بِهِ إِلَيْكُمْ مَدِينَتَهُ الْحَصِينَةَ،
وَإِذَا تَهَازَ الْفُرْصَةُ فِيهِ لِمُمْكِنٍ، إِنْ مَحَجَّتْ بِأَنْفُسِكُمْ لِلْمَوْتِ، وَإِنِّي
لَمْ أَحْذَرِكُمْ مُرَاتِنًا عَمَّ بِنَجْوَةٍ، وَلَا حَمْلَكُمْ عَلَى خُطَّةٍ أَوْ خِصِّ
مَتَاعٍ فِيهَا، الْنَفُوسَ أَبْرَ مِنْهَا بِنَفْسِي، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ - إِنْ صَبَرْتُمْ
عَلَى الْأَشَقِّ قَلِيلًا - اسْتَمْتَعْتُمْ بِالْأَرْثِ الْأَلَدِ طَوِيلًا، فَلَا تَرْغَبُوا
بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ نَفْسِي، فَمَا حَظَّكُمْ فِيهِ بِأَوْفَرٍ مِنْ حَقِّي»

وَنَدَّ بِأَنْفُسِكُمْ مَا أَنْشَأَتْ هَذِهِ الْجَزِيرَةُ مِنَ الْحُورِ الْحَسَنَاتِ، مِنْ

وما كاد ينتهى منها حتى انبسطت نفوس أصحابه
وأجابوه : « قد قطعنا الآمال مما يخالف ما عزمنا عليه ،
فاحضر اليه ، فاننا معك وبين يديك » وفي صباح الغد تأهب

بنات اليونان (على التشبيه بهن) الرافلات في الدر والمرجان ، والحلل
المنسوجة بالعقيان (الذهب) المقصورات في قصور الملوك ذوي
التيجان ، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك - أمير المؤمنين - من
الأبطال عريانا ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا ، ثقة
منه بارتياحكم لأطمان ، واستأجركم بجالدة الأبطال والفرسان ،
ليكون حظهم منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه
الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المؤمنين
سواكم ، والله - تعالى - ولي انجادكم على ما يكون لكم ذكرا
في الدارين .

واعلموا أني أول مجيب الى ما دعوتكم اليه ، وانى عند ملتقى
الجمعين - حامل بنفسى على طاعة القوم ، للدريق ، فقاتله - أن
شاء الله تعالى - فأجملوا معى ، فإن هلكتم بعده ، فقد كفيتكم
أمره ، ولم يعوزكم بطل عاقل تمسدون أموركم اليه ، وإن هلكتم
قبل وصولى اليه ، فأخلفوني في عزيمتى هذه ، وأجملوا بأنفسكم
عليه ، واكتفوا اللهم من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فانهم بعده
يخذلون . »

الجيشان ، وحمل رودريق ، وهو على سريرته ، وقدر رفع على رأسه رواق ديباج يظله ، وهو مقبل في غابة من البنود والاعلام ، وبين يديه المقاتلة والسلاح ، وأقبل طارق على أصحابه ، عليهم الزرد ، ومن فوق رؤوسهم المعائم البيض ، وبأيديهم القسي العربية ، وقد تقلدوا السيوف ، واعتقلوا الرماح ، فلما نظر اليهم رودريق ؛ حلف وقال : « إن هذه الصور هي التي رأيناها ببيت الحكمة ببلدنا ، فداخله منهم الرعب ، فلما رأى طارق رودريق ، قال : « هذا طاغية القوم ، فحمل ، وحمل أصحابه معه ، فتفرقت المقاتلة من بين يدي رودريق ، فخلص اليه طارق ، فضربه بالسيف على رأسه فقتله على سريرته ، وتم لطارق الفوز وانهزم اعداؤه والرعب ملء قلوبهم

ثم تغفل طارق في بلاد الاندلس ، وغنم شيئا كثيرا كان داعية لحسد موسى بن نصير عليه ، وقد بذل طارق وسعه في استئلال السخيمة من صدر مولاه موسى ، بكل الوسيل ، فحمل اليه كل ما غنم ونسب اليه الفتح ، واستكنه

تخفق في رضائه رغم ذلك كله
وفي أقل من عشر سنوات تم فتح الأندلس ،
بلا بعض أصماع جبلية في الشمال الغربي منها

العرب في الأندلس

وبعد ذلك أخذ العرب ينظمون البلاد ويؤمنون أهلها ،
وفرضوا على من لم يسلم منهم جزية أقل بكثير مما فرضه
عليهم الفروص. دون أن يمسه بأذى ، مما دل على أن دولتهم
ستبقى أبد الدهر ، ولكن حدث عكس ذلك لأسباب
سند ذكرها في موضعها

ويست مسألة التسامح الديني التي أظهرها للعرب في
مع ملتهم مسيحي إسبانيا بأشياء القليل الذي يستهان به ، فإن
نخرة وحدة إلى دول أوروبا في القرن السادس عشر ، وإلى
تصاحف مخيف من جراء العقيدة الدينية - نظرة واحدة
في لدماء نتي سفكت . وإلى الحروب الماثلة التي أقامها
تمسب بني - نظرة واحدة إلى المذابح العديدة المتكررة
في سبيلها تمسب الأعشى الدين ، كذبحة فأس التي حدثت

في فرنسا سنة ١٥٦٢ م ومذبحة سان بارتليميو عام ١٥٧٢ م
التي حدثت في باريس وذبح فيها من الهيجنوت ما لا يقل
عن ٢٠٠٠٠ نسمة . ونظرة اخرى الى معاملة مسيحيي
اسبانيا للمسلمين بعد أن طردوهم من اسبانيا والى الفطائع
التي ترعدها منها الفرائص ، تلك الفطائع التي ذكرها
الرندي الفليل منها دون الكثير ، في قصيدته النونية التي
يقول فيها :

يا من لدلة قوم بعد عزم
أحال حالهم جور وطفغان
فلو ترام حيارى لا دليل لهم
عليهم في ثياب الذل ألوان ؛
ولو رأيت بكم عند بيعهم
لهالك الأمر واستهوتك أحزان ؛
يا رب أم وطفل حيل بينهما
كما تفرق أرواح وأبدان
وظفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت
كانما هي ياقوت ومرجان

يقودها العالج المكروه مكرهه
والعين باكية والقلب ولهان
لمثل هذا يذوب القلب من كمد
ان كان في القلب إسلام وإيمان
ويقول منها في موضع آخر :
فجائع الدهر أنواع متنوعة
واللزمان سرات وأحزان
وللحوادث سلوان يسهها
وما لما حل بالإسلام سلوان
ومنها

يا غافلا وله في الدهر موعظة
إن كنت في سنة فالدهر يقظان
وماشيا مرحا يلهيه موطنه
أبعد حصن تغر المرء أوطان؟
تلك المصيبة أنست ما تقدمها
وما لها من طوال الدهر نسيان

ومنها :

يارا كيين عتاق الخليل ضامرة

كانها في مجال السبق عقبان

وحاملين سيوف الهند مرهفة

كانها في ظلام النقم نيران

ورامين وراء البحر في دعة

لهم بأوطانهم عز وسلطان

أعندكم نبأ عن آل أندلس

فقد سرى بحديث القوم ركبان ؟

الا نفوس أبيات لها همم

أما على المجد أنصار وأعوان ؟

والفصيدة طويلة وقد اخترنا أحسن ما فيها ، وهي - رغما

عن سذاجتها - تدل على شعور صادق ونفس متألمة ثم هي

أيضا تقرر حقيقة تاريخية ووقائع ثابتة ليس من شك في

وقوعها

أقول :

إن نظرة إلى كل ذلك ، بل مالنا نذهب بعيداً - إن

نظرة واحدة الى ما لا تزال ترتكبه حتى أشد الامم مدنية الى الآن من الجرائم والفظائع وصنوف القسوة بسبب التعصب الديني، لتبين لكم قيمة هذا التسامح الذي العظيم الذي أظهره مسلمو الأندلس نحو مسيحييها، وتجعلكم تكبرون أمره لا سيما في ذلك الوقت - ولكنه الدين الاسلامي الذي بنى على السلام والصفاء والتسامح هو الذي هدام الى ذلك

« وتداول على بلاد الأندلس ولادة من قبل بني أمية أو من قبل من يقيمونه بالفيروان أو بمصر ، حتى قتل الوليد ابن يزيد ، فاشتغلوا عن مراعاة أقاصي البلاد ، ووقع الاضطراب بآفريقية ، والاختلاف بالأندلس أيضا بين القبائل ، ثم اتفقوا بالأندلس على تقديم قرشي يجمع الكلمة الى أن تستقر الأمور بالشام لمن يخاطب ، ففعلوا ، وقدموا يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، فسكنت به الأمور ، واتفقت عليه القلوب ، واتصلت امارته إلى سنة ١٣٨ بعد ذهاب دولة بني أمية بست سنين

وفي هذه السنة دخل الأندلس عبد الرحمن بن معاوية
الملقب بالداخل ، فقامت معه اليمانية ، وحاربه وانتصر عليه
واستولى على قرطبة ، دار الملك ، وكان دخوله اياها يوم
الأضحى من تلك السنة ، فاتصلت ولايته إلى أن مات
سنة ١٧٢ « (١)

ولما كنا نمد عبد الرحمن الداخل ، مؤسس أكبر دولة
إسلامية في الأندلس ، بحق ، ونعزوله أكبر الفضل في تنظيم
تلك البلاد ، ومعاربة الفوضى ، التي كادت تلتهمها ، نؤلا
جهوده العظيمة ، وسياسته الحكيمة ، التي نهضت بها
وكانت سببا في ازهار الآداب والحضارة العربية في
الأندلس ، ولما كان هذا الرجل فذا في نوعه وكان اثره في
دق البلاغة العربية شديدا جدا ، فانا لانرى بأسا من التوسع
قليلا في سيرته الخافلة بالعظام ، لنلم بما لا بد من معرفته من
تاريخ هذا الملك الكبير ، متممين ما أغفله الاستاذ نيكسون
في الصفحات التالية :

(١) ملخصة عن كتاب المعجب في تاريخ اخبار المغرب

عبد الرحمن الداخل

ولد سنة ١١٣ وتوفي سنة ١٧١ هـ

« لما وقع الاختلال ^(١) في دولة بني أمية ، والطلب عليهم ، فرعبد الرحمن ، ولم يزل في غراره متنقلا بأهله وولده ، الى أن حل بقربة على الفرات ، ذات شجر وغياض يربد المغرب ، لما حصل في خاطره من بشري مسكمة ^(٢) »

(١) هذه عبارة ابن حيان التي نقلها المقرئ عنه
(٢) يشير بذلك الى حادثته مع مسلمة بن عبد الملك وهي مشهورة ، وحلاصتها أن عبد الرحمن هذا ، دخل ذات يوم وهو صبي ، على جده هشام ؛ وعنده أخوه مسلمة ، وكان شديد القراسة بعيد النظر ، فأمر هشام أن ينحى عنه ، فقال له مسلمة : « دعه يا أمير المؤمنين ! هذا صاحب بني أمية ووزرهم عند زوال ملكهم ، فاستوص به خيرا » قال عبد الرحمن : « فلم أزل أعرف من جدى ، زية من ذلك الوقت »

ولا نحبنا في حاجة الى التنبيه على ما تركته هذه البشري في نفسه من الاثر ، وما خلفته فيها من الامل الذي لا حد له في احراز السلطان ، فاجتزأ أشد العقبات الموائمة ، وأحرز فيما بعد ، ملك بلاد الاندلس

حكايتہ عن نفسہ

قال عبدالرحمن الداخل :

« إننى لجالس يوما فى تلك القرية ، فى ظلمة بيت
تواريت فيه ، لرمد كان بى ، وابنى سليمان ، بكر ولدى ،
يلعب قدامى ، وهو يومئذ ابن اربع سنين أو نحوها ، إذ
دخل الصبي من باب البيت ، فازعا باكيا ، فاهوى الى حجرى
فجعلت ادفعه لما كان بى ، ويأبى الا التعلق ، وهو دهش
يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع ، فخرجت لأنظر ، فاذا
بالروع قد نزل بالقرية ، ونظرت فاذا بالرايات السود عليها
منحطة ، وأخ لى حدث السن كان معى يشتهد هاربا ،
ويقول لى « النجاء يا اخى ! فهذه رايات المسودة » فغصرت
بيدى الى دنائير تناولتها ، ونجوت بنفسى ، والصبي أخى
معى ، وأعلمت اخواتى بمتوجهى ومكان مة صدى ، وامرتهن
أن يلحقننى ومولاى بدر معهن ، وخرجت فكمننت فى
موضع ناء عن القرية ، فما كان الا ساعة ، حتى أقبلت اخيل
فاحاطت بالدار ، فلم تجد أثرا ، ومضيت ، ولحقنى بدر ،

فأنيت رجلا من معارفى بشط الفرات ، فأمرته أن يبتاع
 لى دواب وما يصلح لسفري ، فدل على عبسوء له . العامل
 فما راعنا إلا جلبة الخيل تحفزنا ، فاشتدنا فى الحرب ،
 وسبقناها الى الفرات ، فرمينا فيه بأنفسنا ، واخيل تناديننا
 من الشط : « ارجعا ! لا بأس عليكم » فسيحت حاثا انفسى
 وكنت أحسن السبع ، وسبح الغلام أخى ، فلما قطعنا نصف
 الفرات ، فصر أخى ودهش ، فالتفت اليه لا قوى من قلبه
 واذا هو قد أصغى اليهم ، وهم يخدعونهُ عن نفسه ، فناديته
 « تقتل يا أخى ! الى الى ! » واذا هو قد اغتر بأمانهم ،
 وخشى الغرق ، فاستعجل الانقلاب نحوهم ، وقطعت أنا
 الفرات ، وبعضهم قدم بالتجرد للسباحة فى اترى ، فاستكفه
 أصحابه عن ذلك ، فتركونى ، ثم قدموا العصى ، أخى . الذى
 صار اليهم بالامان ، فضرخوا عنقه . ومضوا برأسه ، وأنا
 أنظر اليه ، وهو ابن ثلاثة عشر سنة ، فاحتملت فيه ثكلا
 ملائى مخافة ، ومضيت الى وجهى أحسب أنى طائر ، وأنا
 ساع على قدمي ، فلجأت الى غيضة أشبه ، فتواريت فيها
 حتى انقطع الطلب ، ثم خرجت هاربا أروم للغرب ، حتى

وصلت الى افريقية ا. هـ .»

ذهابه الى افريقية^(١)

وصل الى افريقية ، وقد ألحقت به أخته شقيقته ،
مولاه بدرا ، ومولاه سالما ، ومعها دنانير للنفقة وقطعة
من جوهر ، فنزل بافريقية وقد سبقه اليها جماعة من فل
بنى أمية

وكان عند واليها ، عبد الرحمن بن حبيب الفهرى ،
يهودى حدثانى صاحب مسالة بن عبد الملك ، وكان يتمكن
له ويخبره بتغلب القرشي الروانى الذى هو من أبناء منوك
الفوم ، واسمه عبد الرحمن ، وهو ذو صنفيرتين ، يملك
الاندلس ، ويورثها عقبه ، فاتخذ الفهرى عند ذلك صنفيرتين
أرساهما رجاء أن تناله الرواية ، فلما جرى بميد الرحمن ، ونظر
الى صنفيرتيه ، قال لليهودى : « ويحك : هذا هو . » وأن
قائه ، فقال له اليهودى : انك ان قتلته ، فإهو به ، واثن

(١) ملخصة عن كتاب نفع الطيب

غلبت على تركه فانه لمو ،، فافتتح الفهرى بذلك واستصوب
رأيه ، وانما احتال اليهودى بهذا الكلام لينقذ عبد الرحمن
الداخل من شره

* * *

وأخذ الفهرى يضطهد من نزل به من الامويين ،
ويتجنى عليهم ، فلم يسع الداخل الا الفرار من وجهه ،
فاستخفى منه ببرقه نحو خمس سنوات ، وتقلب في قبائل
البربر الى أن استقر على البحر عند قوم من زنانه ، وأخذ
في تجهيز مولاه بدر للمعبور الى الاندلس لموالى بنى أمية
وشيعتهم بها

مهمة بدر

ذهب بدر الى بلاد الاندلس ، وأخذ يفتن في استمالة
أشباع بنى أمية ومواليهم ، وما زال يذكركم بمكان الداخل
منهم ، ويمنيهم باعلاء الدرجة ولطف المنزلة ، حتى أفلح في
اجتذاب اليمانية بعد أن فشل في استمالة مضر وربيعة ، وكان
اليمانية قوما قد أوغرت صدورهم على مضر ، فانهزوا هذه

الفرصة للانضمام الى جانبه (١)

* * *

وعاد بدر الى مولاه (٢) في مركب ومعه احد عشر رجلا ، فيهم تمام بن علقمة ، فالفوا الداخل يصلى ، وكان قد اشتد قلقه وانتظاره لبدر رسوله ، فأسرع بدر اليه ساجدا في الماء ، غير متمهل حتى تصل للمركب الى الساحل ، وبشره بنجاح مسعاه ، وخرج اليه تمام فسأله الداخل :

« ما اسمك ؟ » فقال له : « تمام » قال : « وما كنييتك ؟ »

قال : « ابو غالب » فقال : « الله أكبر ! تم أمرنا وغلبنا بحول الله ! » (٣)

(١) وساعد على ذلك بمد يوسف بن عبد الرحمن القهرى

صاحب الاندلس فى الثغر وغيبة الصميل

(٢) وكان عبد الرحمن قد وجه خاتمه الى مواليه ، فكتبوا

تحت ختمه الى من يرجونه فى طلب الامر ، فنشوا ذلك فى الجهات مادب به امرهم

(٣) هذا دليل على ميل الداخل الى الاخذ بمذهب النفاؤل ،

وفى تاريخه كثير من الادلة على ذلك

ذهاب الداخل الى الاندلس

وبادر عبد الرحمن بالدخول الى المركب ، فتعرض البربر
دونه . ففرق عليهم من المال حسب اقدارهم . ما ارضاهم به
جميعا . وسافرت المركب وساعدتها الريح حتى حلوا بساحل
البيرة في ربيع الآخر سنة ١٣٨ فزل بها ، فأناء جماعة من
وجوه الموالي وبعض العرب فبايعوه . فخرج الى كوردونية
فدخلت في جماعته وبايعه أهلها وأجنادها ، وانثال عليه
الناس انثيالاً فقوى أمره ، واستمضخم شأنه ، على عمر الأيام
حتى دخل قرطبة بعد سبعة اشهر ، كما سنبينه بعد قليل

* *

وكن خبر دخوله للاندلس قد صادف صاحبها يوسف
الفهري بأثغر وقد قبض على بعض الثائرين بسر قسطة
وقتلهم ، فجاءه رسول يركض من قرطبة يعلمه بأمر
عبد الرحمن ونزوله بساحل جند دمشق ، واجتماع الموالي
المروانية اليه ، وتشوف الناس لأمره ، فانتشر الخبر في
الجيش لسرعه حظه ، وتمرد كثير من الجنود ، فسارعوا

بالانضمام الى الداخل

وأمرت السماء مطرا لم يعهد له مثيل ، فازداد موقفه حرجا ، ولم يبق في عسكره سوى غلمانه وخاصته وقوم الصميل ، فأقبل الى طليطلة واستشار الصميل ، فنصح له بالمبادرة الى قتال الداخل قبل أن يستفحل أمره ، وأظهر له خوفه من انقلاب اليمانية ، ولكن يوسف حين لما رأى انفضاض الناس من حوله ، واقتقاره إلى المال ، وشدة ما منى به من المجاعة في سفرته ، وسار بجيشه الى قرطبة رغم نصيحة الصميل

فتح قرطبة

سار عبد الرحمن الداخل الى اشبيلية فاحسن لقائه رئيس عربيها أبو الصباح اليحصبي ، وقر الرأي على أن يقصدوا به إلى قرطبة (دار الامارة) فلما أقبل إليها الداخل ، خرج له يوسف وكانت المجاعة التي شملت أهل الاندلس ست سنوات قد أضعفت قواهم ، فانتهت المعركة بفوز الداخل ، وفرار يوسف الفهري والصميل



وما زال عبد الرحمن داثبا ، يذل كل عقبة بحزمه
وشجاعته ، حتى ثبت ملكه بين تلك العواصف التي كادت
تقتله مرارا ، فظفر بالفهرى بعد قليل وقتله ، ثم نى
بالصميل فحبسه وأوعز إليه من خنقه

وقد افتن في التنكيل بالنوار ليعتبر أعداؤه بمصرعهم
ثم استوحش من العرب ، فاكثر من اتخاذ البربر ، وما زال
يعمل داثبا على توطيد الأمن في الأندلس ، والسير بها في
طريق الحضارة ، حتى وافته منيته سنة ١٧١ فترك مملكة
ثابتة الدعائم ، زاهرة بالعلوم والآداب ، برف على أرجائها علم
السلام والرفاهية

اخلاق.

عبد الرحمن الداخل

- ١ -

صراحتي

كان الداخل أمل واسع يصبو الى تحقيقه ، وهو
امتلاك بلاد الاندلس ، ^(١) وقد تسبعت نفسه - هذه الفكرة
اجريئة حتى امتزجت بلحمه ودمه ، وحتى هيمنت على كل
مشاعره . فواجه أشد الأخطار في سبيل تحقيقها . ولما
ساعده الجدل على إدراك اربته . لم يستطع أن يفكر لحظة
واحدة في أنهمرون بأقل شيء يحتمل أن ينفضي إلى انتكاش
امرد بدتامة . ومن ثم لم يحجج عن ذلك من تلوذ .

(١) كما نرى فيما بعد اسلاف المرثية . من زعم ملك من
أيدي العباسيين اندائه وقد هم بدات . التي نعه عن انه ذه لا
اشغله بمسكين النفاق والقصاء على اثر بلاد الاندلس .
وسيمر بك ذلك في حينه

٣ - نظرات

وقف في طريقه ، كائنة ما كانت منزلته عنده ، أو قرابته
الشديدة منه ، حتى كان يفضل أن ينسب إلى العقوق
ونكران الجليل في سبيل توطيد ملكه

وحسبك دليلا على صرامته فتكه بالمغيرة ، ابن
أخيه ^(١) ، حين رآه يطعم في اجتذاب الأمر اليه ، وقتله
أبا العصباح اليحصبي زعيم اليمانية الذي مر ذكره والذي
ساعده على قهر يوسف الفهرى ، وقسوته الشديدة في معاملة
مولاه بدر الذي يعزى له أكبر الفضل في نجاحه

(٢) وقد عدوا ذلك من أوجه الشبه بين الداخل والمنصور ،
فقد قاسره به في رجوبيته وحزمه وصرامته ، واجترأه على
الكبر . رعبط الملكة . وهو فخته في أن تم كل منهما بريرة
وأن كل منهما قتل ابن أخيه ، لأن المنصور قد قتل ابن السفاح
كما قتل نوح المغيرة

ولعن هذا التشبه في أخلاقهما بين لنا السرف في إعجاب المنصور
بـ . وقيمة . بصير قريش ، وسنورد بعد قليل وصف المنصور
بـ . لتي . لاء . به . وانه . به ، وقد صدق علي بن أبي
طالب في جود مجده . ما عرف منها ائتلاف
و حنيف

ولكن ما أجدرنا أن نسمى هذه الصرامة حزما
 فقد كان مركزه غاية في الخطورة والخرج ، وكان في أشد
 الحاجة إلى الطمانينة على ملكه الزرع ، فآخذ من صرامته
 وسيلة إلى تثبيت ملكه بين تلك الفتن والعواصف الموحشة ،
 وسلك أمتل الطرق وأخشنها في تأديب العصاة والنائرين
 حتى استطاع أن يستبدل الفوضى بالنظام ، والخوف بالامن
 والطمانينة

٢٠ ديمقراطية

وأيكون مع صرامته ، وتنكيله بأعدائه ، متكبرا
 جافي لطباع ، بل كان على العكس من ذلك ديمقراطيا وديما
 من الأخلاق ، فكان يقدم العامة . ويسمع منهم ، وينظر
 بنفسه في آرائهم . ويتوصل إليه من أراد من الناس ، فيصل
 إليهم . منهم في رفع ظلمة إليه دون مشقة ، وكان من
 عادته أن يأكل معه من أصحابه من أدرك وقت طعامه ،
 ومن وافق ذلك من طلاب الحوائج أكل معه

انصاف

وكان عادلا منصفاً ، راجح الحلم واسع الاناة ، لا يملك
زمامه هواه ، وفي الحكاية التالية مثال حسن ، تبين منه
إخلاصه للحق ، وتقديره لمواهب الرجال :

* *

لما فتح سرقسطه ، وتم له ما أمله من الفوز على أعدائه
أقبل خواصه يهنئونه ، فجرى بينهم أحد من يؤبه به من
الجند ، فنهأ بصوت عال ، فقال : " والله لولا أن هـذا
اليوم يوم أسبغ علي فيه النعمة من هو فوقى ، فأوجب على
ذلك أن أنعم فيه على من هو دونى ، لا صليتك ما تعرضت
له من سوء النكال . من تكون ، حتى تقبل مهنثا . رافع
صوتك ، غير متلجلج ولا متهيب لمكان الإمارة . ولا عارفا
بقيمتهم ، حتى كأنك تخاطب أباك أو أخاك ، ومن جهلك
ليحملك على العود منها ، فلا تحذ مثل هذا الشافع فى مثـ
من عقوبة ! " ،

فقال : « ولعل فتوحات الامير يقترن اتصالها ،
باتصال جهلى وذنوبى ، فتشفع لى متى أتيت بمثل هذه الزلة ،
لا أعدمنىها الله ! » ،

فتهاى وجه الأ مير ، وقال : « ليس هذا باعتذار
جاهل ! » ، ثم قال : « نبهونا على أنفسكم ، اذا لم تجدوا من
ينبهنا عليها ! » ، ورفع مرتبته ، وزاد فى عطائه .

(٤)

ميله الى الجد

ولولا تكاليف العلى ، ومغارم
ثقال ، وأعقاب الأحاديث فى غد
لأعطيت نفسى فى التخلّى مرادها
فذلك مرادى مذنبات ومقصدى^(١)

ولا نحسبنا فى حاجة الى التدليل على ميل لداخلى الى
الجد وعزوفه عن الملاهى . فتمد يكون فى كل ما مر أمثلة
مقننة . يتجلى فيها دؤوبه وميله الى الجد ، على أننا لا نرى ،

مع ذلك ، بأسا من الاستشهاد بالمثاليين التاليين :
 « لما خرج من البحر أول قدومه إلى الأندلس ، أتوه
 بنحمر ، فقال : « إني محتاج لما يزيد في عقلي ، لا لما ينقصه ! »
 ولما أهديت له جارية جميلة ، نظر إليها وقال :
 « إن هذه من القلب والعين بمكان ، وإن أنا اشتغلت
 عنها بهمتي فيما أطلبه ، ظلمتها ، وإن اشتغلت بها عما أطلبه ،
 ظلمت همتي ، ولا حاجة لي بها الآن » وردها على صاحبها
 وهكذا أنساء الطموح إلى المجد ، وشغلته فكرته النبيلة
 عن مواطن اللهو والسرور
 وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

(٥)

فضله

كيف وصفه أبو جعفر المنصور
 وقد اعترف له بمزاياه النادرة التي انفرد بها دون غيره ،
 أبو جعفر المنصور الذي كان (كما يقولون) ، بصدق حسه ،
 وبعد غوره ، وسعة احاطته ، يسترجع الداخل كثيرا ، ويعده له

بنفسه ويكثر ذكره ، ويقول :

« لا تمجبوا الامتداد أمرنا ، مع طول مراسه وقوة أسبابه ، فالشأن في أمر قتي قريش الأحوذى الفذ في جميع شؤونه ، وعدمه لأهله ونسبه ، وتسليه عن جميع ذلك ببعد مرقى همته ، ومضاء عزيمته ، حتى قذف بنفسه في لجج المهالك لا ابتناء مجده ، فافتحم جزيرة شاسعة المحل ، نائية المطمع ، عصبية الجند ، ضرب بين جندها بخصوصيته وقع بعضهم ببعض بقوة حيلته . واستمال قلوب رعيته بقضية سياسته ، حتى انقاد له عصبهم ، وذل أيهم ، فاستولى فيها على أريكته ، ملكاً على قطيعته ، قاهراً لأعدائه ، حامياً لدماره ، مانعاً لحوزته ، خالطاً الرغبة اليه بالرغبة منه ، إن ذلك له والفتى كل الفتى ، لا يكذب مادحه (١) ،

أوصافه

كان أصهب ، خفيف العارضين ، بوجهه خال ، طويل القامة ، نحيف الجسم ، له صنفيران ، أعور ، أخشم (٢)

(١) هذا أبداع ماقرأناه في وصف الداخل (٢) لا يشم

أديب

شعره (١)

- ١ -

ورث الأمويون عن أسرتهم حب الشعر والموسيقى
والبلاغة الراقية ، وقد هاموا بها ، واحبوها أكثر مما أحبوا
القرآن ، وإن صح نسبة تلك الأبيات المشهورة ، التي
قيلت في النخلة إلى صقر قريش ، عبد الرحمن الأول ،
لدل ذلك على أنه يحسن منظره الخارجى الحشن ، احساسا
غاية في الرقة ، فقد حكى أنه رأى فى إحدى حدائق
قرطبة نخلة منفردة ، جابوها من سوريا ، وإنه ليشخص
ببصره إليها ذات يوم ، إذ تذكر أرض وطنه ، وأحس برارة
النفى والغربة ، فقال (٢)

(١) معرفة عن كذب الامتداد نيكسون

(٢) لم يتبع لما الرجوع الى الاصل العربي للملك الابيات، وقت

يا نخل ! أنت فريدة مثلي

في الارض ، نائية عن الأهل

اللقاء المحاضرة ، فاضطرونا الى ترجمتها حينئذ ، ولا بأس من اثبات تلك الترجمة بعد ان عثرنا بأصناف العربي، لتكون في هذه المرة شرحاً للايات :

« أيتها النخلة ! أنت هنا غريبة في بلاد المغرب أنت بعيدة عن موطنك الشرقي ، أنت شبيهة في الذماسة - ابكى أيتها النخلة ! ولكنك لا تستطعين البكاء ، أيتها الشجرة الخرساء الكسيفة البال . ليس مثلك من يرى لحالي ! آه ! لشاركتني في البكاء ، لو كان لديك من دموع أسكبينها ، على رطائك على شراطيء الفرات ! ولكنك لا تذكرين شيئاً عما هنا لك في تلك الاحراش الباسقة كما اذكر أنا ! فليد انساني اصدقائي كراهيتي للاعداء ! وقد ورد في الشطر الاخير بدل كلمة الاعداء في الاصل بنو العباس

O Palm, thou art a stranger in the West,
Far from thy Orient home, like me unblest.

"How canst thou weep, my Dam' dees of tree

Thou art too rude to sympathise with me!

Ah! thou would'st weep, if thou hadst tear
to pour,

For thy companions on Euphrates' shore,

But yonder tall groves thou rememberest not

As I, in hating foes, have my old freinds forgot.

نبيكي ، وهل تبكي مكممة
 عجماء ، لم تجبل على جبلى !
 ولو أنها عقلت ، إذن لبكت
 ماء الفرات ومنبت النخل
 لكنها حرمت ، وأخرجني
 بغفي بنى العباس عن أهلى
 وقد ذكر له المقرئ أبياتا أخرى قالها فى النخل ، ا. هـ .

٢

والأبيات التى عنها نيكاسون هى :
 تبكت لنا وسط الرصافة نخلة
 تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
 فقلت : " شبيهى فى الغرب والنوى
 وطول ابتعادى عن بنى وعن أهلى " ،
 نشأت بأرض أنت فيها غريبة
 فمنلك فى الافضاء والنتأى منلى
 سقتك غواذى المزن فى المنتأى الذى
 يسح ويستمرى المما كبن بالوبل

ولقد تتبينون من هذه الآيات، حنينه وشغفه ببلاده
وعطفه على وطنه

وقد صدق، فأى إنسان حساس شريف النفس، يستطيع
أن يتلهم عن وطنه الذى نشأ فيه، ولو بكل نعيم العالم
ولذاته؟ وليس مثل عبد الرحمن من ينسى بلاده التى انطبع
حبها فى شغاف قلبه. فلقد مات وهو يذكرها، وقد حن
إليها مراراً فى أشعاره

ولن يكون عبد الرحمن الداخل أقل حنيناً إلى أرضه
ووجداً إلى عيشه الأول. من تلك العربية المشهورة التى آثرت
عيشها الخشن على كل ما لقيته فى قصور ملوك بنى أمية من
صنوف اللذات وأفانين الترف والاهو، وقالت بيتها للمشهور:
ولبس عبادة وتقر عيني أحب الي من ليس الشفوف

٣

وقد روى له الشيخ محي الدين بن على التميمي المراكشي
صاحب كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، الآيات
التالية التى بعث بها إلى اخته وهى الشام وهى :

أيها الراكب الليمم ارضي
افر من بعضي السلام لبعضي
إن جسعي كما علمت بأرض
وفؤادى وساكنيه بأرض
قدر البين يديننا فاقترقنا
وطوى البين عن جفوني غمضى
قد قضى الله بالفراق علينا
فعمى باجتماعنا سوف يقضى !

واثن صحت نسبة هذه الاشعار اليه وعرفنا من عزم قائلها :
وهمامة نفسه التي اصغرت كل مأرب ، ما عرفناه - فاز قوله
في البيت الأخير

قد قضى الله بالفراق علينا فعمى باجتماعنا سوف يقضى
يدل على احلام وامان بعيدة ، كان يحيش بها صدره ،
وتنطوى عليها نفسه الوثابة التي لم تقف عند حد
نعم يدل على أنه كان يطمح لو مد الله في عمره الى غاية
يصغر أمامها كل ما أدركه من ذلك العظيم الذي كان يمد
الحصول عليه حملا . . . !

وماذا يريد بقوله : « فمضى باجتماعنا سوف يقضى »
 الا أنه كان يحلم أيضاً بالتغلب على الدولة العباسية ، التي اجتمعت
 شأفة الامويين ، والقضاء عليها ، بعد أن يوطد ماله في الاندلس ،
 وليس يعلم الا الله وحده ماذا كان يكون لو لم تعترضه
 تلك العقبات المؤسفة ، من إباء العرب وعصبيتهم ، وتمرد
 المسيحيين من الاسبان ، الى غير ذلك . وربما كان اشتغاله
 بإطفاء تلك الفتن ، وتوطيد دعائم ملكه وسحق العصاة ،
 الأمر الذي استغرق كل مدة حكمه على طولها ، هو الذي
 جعل هذه الأمنية في عداد الأحلام ! ولقد يعوز هذا
 الاستنتاج ، البرهان التاريخي ، ولكننا قد نجد من وصف
 العلامة ابن خلدون لعبد الرحمن الداخل ما يزيدنا استعجاباً كما
 بهذا الرأي وبجعلنا أميل إلى ترجيح ، قل :

« وكان (عبد الرحمن الداخل) يدعو الى المنصور »

ثم قطعها لما تم له الملك بالاندلس ، ومهد أمرها ، وخذل ابن
 مروان الساطان بها ، وجدد ما طمس له ، ونشرق من معه .
 بخلافة وأثارها ، واستلحم الثوار في نواحيها ، وقطع دونه
 العباسيين من منابرهم ومد المذاهب منهم دونها »

فلقد تتبينون من ذلك طريقته الحكيمة في التدرج
من صغير الأمر إلى كبيره ، فقد كان يطمح ، في أول أمره ،
إلى جمع الأمر في يده . ولو تحت سلطة العباسيين ، وساعده
ذلك على بلوغ إرثته ، فلما تمت له هذه الخطوة الكبيرة ،
خطا خطوة ثانية لا تقل عنها شأنًا ، فناراً الدعوة العباسية
وعمل على إبطالها ، فنجح في سعيه ، واستقل بأعباء هذا
الملك العظيم ، ونظم البلاد وحقق العصاة وأخذ الفتن ، بمزيمة
صادقة ، وهمة دائبة لا تعرف الكلل ، فلا غرو إذا
استنتجنا من قوله :

قد قضى الله بالفراق علينا فعمى بأجماعنا سوف يقضى
أنه كان يحلم أيضاً بمثل العباسيين ، وتمنيه نفسه بالتمغاب
عائهم ! وهذا من استنتاج خاص ، وربما أيدناه أو عدلنا
عنه . إذ طالعنا على ما يؤيده^١ وينفيه فيما بعد^(١)

(١) وثمة بعض إخواننا في هذا الاستنتاج في حينه ؛
واتبعنا بعضهم بالعدالة والاعتراف في الخيال ، وحسبوا أننا
أسرفنا في توين هذا البيت . وزعم بعضهم ، بكل جرأة ، أن
توين بيت لرحمن لداود نفسه ينعى هذا الاستنتاج ويثبت

٤

ومما نختاره من شعره قوله - بعد أن استقامت الدولة له - حين بلغه عن بعض من أعانه أنه قال : " لولا أنا ،

فساده ، وقد أصررنا حينئذ على رأينا حتى نعتز بمسند تاريخي يميزه أو ينفيه ، أما الآن فقد توافرت لدينا الأدلة التاريخية ، التي لا تدع مجالاً للشك في صحته ، وإليك ما قاله ابن خلدون في ذلك

« وفي سنة ست وأربعين ومائة ، سار العلاء بن هيثم اليحصبي من أفريقية الى الأندلس ، ونزل بباجة الأندلس داهيا لأبي جعفر المنصور ، واجتمع إليه خاق ، فسار عبد الرحمن اليه ولقيه بنواحي أشبيلية فقاتله أياماً ثم انهزم العلاء ، وقتل في سبعة آلاف من أصحابه ، وبعث عبد الرحمن برءوس كثيرة منهم الى القيروان ومكة ، فالقيت في أسواقها سراً ، ومعها اللوايا الاسود ، وكتاب المنصور للعلاء ، فارتاع المنصور لذلك وقال ما هذا الا شيطان ، والحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر ، أو كلاماً هذا معناه (في رواية أخرى أنه قال : « عرضنا هذا البائس (يعني العلاء اليحصبي) ناحتف ! ما في هذا الشيطان مطمع ! فالحمد لله الذي صير هذا البحر بيننا وبينه ! ») وكثرت ثورات رؤساء العرب ، لأندلس على عبد الرحمن الداخل ، وناصريه

ما توصل لهذا الملك ، ولكن منه أبعد من العيوق ، وأن
آخر قال : « سعيده أعانه لا عقله » ، فقال مفندا تلك
المزاعم :

لا يلف ممتن علينا قاتل :
« لولاى ماملك الأنام الداخل ! »

ملكه ، ولقى منهم خطوبا عظيمة ، وكانت العاقبة له ، واستراب
في آخر أمره بالمرء لكثرة من قام عليه منهم ، فرجع الى
اصطناع القبائل من سوام . واتخذ الموالي ، ثم غرا الافرنج
والشكنش ومن وراءهم ورجع بالظفر
وهما يقولون ابن حلدن :

« وكان في نيته أن يجده دوة بني مروان بالمشرق فأت دون
ذلك لامل »

وهم قاله للمزى في ذلك :

« وأشاع (الداخل) سنة ١١٣١ ، رحل الى الشام ، لافتراعه
من بني عبس ، ركب جماعة ، حتى بلغ مرتبة رشيدته ،
وعسى أن يستحسنه صبيحنا ، ثم ذهب
بصحة من دونه ، ثم عرض رد - عبس ، ثم حميد ، نصارى
الذي انبرى شيب بسرقت ، ثم دل دوت امره »

سعدى ، وحزبي ، والهند ، والفنا
ومقادر بلغت ، وحال حائل
إن الملوك مع الزمان كواكب
نجم يطالعنا ، ونجم آفل
والحزم كل الحزم ألا ينفلوا
أروم تدبير البرية غفل ؟
ويقول قوم : « سعدى لا عقله »
خير السعادة ما حاسها ، لا عقل !
أنى تبيته : جبرنا منكم
بغرب رغما ، وتسعود قبائل
ما من ذلي لإمام قثم
لك ذكرك ثابت

وقرأه في شهر ربيع الأول سنة ١٢٠٠ هـ
بمدينة بغداد في دار السيد محمد باقر
الطوسي

شتان من قام ذا امتعاض
منتفى الشفرتين نصلا
فجاب قفراً، وشق بحرا
مساميا لجة ومحلا
دبر ملكا، وشاد عزا
ومنبرا للاخطاب فصلا
وجند الجند حين أودى
ومصر المصر حين أخلا
سم دعا اهله إليه
حيث اتأوا. أن هلم أهلا!
فجاء هذا طريد جوع
شديد روع، يخاف قتلا
من ثمناء. ونال شيعا
ونال مالا، ونال أهلا
فبكى حق ذ على ذا
أعظم من منعم ومولي؛

وفي هذه الأبيات والتي قبلها صورة صادقة تتمثل
منها نفس عبد الرحمن الوثابة، ونطالع فيها صفحة موجزة
من تاريخه الحافل بالعظم.

نشر

أما نثره ، فقد حاق في سماء عالية من البلاغة ، لم يسبق
إليها شعره الجليل ، الذي يعجبنا فيه جمال الصدق المتحلى به ،
وتأجج العاطفة المنبعث منها ، وطموح نفس قائله ، وما ينفجنا
به أثناء قرأته من الذكريات الجليلة ، وما نحسه فيه من
العزيمات الصادقة ، التي تزيد إعجابنا به .

[illegible]

محاضرات

ونبدأ بالحكاية التالية التي تتمثل فيها موعظة جواربه
وحضور ذهنه ، ووفور أدبه :

حكوا أنه كان في بعض مجالسه ، فذل بين يديه رجل
من جنده فأسر بن يستجديه ، فقال له : دو يا ابن الخلاق
أناك دين ، والساعة الأكرمين ، إليك قدرت ، وبك عذت
في زمن ظوم ، ودهر غشوم ، قلل المال ، وكثر العيال ،
وشعب الحال ، فخير إلى نذاك المال ، وأنت ولي الحمد
والجود ، أن جري الرفد ،

فأجابه عبد الرحمن بسرعاء :

فسمعتنا مقالة بيت . وقصيدة حاجتك ، وأنت
من ربهوت ، على كرمك ، وكرمك ، وكرمك ، ولا سوك
شرب من يرقه مدد رعبك . صرح السائلة واللاحاح في
الطلب . فردد ألم بك خصب . وحبك سر ، وفعه يهف
من ربهوت ، كرمك ، كرمك ، كرمك ، وكنت

شمت العدو وعذك ، بعد رفعك لها إلى مالـكك ومالكنا -
عز وجهه ، - باخلاص الدعاء ، وصدق النية ،
قالوا : « وأمر له بجائزة حسنة ، وخرج الناس يعجبون
من حسن منطقته ، وبراعة أدبه . وكف فيما بعد ذوو الحاجات
عن مقابلته بها شفاها في مجلسه »

* *

أوجز ما يقال في هذه الكلمة ، أنها تشريع حكيم ،
وقانون عادل ، سنه لشعبه في هذه الاسطر القليلة ، حتى
لا يتورط أحد منهم في مثله مرة أخرى ، وقد لام في هذا
التشريع الموجز ، بين ما تطالبه ديمقراطية نفسه ، وما تقتضيه
أرستقراطية الملك ، وجمع في ذلك الجواب بين الحزامة
والأريحية ، والتعنيف والمطف . ولم يعزب عن باله أن
حرمانه هذا السائل - علي ما قد يكون به من عوز - قتل
له ، ومجال لشمانة أعدائه به ، كما أن صلته من غير تقرير
شديد . قد تفتح عليه بابا يستنفد كل ما في خزائنه من
المال ، دون أن يفى بحاجة كل محتاج ، وفي جملة الأخيرة
أبدع رد على عبارة التناق التي ختم بها ذلك السائل كلامه .

أما الأسلوب الذى صيغت فيه هذه الكلمة المرتجلة فهو
فى نظرنا ، فى ذروة البلاغة العربية ، لنصاعته ودقته ، وهما
ميزتان كاد يتفرد بهما أسلوبه من بين الأمراء

* *

وإليكُم مثالا آخر من بلاغته :

حدث بعض موالى عبد الرحمن الخاضعين به ، أنه دخل
عليه ، إثر قتله ابن أخيه المغيرة بن الوليد^(١) وهو مطرق
شديد الغم ، فرفع رأسه إليه وقال :

« ما عجبي إلا من هؤلاء القوم ، سمعنا فيما يرضيهم
فى مهاد الأمن والنعمة ، وخاطرنا فيه بحياتنا ، حتى إذا

(١) كان الداخل بعد أن استتب ملكه بالاندلس ، شديد
الارتياح الى وفود أقاربه من بني مروان ، ليشهدوا أنعم الله عليه
فتوافدوا عليه ، وكان منهم يزيد وعبيد الله ابن أبان بن معاوية
وهو ابن أخي الداخل ، وكان تحت تدبير يبرمائه فى طلب الأمر ،
فوثبى بهما أحد موالى الثانى ، ومما قاله بعد قتلهما : « نعم
ما أنعم الله به علي ؛ بعد تمكنى من هذا الأمر ، القدرة على إيواء
من يصل الى من أقارنى ، والتوسع فى الاحسان اليهم ، وكبرى
فى أعينهم وأعمالهم ونفوسهم ، بما منحنى الله من هذا السلطان
الذى لائمة على فيه لاحد غيره »

بألفنا منه مطلوبنا ، ويسر الله أسبابه ، أقبِلوا علينا أمام
 السيوف ، ولما أوفيناكم وشاركناهم فيما أفردنا الله به حتى
 آمنوا ودرت عليهم أخلاق النعم ، هزوا أعصابهم ، وشمخوا
 بأنفهم ، وسموا إلى العظمى ، فنازعونا فيما منحنا الله خذلهم
 بكفرهم النعم ، إذ اطلعنا على عوراتهم ، فما جئناهم قبل أن
 يعاجلونا ، وأدى ذلك إلى أن ساء ظننا في البرى منهم ،
 وساء أيضا ظنهم فينا . وصدر توقع من تغييرنا عليه ،
 ما نتوقع نحن منه . وإن أشد ساء على في ذلك آخر ، والد
 هذا الخذلان ، كيف تضرب لى نفس بجاورتنا . قد قتل ولده .
 وقطع رجلا . وكيف يجمع محبى من يرد . أخيرح إليه
 السعة في تدرا . وحده حمة آلاف دينار ادفعها إليه .
 وأقره عيا حمة حرة إلى حيث شاء
 من برائه . ١١ .

منه لا يوت
 فتأدود يكون
 على نفسه ق

خطابتي

أما خطبه فلم يعد لنا منها إلا بضع كلمات وجيزة ، كان
يبحث بها هم أصحابه ، ويلهب نار الحماس في قلوبهم ،
فن ذلك قوله لهم حين اشتد الكرب بين يديه ، يوم
حربه مع الفهري :

« هذا اليوم هو أسس ما يبنى عليه ، إما ذل الدهر ،
وإما عز الدهر ، فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون ، ترجوا بها
بقية أعماركم فيما تشتهون (١) »

قد مرى ما سمى فيه إلى رجل طلب العافية وقنع بكسبه ،
في كنف من يحمل عنه معصرة الزمان وكله ، ولا حول ولا قوة
إلا بالله ، ولا مرد لما حكم فيه به وقصاه في الحركة إلى البر المدوة »
قال : « فلما رجعت إلى الأبره ، أعلمته ، بقوله : « ربه
يفق الحق ، وليسك لا تخدعك هذا القول مما في نفسه ، والله
هو قدر أن يشرب دمي ، مع عذبة لحظة ، فالجده الله الذي أظهرنا
عليهم بما نؤيداه فيهم ، وأظلمت نواوهم فينا »

(١) وقد ذكرته لمراجع سحر دباب بك في كتابي « تاريخ

— ٣ —

كتابتة

ولعل أسمى ذروة وصلت إليها بلاغته ، هي ما نشاهده

الغرب في اسبانيا ، خطبة قالها رداً على تمام (الذي قدما ذكره في ص ٢٩) حين عرض عليه امارة الاندلس باسم الوفد الذي أتى معه ، متقدما اليه ، قائلا :

« أجمع المسلمون الصادقون على انتخابك أمير الجزيرة ، فيسمعك أن تبنى فيها ملكا مشيد الاركان ، موطن الدمام ، على أساس أقوى من الجبال ، معتمداً على عزائم القوية ، وطائفتهم الصادقة ، لا ريب أن ستجد مقاومة وبعض خطر ، ولكنك لست وحدك ، بل بجانبك فتيان أشداء من أبناء من فتحوا الغرب ، وشعوب ترغب فيك وتدعوك اليها ، ونحن جميعاً نهب الى الوغي ، ونبذل الارواح في سبيل ارتقائك الى عرش الامارة التي تلقى مقاليدها اليك ، وتحفظ بنيانها من أن يثلم »

فسكت عبدالرحمن هنيئة يتوقع منه أن يتم خطابه ، لكنه شعر أن لو قد ينتظر اجابته فخطبهم بقوله :

أيها السراة الاجداد ! اجابة لوزائكم ، وسمعياً وراء أمانيتكم في اصلاح شؤون مسلمي اسبانيا ، أذهب معكم ، باذلا النفس ، في

في رسائله مع مولاه بدر ، حين غضب عليه ، لشدة عجبه وامتنانه عليه ، ففي تلك الرسائل تتمثل ذلك القلب الكبير مضطرباً جائشاً ، كما يصطخب الخضم الزاخر ، عند اشتداد العاصفة ، وثم نرى صفحة مشرقة من البلاغة العربية ، متفردة بأسلوبها القوي ، ومعانيها الباهرة :

ونبدأ بما كتبه إلى مولاه بدر ، رداً على رسالة بعث بها إليه ^(١) قال :

سبيل الدفاع عن هذه الغاية الحميدة ، فإذا صدقت عزائمكم ، ودامت طاعتكم وفتح الله لنا باب الفوز ، رأيتم مني أحاطة يقاصمكم الشقاء والمهانة ، يعلم الله أنني لأخشي الشدائد ولا أهوال الحروب ولا أُرهب الموت الآخر ، فقد عركني الدهر وعركته ، وكثيراً ما ركبت متون الاحطار على حدائث سني ، وإذا كان ما يدهونني إليه هو رغبة مسلمي الاندلس الاشراف ، فأنا إلي فدائهم وأقبل أن أكون اميرهم ، وحامي ذمارهم ان شاء الله .

* * *

ونحن نرتاب في اسلوب هاتين الخطبتين ، لضيقه وبعده عن اسلوب ذلك العصر ، ولعلهما ترجتا عن لغة أجنبية - بعد ان صاع اصاهما العربي ، أو لعلنا وهمون في ذلك !

(١) بعد ان سعى بدر في تأسيس دولة عبدالرحمن ، صحبه

« وقفت على رقعتك المنبثة عن جبهك ، وسوء خطلك ،
ودناءة أدبك ، ونشيم معتقدك ، والمعجب أنك متى ما أردت
أن تبني لنفسك عندنا متانا ، أتيت بما يهدم كل مقام مشيّد
فأتمن به — مما قد أضجر الأسماع تكراره ، وقدحت
في النفوس إعادته — استخرنا لله من أجله ، على أن أمرنا
بإستئصال مالك ، وزدنا في هجرك وإبعادك ، وهضنا جنح
إدلالك ، فعل ذلك يجمع منك ويردعك ، حتى يبلغ بك

عجب واستمان فبدأ يقول : « بعنا أنفسنا ، وخاطرنا في شأن
من هانت عليه لما بلغ أقصى أمه ، » وقال مرة حين أمره بالخروج
في غرة : « ربي تعبني مستريح حيراً ، وما أرانا إلا في أشد مما
كنا ، » وأكثر من توبيخ من عند الكلام وأشباهه فأعرض عنه
مدخل ومخيد . فلما رأى في نفسه حتى كتب له رفعة منها :
« ما كان حزني في قمع البحر وجهه بالفقر ، ولا فدام على
نشتيت نظام الحكمة ، وقائمة أخرى ، غير المحر الذي أهانني
في عدي كذا في ربي نيت في ربي ، وأضمت أرمي ، ونهبي
عند من يرثي ، وتودع ، كذا يكرمي ويخمدني على
الطمع والرجاء ، وأطع ، ربي ، ربي ، ربي ، ربي ، ربي ، ربي ،
ما بلغوا في أكثر من عند ، ربي ، ربي ، ربي ، ربي ، ربي ، ربي ،

ما نريد - إن شاء الله - فنحن أولى بتأديبك من كل أحد ،
إذ شرك مكتوب في مثالينا ، وخيرك محدود في مناقبنا ^(١) ،

* *

وبعث إليه بدر رسالة ^(٢) فكتب يجيبه :
« إن لك من الذنوب المترادفة ، ما لو سلب معها
روحك ، لكان بعض ما استوجبته ، ولا سبيل إلى رد
مالك ، فإن تركك بمعزل ، في الهنية الرفاعية ، وسعة ذات
اليدين ، والتخلي من شغل الأيدي ، أشبه بالنعمة منه بالنعمة .
فياأس من ذلك ، فإذ اليأس مرشح . »

* *

وكتب إليه بدر يستعطفه في يوم عده ، ^(٣) فكان

(١) وقد أشفق عليه : من هـ ذ الرعي توحيد .
استأصل له ، ولزمه داره ، وذاك حديثه ، في تربية الله .
(٢) يقول فيها : « سلطان هرة . . . »
واشد داع كرفي سلبه . . . « فعمو الذي تربي . . . »
مالك ، واتجده في معزل ، لا تتركه سلطان ، ولا تدخر في شيء
من أموره ما عشت .
(٣) لما واده اليدين ، ورثي حاجة من يارده به ، رحمه .

جوابه عليه أن أمر بنفيه عن قرطبة إلى أقصى الثغر ،
وكتب له في ظهر رقعته :

« لست أعلم أنك لم تزل بمقتك ، حتى ثقلت على العين طلعتك
ثم زدت إلى أن ثقل على السمع كلامك ، ثم زدت إلى أن
ثقل على النفس جوارك ، وقد أمرنا بأقصائك إلى أقصى
الثغر ، فبالله إلا ما أقصرت ، ولا يبلغ بك زائد المقت إلى
أن تضيق بك مع الدنيا

ورأيتك تشكو بفلان ، وتنالم من فلان وما تقولوه
عليك ، وما لك عدو أكبر من لسانك ، فما طاح بك غيره ،
فأقصعه قبل أن يقطعك ، »

يفرح به الناس ، كتب إلى عبد الرحمن الداخل رقعة منها :
« وقد أتني هذا العبد الذي حاولت فيه من أساء إليك ، وحي
في خراب دوايك ، بمن عفرت عنه فتبكت المعمة في ذراك ،
واقتمد ذروة العز ، وأنا على ضد من هذا ، سليمان من النعمة ،
مطرحة في حضيض الهوان . أيا من يكون ، واقرع السن على
عليه م كان ، »

أثر الداخل في الحضارة الأندلسية

نظرة ختامية

وجه الداخل عناية خاصة إلى الآداب والعلوم والفلسفة وأكثر من عقد الاجتماعات الأدبية والعلمية والفلسفية ، بالرغم من اشتغاله بإطفاء الثورات ومكافحة المغيرين ، والقضاء على الفوضى التي كانت تنذر البلاد الأندلسية بالخراب بين آن وآخر .



ولم يشغله ذلك عن العناية بفنى الزراعة والعمارة أيضا فعمل على إنهاضهما ، وما زال بهما حتى بلغا شأوا بعيدا ، وأصبحت قرطبة على عهده - تحاكي مدينة بغداد ، في اتساع شوارعها ، وضخامة مبانيها ، وكثرت فيها الحمامات والفنادق ، وانتشرت البساتين على طول ضفة الوادي الكبير ، وزاد عدد المدارس التي أكثر من بنائها



وشرع في بناء الجامع المشهور بجامع قرطبة سنة ١٧٠

وأخرج عليه مائة ألف دينار (كما يقولون) ، وقد ذكرنا
أن ذلك الجامع كان فذا في نوعه ، وأن من بدائعه
احتواءه نحو ثلثمائة وستين طاقا ، على عدد أيام السنة ،
تدخل الشمس كل يوم من طاق إلى أن يتم الدور ثم تعود ،
وأن فيه تنورا من نحاس أصفر يحمل ألف مصباح ، وأن
فيه مصحفا بخط عثمان بن عفان

والآن فلنودعه - وفي قلوبنا له أجمل الذكري -
ونحن على أمل ببقاء في فرصة أخرى - نرجو أن تتمكنوا
الظروف منها ، فنحن له ببعض حقه علينا في رسالة نفرد به (١)

(١) اخبار الداخل طوية ممتعة ، فليرجع اليها من شاء التوسع
في المراجع الآتية .

- ١ الجزء الاول من تفح الطيب من ص ١٥٥ الى ص ١٥٨
- ٢ « الثاني منه من ص ٧٠١ الى ص ٧٦١
- ٣ « الجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون المسمى بالعبر ،
وديران المبتدا والخبر ، من ص ١٢٠ الى ص ١٢٤
- ٤ كتاب تاريخ العرب في اسبانيا للرحوم محمد دياب بك
من ص ٦٥ الى ص ١٦٨
- ٥ كتاب المعجب في تاريخ أخبار المغرب من ص ٩ و ص ١٠
- ٦ الجزء الاول من كتاب دوزي المسمى « تاريخ مسلمي اسبانيا »
Histoire des Musulmans d'Espagne.
من ص ٢٩٧ الى ص ٣٨٧

هشام بن الداخل

(١) ١٧٢ - ١٨٠

مات عبد الرحمن الداخل في سنة ١٧٢ ، خلفه ابنه هشام ، وكان عادلا رحيا ، ورعا يتفقد أحوال رعيته بنفسه ويساعد من يستحق المساعدة من الفقراء ، وقد ذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز ، فكان يبعث ثقاته الى الكور ، فيسألون الناس عن سير عماله ، ويخبرونه بحقائقها ، فإذا انتهى اليه عن أحد هم حيف ، أو وقع به ، وأسقطه ، وانصف منه ، ولم يستعمله بعد ، ففرح الناس بولايته ، ولقبوه بالعدل وبالرضى ، وارتفع شأن الفقهاء في زمنه

مثال من عدله

اعترض له يوما متظلم من أحد عماله ، فقال له هشام :

(١) ولى الملك وعمره ثلاثون سنة تقريبا ومات بعد سبعة أعوام وتسعة اشهر من خلافته

«وإحلف على كل ما ظلمك فيه ، فإن كان ضربك فاضربه ،
أو هتك لك سترًا ، فاهتك ستره ، أو أخذ لك مالا ، فخذ
من ماله مثله ، إلا أن يكون أصاب منك حدا من حدود
الله ...»

أثره في الأندلس

وقد وجه همه إلى العناية بقرطبة ، فأكثر من بناء
المساجد التي كان يدرس فيها الفقه والعلوم العربية ، وأتم
جامع قرطبة الذي شرع الداخل في بنائه ، ولم تشغله حروبه
مع أخويه اللذين شقا عصا الطاعة عليه ^(١) ولا غزواته
الكثيرة وكفاحه الشديد لاستئصال شأفة النصارى عن
مواصلته إصلاحاته العديدة

فضله على العرب بيت

وقد حظى على النصارى أن يتكلموا بغير العربية ، وإن
كان قد أباح لهم الكتابة بلسانهم اللاتيني ، وبذلك
أصبحت اللغة العربية هي اللغة الغالبة العامة ، وساد اللسان

(١) وقد أخضعهما ، ثم عفا عنهما فيما بعد

العربي في الأندلس

مثال من أدبه

قالوا : « وكان هشام إذا حضر مجلساً امتلاً أدباً وتاريخاً
وذكر أمور الحرب ومواقف الأبطال ، ^(١) وكان واسع
الاطلاع ، بارع الذوق ، سأله أبوه (الداخل) يوماً ، عن قاتل
هذين البيتين :

وتعرف فيه من أبيه شائلاً

ومن خاله ، أو من يزيد ، ومن حجر

سباحة ذا ، مع بر ذا ، ووفاء ذا

ونائل ذا ، إذا صحا ، وإذا سكر

فقل له : « يا سيدي لا مريء القيس ملك كندة .

وكانه قاله في الأمير أعزه الله ، فضمه إليه استحساناً بما سمع

منه ^(٢) وأمر له بأحسان كبير ، وزاد في عينه ^(٣)

(١) كما كان أخوه سامان كلما حضر مجلساً امتلاً فخفاً وهدياناً

(٢) وقد سأل سامان على التمراد عن نسبة هذين البيتين فقال :

« لعلهما لأحد أجلاف العرب ، أم لي شغل غير حفظ اقوال

بعض الأعراب ؟ » فأطرق عبدالرحمن وعرف قدر ما بين الاثنين

من المازية (٣) ويمكن الرجوع الى أخباره في الجزء الأول من نهج

الحكم الاول^(١)

١٨٠ - ٢٠٦

ولما مات هشام سنة ١٨٠ ، وليه ابنه الحكم^(٢) بمهد منه اليه ، فاستكثر من الماليك ، وارتبط الخيل ، وباشر الأمور بنفسه ، وكان من المجاهرين بالمعاصي ، وفي أيامه

الطيب من ص ١٥٨ الى ١٦٠ وفي تاريخ ابن خلدون ص ١٢٥ وفي كتاب العرب في اسبانيا من ص ٩٦ الى ص ١٠٦

(١) ولد سنة ١٥٤ ومات سنة ٢٠٦ ، وولي الحكم وسنه أقل من خمس وعشرين سنة

(٢) وقد نازعه الحكم عمه (سليمان ، وعبد الله اخواه هشام وابنا الداخل) وثارا عليه ، فانتصر عليهما بعد حرب شديدة ، قتل فيها عمه سليمان ، ومثته سنابك الخيل ، وفر عبد الله عمه الثاني ، ثم طلب الصلح بعد ذلك ، فصفح عنه الحكم سنة ١٨٦ قالوا : « لما جرى بمحنة عمه سليمان الى ابن اخيه الحكم ، بعد قتله في تلك الحرب - بكاه وشيع جنازته باجلال واحترام وكان ذلك في سنة ١٨٤ .

أحدث الفقهاء انشاد أشعار الزهد ، والحض على قيام الليل .
 في الصوامع بالمساجد ، وجعلوا يخطون بذلك كثيرا من
 التعريض به ، مثل أن يقولوا : « يا أيها المسرف المتمادى في
 طغيانه ! المصر على كبره ! المتهاون بأمر ربه ! أفق من
 سكرتك ، وتنبه من غفلتك ^(١) » ، وما نحا هذا النحو
 فهاجبه ذلك من الفقهاء ، وصب سخطه عليهم ، وكانوا
 يحرصون العامة عليه ، حتى هاجموا قصره يريدون قتله ^(٢)

رباطة جأشم

ومما يحسن ذكره هنا ، ما رواه ابن حبان ^(٣) من أنه
 لما تسور عليه القصر ، وأحس بالشر ، قل لاخص ذلمانه :
 « ذهب الى فلانة (إحدى كرائمه) قل لها تعطيك قارورة
 الغالية ، فابطأ الغلام وتأسف ، فأعاد ذلك عليه . فقال :

(١) وكذا بعضهم يقل في أدائه « الصلاة يا مخمور ! » تعريضا له

(٢) لما انهمك الحكم في ذلك اجتمع أهل الدلم بقرطبة ، مثل

يحيى بن يحيى الأيثم ، فندوا به وخالفوه ^(٣) ماخضة عن كتاب
 المعجب .

« يا مولاي هذا وقت الغالية ؟ » فقال له : « ويملك يا ابن
ال بم يفرق رأسي من رؤس العامة إذا قطع ، إن لم يكن
مضمخا بالغالية ؟ »

ومن حسن حظه أن دام جنوده العامة من ورائهم ،
فشتنوم ، ثم أمر بتقتيلهم وهدم ديارهم ومساجدهم وحرقها
ونفى من بقى منهم عن البلاد ، فخرجوا حتى نزلوا جزيرة
اقريطاش من جزائر البحر الرومي ، المقابلة لبربرة أول
بلاد المغرب ، فلم يزالوا هناك سمنيز ، إلى أن تفرقوا فرجع
بعضهم إلى الاندلس ، واختار بعضهم سكنى صقلية ، وانتقل
آخرون إلى الاسكندرية ^(١)

(١) « كان الحكم في صدر ولايته قد أنهك في لذته ،
 واجتمع أهل العلم بقرطبة مثل يحيى بن يحيى ، وطالوت الفقيه
 وغيرهما ، فثاروا به ، وامتنع ، فخلعوه وبايعوا يحيى بن تميم ،
 من صومعة هشام . وكان بالربض الأندلسي من قرطبة محلة متصلة
 بقصره ، وحاصروه سنة ثمان مائة ، وقتلهم ، فطلبهم ، وفتروا
 وهدم دورهم ومساجدهم ، ولحقوا بفس من أرض المدونة .
 ولحقوا بالاسكندرية » ا . هـ ملخصاً عن ابن خلدون

صفات وأخلاقه

كان عالماً ، فطناً ، فصيحاً ، شاعراً ، حازماً ، لكنه
متكبر قاسى القلب ، سريع الغضب ، قالوا : « وكان أخل
بنى أمية بالاندلس واشدم اقداما ونخوة ، وكان يشبه بأبى
جعفر المنصور من خلفاء نى العباس فى شدة الملك وتوطيد
الدولة ، وقع الاعداء ، »

ميله الى اللهو

وكان شديد الواع بحاس الفناء واللهو ، لا يخرج من
قصره زه من السلم ، وفرضنا شئون المملكة الى ابنه عبد الرحمن
وكان يقضى أوقاته فى مجالس الطرب والخمر ، فى حدائقه
بين غلمان ونساء اللاء كر يحسن الغناء

مثال من شهادته

أما شهادته فاعل أبدع ما رأناه من الامثلة الدالة علىها ،
ما حكه المقرئ من أن العباس شاعر توجه الى النفر ، فلما
نزل بوادى الحجازة ، سمع امرأة تقول : « واغوثاه بك

يا حكم ! لقد اهلطنا حتى كلب العدو علينا فأيننا ، فسالها
عن شأنها ، فقالت : « كنت مقبلة من البادية في رفقة ،
فخرجت علينا خيل عدو ، فقتلت ، وأسرت ، فصنع قصيدته
التي فيها :

« تدارك نساء العالمين بنصرة

فأنك أحرى ان تغيث وتنصرا ،

فلما دخل عليه انشده القصيدة ، ووصف له خوف
الشعر ، واستهزأه المرأة باسمه ، فأنف ، وبأدى في الحين
بالجهد ، وغزا تلك الناحية وفتحها ، وقتل كثيرا من أهلها
ثم امر باحضار المرأة ، وأمر بضرب رقاب الاسرى بحضرتها
وقال للعباس : « سلها هل اغاثها الحكم ؟ » ، فأجابته :
« والله لقد شفى الصدور ، وازكى العدو ، واغاث الملهوف
فأغاثه الله ، وأعز نصره » ، قالوا : « فرتاح لنفوسها . وبدا
السرور في وجهه وقال :

« ألم ترى يا عباس أني اجبتها

على البعد أفتاد الخميس المظفرا !

فأدركت أوطارا وبردت غلة
ونفست مكروبا وأغنيت معسرا،

مثال من اقدام

ولما هجم سكان الربض الجنوبي من قرطبة على حرسه
وزاد هياجهم حتى فرقوا شمله، وانتموا الى قصر الامير،
مهدديه بالدمار، تقلد الحسك سلاحه، وهم بالنزول، فألح
عليه من معه بالتريث في امره، فلم يسمع لهم قولا، وجمع
فرسانه وركب في مقدمتهم وخرج الى الثائرين فنكصوا
على أعقابهم

مثال من شعرة

ومما عثرنا به من شعرة، قوله لما قتل أهل الربض، وهدم
ديارهم وحرقها :

رأيت صدوع الأرض؛ اسيف راقعا
وقسم لأمت انشعب مذ كنت يافعا
فسائل ثغوري. هل بها اليوم ثغرة ؟
أبدرها مستنضى السيف دارعا

تنبئك أنى لم اكن فى قراهم
بوان، وقد ما كنت بالسيف قارعا
وهل زدت إذ وفيتهم صاع فرضهم
فوفوا منايا قدرت ومصارعا
فهذى بلادى، إننى قد تركتها
مهادا، ولم أترك عليها منازعا
وقوله من قصيدة :

من لى بمقتضبات الروح من بدنى
يفصبنى فى الهوى عزى وساطنى

اثره فى الانداس

أول من جند الاجناد المرتزقة بالانداس (كما يقول
ابن خلدون) وجمع الاسلحة والعدد ، واستكثر من الحشم
والحواشى ، وارتبط الخيول على بابه ، واتخذ الممالك ، وكان
يسمى الخرس لعجمتهم ، وبلغت عدتهم خمسة آلاف ،
وكان ياتر الامور بنفسه ، وكان له عيسون يعالونه
بأحوال الناس

الدين في اسبانيا

✽ تغلب العرب على الاسبانيين كما قدمنا في المحاضرة الاولى فانشر الاسلام في اسبانيا وأصبح هو الدين السائد على الاغلبية من السكان وقد شرح لنا الاستاذ نيكلسون الاسلام في اسبانيا والآراء الدينية التي كانت سائدة بين المسلمين، في القطعة التي سنتلوها عليكم الآن - وشرح لنا العلامة دوزي المسيحية في اسبانيا، واثار الاسلام في المسيحيين، والآراء التي كانت سائدة بينهم، في قطعة أخرى، ونحن نبدأ بما قاله نيكلسون لاهميته، ثم نختم هذا الفصل بما قاله دوزي في هذا الصدد، واليك ما قاله الاول ✽

(١)

الاسلام في اسبانيا

لم يكن العرب ليكونوا الاقلية الصغيرة من مسلمي اسبانيا، فحسب، بل كانوا زيادة على ذلك يظهرون عدم مبالاهم بالدين، وحققتهم تقوانين الاسلام، مما هو منتظر من رجال تشبعوا بتقاييد البدو وكانوا كل أيامهم على اتصال بأموبي دمشق والنيويين، وعلى التقيض من ذلك كانت الحال مع

البرابرة ، ومع مؤمنى اسبانيا المسمون بالصائبين ، أو المولدين ، الذين يعيشون كوال في كنف أشرف العرب ، فلقد تمسكت تلك الطوائف بالدين الذي اتبعته استمساكا يتناسب مع مزاجها السوداوي الحار ، الذي كانت تماز به دائما — ومن ثم ساد بين مسلمي اسبانيا ايمان صارم ، يتمثل في يحيى ابن يحيى المتوفى سنة ٨٤٩ م وهو أحد البرابرة ونموذج لهذا الصنف .

يحيى بن يحيى

سافر إلى الشرق وسنه وقتئذ ثمان وعشرون سنة ، وتلقى العلم على أستاذه مالك بن انس الذي أملى عليه كتابه المعروف بالموطاء ، وحدث أن كان يحيى ذات يوم في إحدى دروس مالك ومعه عدد من الطلاب رفقاءه ، فقال قائل : « حضر الفيل فجروا جميعا لرؤيته ، ولم يتحرك يحيى من مكانه ، فسأله مالك : « لم لم تذهب لتراه وليس في اسبانيا مثل هذا الحيوان ؟ » فاجابه يحيى : « لقد تركت بلادى لأراك واتلقى عنك الدروس ، ولم آت ههنا رؤية الفيل » فسر مالك هذا الجواب وقال عنه انه عاقل إسبانيا ، ولما

عاديحي الى إسبانيا ، بذل كل ما في وسعه لنشر تعاليم
مذهب سيده - واثن كان يحيى هذا قد أصر بسبب تورعه
ونسكه على رفض أى منصب من المناصب العامة - فقد
عظم تأثيره رغم ذلك وذاع صيته إلى حد ان وصلا - كما
يقول ابن حزم - الى أنه كان لا يولى قاض فى الاندلس إلا
بعد أن يؤخذ رأى يحيى فيه ، وإلا بعد أن يبين من يفضله
على سواه من الناس ^(١)

(١) هذا ما أورده ابن خلكان فى الجزء الرابع صحيفة ٢٩ ،
وليك ماقاله المقرئ فى ذلك :

« ومن الراجلين من الاندلس الفقيه المحدث ، يحيى بن يحيى الليثى
داوى الموطن من مالكة رضى الله تعالى عنه ، ويقال ان اصله من
بربرة مسمودة - وحكى انه لما ارتحل الى مالكة ولازمه ، فبينما
هو عنده فى مجلسه مع جماعة من أصحابه ، اذ قال قائل « حضر القيل
فخرج اصحاب مالكة كلهم » ولم يخرج يحيى ، فقال مالكة : « مالكة
لم تخرج وليس القيل فى بلادك » فقال « انما جئت من الاندلس لانظر
اليك واتعلم من هديك وعلمك ، ولم أكن لانظر الى القيل » فاجب
به مالكة وقال : « هذا حافل الاندلس » ولذلك قيل « ان يحيى هذا
حافل الاندلس » وعيسى بن دينار فقيهها ، وعبد الملك بن حبيب

وعلى ذلك فقد أصبح مذهب مالك يلى الحديث مباشرة
فى اتخاذه شرعا للبلاد - قال عالم من كتاب القرن العاشر
«لقد كان الاسبانيون لا يعرفون الا القرآن والموطأ ، فكانوا
اذا وجدوا تابعا من أتباع مذهب أبى حنيفة أو الشافعى

عالمها، ويقال ان يحيى راويها ومحدثها، وتوفى يحيى بن يحيى سنة ٢٣٤هـ
فى رجب وقبره يستسقى به بقرطبه » وقال المقرئ :
« وكان مع أمانته ودينه معظما عند الامراء يكنى عندهم
عفيفا عن الولايات منزها جلت رتبته عن القضاء ، وكان أعلى من
من القضاء قدرا عند ولاة الامر بالاندلس ، ثم حده فى القضاء
وامتناعه - قال الحافظ بن حزم - « مذهبان انتشرا فى بدء أمرهما
بالرياسة والسلطان ، مذهب أبى حنيفة ، فانه لما ولى للقضاء ابو يوسف
كانت القضاء من قبله ، من أقصى المشرق الى أقصى عمل الفريقين ،
فكان لا يولى الا أصحابه والمنتسبين لمذهبه ، ومذهب مالك عندنا
بالاندلس ، فان يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان ، مقبول القول
فى القضاء وكان لا يلى قاض فى اقطار الاندلس الا بمشورته واحتياره
ولا يشير الا بأصحابه ومن كان على مذهبه والناس سراع الى
الدنيا ، فاقبلوا على ما يرجون بلوغ اغراضهم به - على ان يحيى لم
يقبل قضاء قط ، ولا أجاب اليه - وكان ذلك زائدا فى جلالته عندهم
وداعيا الى قبول رأيه لديهم » ا . هـ

طرده من اسبانيا - والويل لمن يصادفونه من المعتزلة أو الشيعة أو من طائفة تنتمى لمذهب ما ، فانهم كثيرا ما كانوا يخدمون أنفاسه^(١) .

وقد كان علماء الدين الاسلامى متفطرسين ومفرطين فى التعصب الأعمى والطمع فى احرار القوة ، فلم يشاءوا أن يرأسهم أحد فى المملكة - فاما فى زمن هشام (٧٨٨ - ٧٩٦) خلف عبد الرحمن ، فقد رأوا أميرا وفق ما يتمنون ، فقد كانت تقواه وورعه مما لا يدع لهم مجالالا - كلام ، وكان على شا كلهم فاهتم بشئونهم

وأما الحكم (٧٩٦ - ٨٢٢) فقد كان أقل منه مراعاة لهم - نعم انه كرم رجل الدين وبجلهم واسكنه فى الوقت نفسه أراهم أنه لن يسمح لهم بالتدخل فى الشئون السياسية مطلقا فتموا عليه ، وعلى رأسهم يحيى بن يحيى الشرس واجابوه بتهديد والاهانات ، واستثاروا جمهور قرطبة ولا سيما الصابئين - وكانوا فى اجزاء اجنوبى من المدينة وهو المسمى باربع - ليقوموا فى وجه ذلك الظالم وجنوده السفهاء - وفى

ذات يوم من أيام رمضان (١٩٨ هـ) (مايو سنة ٨١٤)
وجد الحكم نفسه وقد أقصيت عنه حاشيته وحاصره الغوغاء
المتهميون في قصره ، ولكن شجاعته لم تفارقه ، وقد أنجاه من
مأزقه الخطر الذي كان فيه ، برودته وإتقاده جيشه المدرب له -
وكان نصيب تلك الضاحية النائرة أن دكها دكا ونفى من
سلم من القتل من أهلها إلى بلاد بعيدة ، وبلغ عددهم نحو
ستين ألف نسمة - والحق أن المجرمين الأصليين لم يقيموا
تحت طائلة العقاب - ثم كف الحكم عن اضطهاد رجال
الدين الخفيين الذين شعروا بأنهم يستطيعون أن يصلوا
منه باللين إلى ما أخفقوا في الحصول عليه بالقوة - وإذا كان
أغلبهم من الدرب أو البرابرة ، فقد بثوا الدعوة الشديدة في
الناس لاحترام الحكم ، فعادت اليهم قوتهم في الحال - وفي
زمن عبد الرحمن الثاني (٨٢٢ - ٨٥٢) أدار دفة السياسة
الملية ، يحيى بن يحيى زعيم الثورة بنفسه ، وتولى توزيع مناصب
القضاء كما أراد . ا . هـ ،



هذا هو الجزء الذى تناول فيه الاستاذ نيكاسون ،
الكلام على الاسلام فى اسبانيا ، ولما كنا لا نستطيع
مناقشته فى كل ما قاله ، لكثرة الأغراض الاخرى التى
نريد الكلام عنها ، فإننا نكتفى بأهم تلك النقاط والزمها الآن
وحسبنا أن نلقى بنظرة سريعة على ما قاله :



فأما أسلوبه فهو دائماً لا يتغير - أسلوب موجز مملوء
بالمعانى كما رأيتم ، وكما ترون فى كل ما ننقله لكم عنه ،
وأما النتائج التى نخرج بها من هذه القطعة فأننا نسوقها ممزوجة
بآراء غيره من المؤرخين ، مع إبداء ملاحظاتنا على أهمها
إيجازاً - الكلام :

يتبين لنا مما مر ما يلى :

أولاً : قوة نفوذ الفقهاء وهيمتهم التامة على عقول العامة

ثانياً : رغبتهم الشديدة فى الاستئثار بكل شئ

و تدخل فى كل امور المملكة تقريباً

ثالثاً : شدة تشجيع الناس بالعقيدة الدينية وشدة انتصارهم

لها - رابعاً : كثرة حذوهم كانوا يحاربون كل من ينضب رجال الدين أو

يتعدى عليهم

رابعا : معرفة الفقهاء كيف يستثمرون ذلك النفوذ الدينى العظيم ، وكيف ينتهزون فرصة تشيع الجمهور بالعميدة الدينية وتغانيه فى حمايتها - فى انفاذ ما تسوله لهم نفوسهم من الرغبات وفى تحويله إلى حيث شاءت لهم أهواؤهم - وقد شاهدتم كيف أنهم استطاعوا أن يهددوا السلطان نفسه خامسا : أن مسألة الدين فى الاندلس كانت غيرها فى الشرق ، بل أنهما كانتا على النقيض ، فبينما كنت ترى المذاهب العميدة ، والنحل المختلفة ، سائدة فى الشرق ، إذ تشاهد عكس ذلك تماما فى الاندلس ، فلم تكن ترى هنا إلا مذهبا واحدا قد هيمن على كل أهلها تقريبا ، ذلك هو المذهب السنى الذى لم يشذ عنه إلا بعض أفراد غاية فى الندرة ، بمن مالوا إلى مذهبي المعتزلة والظاهرية

سادسا : ان تعصب الناس لمذهب مالك ومغالاتهم فى الاتصاف له ، وصدلا إلى حد الجنون ، فقد رأيت أن اقتنائهم بهذا المذهب ، وتهوسهم فى الولوع بكتاب الموطأ ، وصدلا بهم كما يقول ذلك العالم الذى أشهد به نيكاسون - إلى حد

أنهم كانوا لا يعرفون إلا القرآن والموطأ
بل لقد بلغ جنونهم بالموطأ أكثر من ذلك ، فقد حكى
لنا بعض المؤرخين - أن تعصبهم للموطأ أنساهم النظر في
القرآن والاحاديث

* *

فاما عن النقط الاربعة الاولى فلا أدل عليها مما سرده
نيكلسون عن الحكم هذا وعن حاله مع الفقهاء فقد رأيت
من حكايته جرأة الفقهاء في استعمال نفوذهم على العامة باغرائهم
ايام حتى على مهاجمة قصر الملك ومحاولة قتله
وقد كادوا يفعلون لولا حسن حظه - ولولا أن أغاثه
جنوده الذين داموهم وشتتوا شملهم
واعلم ما يستلقت النظر في هذه الحكاية التي سردها
عن الحكم ، هو قوله عنه :

« وقد أنجاه من مأزقه الخطر الذي كان فيه برودته
وجيشه المدرب ،، والحق أن الحكم قد بلغ من رذائله
وثبات جأشه في هذا المأزق الحرج ، أن داعب خادمه بتلك
الجملة التي سقناها لكم في محاضرتنا السابقة - فقد أمره أن

يأتيه بزجاجة الغالية ليتطيب بها ، وقت أن كان الجمهور يحاصر قصره ويحاول اغتياله ، فلما أبطأ الخادم ، أعاد عليه السؤال ثانية ، فقال له خادمه :

« يا سيدي أهذا وقت الغالية ؟ » ، فاجابه :

« ويلك يا بن الفا ... بم يعرف رأسى من رهوس العامة إذا قطع ، إن لم يكن مضمخا بالغالية ؟ » ،

ولقد سمعنا حكايات عديدة عن رزانة بعض الناس وعن ثبات جأشهم وبرودتهم ساعة الخطر المميت ، فلم نر فيما امكننا مداعبة أغرب من هذه المداعبة ، ولا رباطة جأش وصلت إلى أكثر من هذا الحد

شاهدنا شدة ازدياد نفوذ الفقهاء في ذلك العصر . ولكن لا يفوتنا أن نقول أن هذا النفوذ العظيم الذي شاهدتموه لم يكن ليقاس بما وصل اليه سلطانهم في الاندلس وقت انحطاط الدولة وتفقرها ، فلقد كان نفوذهم يتعاضم كلما ازدادت الدولة في الانحطاط ، وقد كان ذلك اكبر مساعد لدولة على توالي انحطاطها وتفقرها

واقدم كانت وطأة التعصب المدين والانتصار للعقيدة
تخف حين يقبض على ناصية الدولة ملك قوى كالحكم
الثاني مثلا الذي استطاع حماية الفلاسفة ورجال العلم وأحرار
المفكرين من عنت العامة والمتنطعين في الدين - كما سترون
ذلك في حينه - فسترون أنه أطلق حرية التفكير للناس
وأن العلوم قد وصلت في عصره إلى أقصى مدى - وإن
الآداب أزهرت وأن حرية الفكر وصلت إلى حد عظيم
جداً. وأنه أخذ بناصر المفكرين؛ وإن الحرية الدينية لم تصل
في عصر ما إلى ما وصلت إليه في زمنه . سترون كل ذلك في
حينه، ولكنكم سترون أيضاً أن الحرية الدينية رغم ما وصلت
إليه في ذلك الزمن لم تصل حتى في زمن هذا الملك العظيم -
إلى ما وصلت إليه في زمن المأمون الخليفة العباسي

* * *

بني علينا أن نتكلم عن النقطتين الخامسة والسادسة
فنعقول ... إن وصول المذهب المالكي إلى حد أن أنساهم
القرآن نفسه، وإن وصوله بينهم إلى حد أنهم كانوا لا يطبقون
دعوة أي مذهب آخر، وإلى حد أنهم كانوا يطردون أي

متمذهب بسواه، وإلى حد أنهم حرقوا كتب الغزالي حين وصلت إلى الأندلس - كما سترون فيما بعد - وإلى حد أنهم كانوا لا يطيقون النظر في كتاب فلسفة،،

نقول: «إن وصول المذهب المالكي إلى هذا الحد، كان بلا شك نذير سوء بما سنسمعه من المدهشات والغرائب التي حصلت وقت انحطاط الدولة، ومنزورد أهمها في حينه»

* * *

قلنا أن العقيدة الدينية تمكنت من نفوس المسلمين في إسبانيا، وإن الفقهاء تعهدوا غرسها واثباتها وفق ما يستهون وأنهم أولوا النصوص الدينية والآي القرآنية على حسب رغباتهم فإذا نشأ عن ذلك؟؟ نشأ عن ذلك أن الجمهور فيما بعد، وقف عقبة كأداء في سبيل كل من حاول البحث بحرية ففكر، فكأن لا يتردد في رجم كل من سمع عنه الاشتغال بعلوم الفلسفة - متى رأى ما ينكره عليه - بل لقد وصل نفوذ الفقهاء وسيطرة الإمامة إلى حد أن كان الملك إذا حاول استرضاء الرعية تقدم إلى واحد من مشهوري الفقهاء وفوض إليه الأمر في حرق كل ما يراه في مكتبته منها - يفعل ذلك بعد

أن يكون قد احتاط ووضع أهمها في مكان لا يهتدى إليه الفقيه
وكان الجمهور يحارب الآراء الحرة من غير أن يفهم
شيئا عن حقيقتها، وآية ذلك انه كان يخلط الفلسفة بالتنجيم،
فكان يطلق على كل من حاول البحث بحرية ففكر، اسم
المشتغل بالفلسفة والتنجيم - وكان الفقهاء يحاربون الآراء
الحرة والمذاهب الفلسفية لأسباب عديدة. فديكون أهمها
ان اغلبهم كان يخشى على نفوذه إذا انطلقت الافكار من
عقلها وتحررت العقول من ربقة التقليد - وإذا كانوا قد
استمدوا ذلك النفوذ العظيم من سيطرتهم الدينية، فقد
أيقنوا أن سلطانهم الديني باق على الجمهور ما دام جاهلا،
وعرفوا أنه اذا استنار أدرك ما في أقوالهم من التناقض
والاغراق، وفي ذلك القضاء على نفوذهم، وكأنهم كانوا يرون
رأى أبي العلاء في قوله :

الدين متجريميت، فلذلك لا تلقاه في الأحياء إلا كاسدا

* * *

وقد يكون الدافع شيئا آخر، هو وجودهم مضطرب
فكرة واحدة، وعدم قدرته على التمسك مع الآراء الحرة

لقصر مداركه - كما أنه قد يكون ناشئا عن سوء نية
الكثيرين منهم وأنانيتهم وجنونهم بالسيطرة ، لكننا مع
ذلك جديرون أن لا ننسى أن بعضهم كما يفعل ذلك عن
محض اخلاص ، لاعتقاده أن انتشار الفلسفة وحرية الفكر
بين الجماهير هو أكبر باعث على السير بهم في طريق الالحاد
والزندقة وزلزلة العقيدة - فكان لذلك يعتقد أن التضيق
على الآراء الحرة خير معوان على بقاء الدين ثابت الدعائم . آتينا
من تطرق الشك إلى نفوس عامة الناس - ومهما يكن من
شيء فقد أدى ذلك التضيق الى عكس الغرض الاساسى
منه ، فقد حجب الفلسفة إلى نفوس الكثيرين وزادهم هياما
بها ، كما كانت الحل في البلاد الشرقية -

وإذا كان أكثر ملوك الاندلس كانوا يخشون نفوذ الفقهاء ،
ويتهيبون سطوتهم ويبذلون جهودهم في نشر العلم ، ويشجعون
حرية الفكر سررا ، لأنهم لم يجرؤوا على مخافة ارادة الفقهاء ،
وإذا شك العلماء والفلاسفة والملوك شدة بأس الفقهاء في اوائل
الدولة ، فقد انقلبت الحال في أواخرها تقريبا ، وأصبحنا نرى
في الملوك أنفسهم من هو على رأي الفقهاء المنتظمين ، في التضيق

على الفلاسفة، وستتبدون ذلك من القطعة التالية ^(١) وهي :

« وقام بأمره (بأمر الملك) من بعده، ابنه على بن يوسف بن تاشفين، وتلقب بلقب أمير المسلمين، وسمى أصحابه المرابطين، وجري على سنن أبيه في الجهاد، وكان إلى أن بعد في الزهاد والمتبتلين، أقرب منه إلى أن يعد في الملوك والمتغلبين - واشتد إثاره لأهل الفقه والدين، وكان لا يقطع أمرا في مملكته دون مشاورة الفقهاء، فكان إذا ولي أحدا من قضائه كان فيما يعهد إليه أن لا يقطع أمرا ولا يبت حكومة في صغير من الأمور ولا كبير إلا بحضور أربعة من الفقهاء، فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغا عظيما لم يباغوا مثله في العهد - من الأول من فتح الاندلس، ولم يزل اتفقوا على ذلك وأمر المسلمين راجعة إليهم وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم طول مدته - فعظم أمر الفقهاء - كما ذكرنا - وانعرفت وجوههم، فكثرت لذلك أموالهم، واتسعت مكاسبهم وفي ذلك يقول أبو جعفر المعروف بالابن الاندلسي :

(١) منقولة عن كتاب المعجب في أخبار المغرب تأليف عبي الدين المرادي كشي صحيفة ٩٥

أهل الرياء ليستم ناموسكم
كالذئب أدلج في الظلام العاتم
فلستكمو الدنيا بذهب مالك
وقسمتمو الاموال بابن القاسم

ولم يكن يقرب من أمير المؤمنين ويحظى عنده ، لا
من علم الفروع - أعني فروع مذهب مالك - فنفت في ذلك
الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ماسواها . وكثر
ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسوله (صائم)
فلم يكن من مشاهير أهل هذا الزمان من يمتني بها كل
الاعتناء ، ودان أهل ذاك الزمان بتكفير كل من ظهر منه
الخوض في شيء من علوم الكلام ، وقرر الفقهاء عند أمير
المسلمين تقبيح علم الكلام ، وكراهة الساف له ، وهجرهم من
ظهر عليه شيء منه ، وأنه بدعة في الدين ، وربما أدى أكثره الى
اختلال في العقيدة ، واشباه هذه الاقوال ، حتى استحكم في
نفسه بغض علم الكلام وأهله - فكان يكتب عنه في كل
وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه ، وتوعد

من وجد عنده شيء من كتبه - ولما دخلت كتب أبي حامد
الغزالي - رحمه الله - المغرب ، أمر أمير المسلمين بأحراقها ،
وتقدم بالوعيد من سفك الدم واستئصال المال إلى من وجد
عنده شيء منها ^(١) ، ، ا . هـ

(١) ومما قاله ابن سعيد في ذلك ، في كتابه المسمى بالشهب الثاقبة
في الانصاف بين المشاركة والمغاربة ؛ ونقله عنه المقرئ ، قوله :
« وأما قواعد أهل الاندلس في دياناتهم فانها تختلف بحسب
الأوقات ، والمظر الى السلاطين ، ولكن الأغلب عندهم إقامة
الحدود ، وانكار التهاون بتعطيلها ، وقيام العامة في ذلك ،
وانكاره ان تهاون فيه اصحاب الباطان ، وقد ياج الباطان في
شيء من ذلك ولا ينكره ، فيدخلون عليه قصره المشيد ولا
يعبئون بخيله ورجله ، حتى يخرجوه من بلدهم ، وهذا كثير في
اخبارهم .

وأما الرحم بالحجر للقضاء والولاية للأعمال - اذا لم يعدلوا -
فكل يوم «
الى أن قال :

« وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء ، الا الفلسفة والتنجيم ،
فان لها حظاً عظيماً عند خواصهم ، ولا يتظاهر بها خوف العامة ،
فانه كلما قيل : « فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم » اظلمت

نكتفى الآن بسر د تلك القطمة في هذه الالمامة
الموجزة، من غير أن نعلق عليها بشيء من عندنا، ففيها وحدها
تبيينون صورة واضحة للحال الدينية في عصر من عصور الدولة

شيء من الآثار الفعلية

للمعيرة الدينية

ولا يفوتنا بعد كل ما ذكرناه أن نبين لحضراتكم أثراً

عليه العامة اسم « زنديق » وقيدت عليه انقاسه ، فان زل في
شبهة ؛ رجوه بالخجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ،
أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة ، وكثيراً ما يأمر ملوكهم
بأحراق كتب هذا الشأن ، اذا وجدت ، وبذلك تقرب المنصور
ابن ابي عامر لقلوبهم أول نهوضه ؛ وان كان غير خال من الاشتغال
بذلك في الباطن »
وقال :

« وقراءة القرآن بالسبع ؛ ورواية الحديث عندهم رفيعة ؛
وللفقه رونق ووجاهة ، ولامذهب لهم الامذهب مالك ، وخواصهم
يخفون من سائر المباحث ما يباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوى
الهمم في العلوم »

فعليا واضحا من آثار تمكن العقيدة في نفوس أصحابها، متى وجدت محركا قادرا على تصرفها، واستفزاز العاطفة الدينية فيها - فإن الفاء نظرة سريعة على قصيدة أبي اسحق الفقيه ورؤية أثرها العظيم الذي أحدثته في نفوس الجمهور، ليكفى وحده في إثبات ذلك، وانكم لترون فيها مبلغ التحمس الديني العظيم، وكيف أنها كانت السبب في القضاء على ما يربو على أربعة آلاف يهودى، ونهب أموالهم، وتدمير منازلهم، وكانت السبب في حدوث تلك المذبحة الهائلة في القرن الرابع الهجرى سنة ٣٥٩ م

وقد دعا صاحبها الى قولها أن يوسف ابن نغزالة اليهودى الوزير^(١) وشى بأبى اسحق قاتل هذه القصيدة فقصاه

(١) قال صاحب نفح الطيب : « ولما استوزر باديس، صاحب غرناطة، اليهودى الشهير بابن نغزلة، وأفضل داؤه المسلمين، قال زاهد ألبيرة وغرناطة أبو اسحق الأيبرى، قصيدته النونية المشهورة التى منها فى اغراء صنهاجة باليهود . . . الخ . »

« وهى قصيدة طويلة، فثارت صنهاجة على اليهود وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وفيهم الوزير المذكور، فأراح الله البلاد والعباد، ببركة هذا الشيخ، الذى نور الحق على كلامه باد ! »

السلطان عن بلاده - قالوا - وكان ذلك الوزير قد تعرض
لتسفيه بعض الاراء الدينية الاسلامية ، وكان عظيم الخطر
واسع النفوذ - فوجد ابو اسحق من ذلك دافعا الى انشاء
تلك القصيدة البليغة التي سنتلو على حضراتكم احسن
ما فيها والتي دفعه الى قولها غيظه من عدوه ذلك الوزير
الخطير ، فلاها تحريضا وأفعمها حججا وبراهين ، أفاح في
التأثير بها على العامة وحلهم على انفاذ رغباته - وما زال
يتفنن في ضروب الاحتثاث والتهبيج حتى اشتعل الجمهور
الساذج حماسا ، وهجم على ذلك الوزير فقتله في قصر السلطان
نفسه - وليس من شك في أن أبا اسحق بذل كل مواهبه
في الضرب على النغمة الدينية واظهار التفجع الشديد على
ما انتاب الدين من الهاون به وعرف كيف يوالى فيها اطراد
الادلة واتساقها وتدفق المعاني وغزارتها مع دقة في التعبير
عن أغراضه وخواجه بكلام نغم ، يتطايير حماسا ويتأجج
نارا وشعر صارخ

خارج من قلب قائله مثلما يفر بركان
وبهذا استطاع أن يوهم سامعيها أن قتل أولئك اليهود

(أخصامه) فرض لا مناص من اداائه وواجب حتم لا يصح
 السكوت عنه - وانهم، إن كانوا غفلوا عن القيام به فيما مضى،
 فهم خليقون أن يتداركوه في الحال، حتى لا نصب عليهم
 لعنة الله، أو يحيق بهم غضبه، فيخسف بهم الارض، أو تنقض
 عليهم السماء، وكذلك لم يترك ناظمها وسيلة من الوسائل التي
 تستفز أخفي العواطف الدينية السكينة إلا استخدمها،
 ولا نعمة من نعمات التعصب للعقيدة الدينية، إلا ضرب على
 وتيرتها - كل ذلك بأسلوب سهل رشيق كاد يصل اسمواته
 إلى حد الركافة في بعض الايات، مع أنه من أجل الشعر
 وأبدعه - وين شئت فقل، وأروعه، واليكم هذه القصيدة
 الفريدة في بابها:

الافل المستهاجة اجمعين	بدور الزمان وأسد العرب
مقالة ذي مقعة مشفق	يمد النصيحة زلفى ودين
انقد ذو سيدك ذلة	تقر بها عين الشامتين
تخير ككته كفرا	ولو شاء كان من المؤمنين
فعر اليهود به، واتخروا	وتاهوا، وكانوا من الارذلين

ومنها :

فكم مسلم راغب راهب لارذل قرد من المشركين
وما كان ذلك من سعيهم ولكن منا يقوم للمعين
فبلا اقتدى فيهم بالالى من القادة الخيرة المتقين^(١)
وأزلهم حيث يستأهلون وردم أسفل السافلين
فلم يستخفوا بأعلامنا ولم يستطيعوا على الصالحين

ومنها يخاطب السلطان

أباديس^(٢) 'نت' مرو حاذق تصيب بظنك نفس اليعرب

(١) في هذا البيت شيء كثير من الركاكة في قوله (بالآلى
من القادة الخيرة لمتقين) ولكما نفتقرها لما في تدلييه من تنمة
ذلك الصورة الشعرية المنطقية البديعة

(١) الهمزة للاستفهام ، وباديس هو باديس بن حبوس ،
صاحب غرناطة ، وكانت بينه وبين المعتضد حروب شديدة ،
قل بن خلدون : « ولي (باديس) ملك غرناطة بعد أبيه ،
واستولى على سلطانه اسماعيل بن نغزلة الذي ، ثم نكبه وقتله
سنة تسع وخمسين وأربعمائة ، وقتل معه خلقاً من اليهود ، وتوفي
باديس سنة سبع وستين وأربعمائة ،

فكيف خفي عنك ما يعبتون وفي الارض تضرب منها القرون
وكيف تحب فراخ الزنا وقد بغضوك الى العالمين
وكيف يتم لك المرتقى اذا كنت تبني وهم يهدمون
وكيف استنمت الى فاسق وقارنته وهو بئس القرين
ومنها :

واي حللت بغرناطة فسكنت ارام بها عابثين
وقد قسموها وأعمالها فمنهم بكل مكان امين
ومنها :

وعم امانك على سرهم وكيف يكون امينا خثرون؟
وبكل خير درهما فيقضى ويدنون اذياً كلون
وقد مضوا الى ربهم فلاتنمونه وما ينكرون
ومنها :

ورحمه وردم داره وتجرى اليها نير العميون
وصارت حواجنا عندده ونحن على بابه قائمون
ويصحت . ومن ديننا فان الى ربنا راجعون (١)

بزي في مجرى هذه البيت صوب الشيطان في استغزاز
العدو من جهة عندهم شجع على ما اصاب الدين من ضعف
والله اعلم بالصواب

ولو قلت في ماله إنه	كذلك كنت من الصادقين
فبادر الى ذبحه قرية	وضيح به فهو كبش سمين
ولا ترفع الضغط عن رھطه	فقد كزوا كل علق ثمين
وفرقت عرام وخذ ما لهم	فأنت أحق بما يجمعون
ولا تحسبن قتلهم غدارة	بل الغدر في تركهم يعيثون
فقد نكنوا عندنا عهدهم	فكيف نلام على الثما كمين
وكيف تكون لما هممة	ونحن خول وهم ظاهرون
ونحن الائمة من بينهم	كانا أسأنا وهم محسنون
فلا ترض فينا بفعالهم	فأنت رهين بما يفعلون
وراقب الهك في حزبه	خزب الاله هم المفلحون

نك هي الفصيدة البليغة التي استفزت الناس الى الفتنة
باليهود وأخذ البريء منهم بذنب المسيء، وكان من نتائجها
تلك المذبحة الكبيرة التي أشرنا اليها وإلى لا يؤخذ بحريته،
ولا بواجبنا الذي عرف كيف ينتقم لنفسه عن
طريق التشيع المدين والفظهر يظهر المتفاني في لدواعه :

المسيحية في اسبانيا^(١)

« بعد الفتح الاسلامي اعتنق كثير من المسيحيين دين الفاتحين - حفزتهم لهذا المنافع من جهة واقتناعهم بأن الدين الاسلامي هو الدين الحق من جهة أخرى . فقد جددوا فلسفتهم في نظرية الصراع - يعتقدون أنه حيث تكون القوة يكون الحق ، ويقولون للكهنة : لو كانت المسيحية حقاً فلماذا أسلم الله بلادنا وهي مسيحية لشيعية نبي كاذب - وقد زعمتم أنه أخذ الكاثوليكية تحت رعايته وقصصتم علينا

(١) معرفة عن كتاب دوزي المسمى

Recherches sur les Musulmans & Litt. d'Espagne

ومن هذه القطعة تبيينون حال المسيحيين في اسبانيا بعد الفتح الاسباني ، وكيف تسرب الانان الى الكثيرين ومنهم الذين أسماهم نيكاسون بلصائين أو المولدين وكان لهم اكبر أثر في الدين الاسلامي وعاشوا كموال في كنف أشرف العرب ووصل تمسكهم بالاسلام الى حد عظيم جدا - ولقد يضطرونا الى الاكتفاء بهذه الكلمة دون تعليق على بعض ما جاء فيها من النقط الهامة - رغبتنا في الايجاز الشديد الذي بدعونا اليه ضيق الوقت.

مجموعة من تلك المعجزات التي وقعت غيرة على هذا لدين
أيام المظالم الآرية - لم لاتبعث هذه المعجزات مرة أخرى ؟
وقد كانت هذه الاعتراضات في المصور السابقة تسبب
الحيرة والارتباك للكهنة انفسهم الذين كانوا يجهلون كذلك
لم خضع المؤمنون وذلوا أمام الملحدين !! - فلما تقادم زمن
الفتح حلت هذه الاعتراضات بأن المتأخرين من ملوك
القوط بل كهنتهم وأشرافهم كانوا أئمة مجرمين وأن القوارع
التي قرعهم لم تكن الا عقابا عادلا من الله - وقد كان اعتبار
النكبات قصاصا عادلا ، من فلسفة الاقدمين على العموم
واليهودية على الخصوص - ولقد تتجلى في أمثال سليمان
سعادة الأبرار وشقاوة الفجار في صور مختلفة - ولما توالى
النكبات على يعقوب لم يكن أصحابه لينزعوا عن اعتباره
مجرما لولا أن برهن على طهارته وفضيلته - وكانت القرون
الوسطى تطبق على التعاسة نفس هذه النظرية فكان انتصار
المسلمين على الخصوص آية الغضب الالهى كما كانت انتصارات
المسيحيين في رأى المسلمين - وكانت تردد هذه الجملة في
إيطاليا كذلك وهى « اذا انتصر المسلمون فذلك لأن الله

يربد عقابنا على خيمايانا » وكذلك كان يقال في اسبانيا -
وفي سنة ٨١٢ اذاع الفرنس الذي منشورا باملاء الكهنة
قال فيه « أيها الاله - ان القوط اهاوك بكبرياءهم فكانوا
أهلا لأن تمزقهم السيوف العربية » وفي سنة ٩٢٤ قال
سنكودي نغار في منشوره بمناسبة انشاء معبد البلد

« لقد كانت اسبانيا تحت سلطان المسيحيين فكانت
حصونها وقراها مكتظة بالكنائس . وبذلك كان الدين
المسيحي سائدا في كل مكان . واسكر اسلافنا تابعت خطاياهم
وخرجوا على وصايا الاله ، فلاجل أن يعاقبهم على ما قدمت
أيديهم ويرجعهم الى الصراط السوي رماهم به . هذا الشعب
البربري »

وقال سبستيان بدوره « وانما هلك الجيش القرطى
لان الملوك والكهنة تركوا شريعة الله » ، وقال كاهن باشيلوس
« عاقب الله اسلافنا في هذه الحياة الدنيا حتى لا تكون
هنالك حاجة الى عقابهم في الحياة الاخرى » ، كذلك نرى
المؤرخين المتمدينين من أهل الشمال اتهموا وزيتا ومعاصريه
بانهم كانوا غلاظا ملحدين فاهان الكهنوت برمود الثاني

ومعاصريه بسبب ذلك - وفي رواية كاهن بشيلوس أقدم المؤرخين الذين ينفلون عنه ، أن برمود كان عاقلاً وحيماً عادلاً وأنه كان يعمل على فعل الخير واجتناب الشر ولكنه كان سيء الحظ فقد حدث في عهده وقت أن كان يشغل عرش ليون - أن وجه المنصور إلى المسيحية أشد الضربات التي أصابته منذ الهجوم العربي فلم ينج شيئاً من سيوف المسلمين ولم تكن لترى حينذاك إلا مدائن مخربة وأديرة خاوية وكنائس مهدمة - بل لقد وصلت الحال إلى أن سقط سبستبول وهيككل سان جان رأساً على عقب - وهنا رجع السؤال لماذا تغلب المسلمون على المسيحية ؟ وأجاب الكهنة على سابق عادتهم ذلك عقاب على خطايانا والمنصور هو مطرقة الغضب الإلهي ^(١) على أنهم كانوا جديريين أن

Almanzor a été le fleau de la colère celeste (١)

« المنصور مطرقة الغضب الإلهي » هكذا كانوا يسمونه ، ولهم الحق في ذلك ، فلقد باغ به حبه الشديد للغزو ، أنه ربما خرج للمصلى يوم العيد ، فحدث له نية في ذلك ، فلا يرجع إلى قصره بل يخرج بعد انصرافه من المصلى كما هو من فوره إلى الجهاد ، فتتبعه عساكره وتلتحق به أولاً فأولاً ، فلا يصل إلى أوائل بلاد

يبينوا لنا أين كانت تلك الجرائم التي استوجبت هذه العقوبة الهائلة ؟ وكيف تم ذلك رغم أن الايمان بالخلود كان في ذلك الزمن أكثر منه في أى زمن آخر ؟ ولكن لا غرابة في ذلك فقد آلى كتاب القرن الثاني عشر على أنفسهم أن يقوموا بهذا الواجب ^(١) فؤاف التاريخ الكششتالى على الرغم من أنه من رجال الكنيسة ضحى بلا روية بالكهنة الذين ترأسوا كنيسة رمبو ستيل في القرن

الررم ، الا وقد لحقه كل من اراده من المساكين ، غزا في أيام مما كتبه نيفارخسبن غزوة ، وفتح فتوحا كثيرة ، ووصل الى معاقل امتنت عى من كان قبله ، وملاً الأندلس غنائم وسبيامن بات لروم ، وأولادهم ونساءهم ، وفي أيامه تغالي الداس الأندلس تبجا يجهزون به بساتهم من اثنياب والحلى ، وذلك لخص آمن بنات الروم ، حتى نودى عن ابة عظم من عطاء الروم بقرطبة وكانت ذات جمال رائم ، فلم تساوا أكثر من عشر بن ديناراً

وكان في أكثر زمانه لا يخلص بأن يفزو غزوتين في السنة « اه

ملخصاً عن كتاب المعجب

(١) وهو اتهام كل من اصابته بكبة بالعصيان ليدل عليهم

فعليل ذلك

العاشر وأظهرهم بظهور الفسقة المجرمين قساة القلوب (١)
وعنى فيالآخ أقيديو بشخص برمود - ألا ترى كيف أنه
يبدؤ كلامه بأشرف صيغة طويلة من سيئاته ونحوه فإذا انتهى
منها وصل الى هذه النتيجة فقال : دو وانما بسبب جرائم
برمود وجرائم شعبه ان المنصور الخ ،، وهكذا برروا عمل
الألوهية التي سمحت للإسلام أن يكتسح المسيحية

* *

ولما كانت الأقاصيص الشفوية قد لحقها كثير من
التحريف في زمن سبستيان ولم يكن قد اعترف الا من ذلك
المنابع فقد وجب أن تقابل كل معلوماته بالحدس المشروع ، اهـ

(١) فعل هذا ليتوصل به الى اثبات أن سقوطهم كان

حقا باعلا من الله

عبد الرحمن الثانى^(١)

٢٠٦ - ٢٣٨

ولمات الحكم بن هشام ، خلفه ابنه عبد الرحمن
الاولى ، وله انتصارات كثيرة على المسيحيين ، وقد ارتفع
ذكره عند بني العباس ، وكان يحتجب عن العامة^(٢)

اثرة فى الحضارة الاندلسية

كانت أيامه أيام هدوء وسكون ، وكثرت الأموال
عنده ، فأخذ القصور والمتنزهات ، وجاب إليها الماء من
الجبال ، وأقام الجسور ، وبنت فى أيامه الجوامع . وزاد فى
جامع قرطبة رواقين ، ومات قبل أن يستتمه ، فتمه من
بعده ابنه محمد^(٣)

(١) ولد سنة ١٧٦ وحكم احدى وثلاثين سنة

(٢) وقد وصل اجلاله وحبه ، ليحيى بن يحيى اللبثى الفقيه
زعيم الثورة الدينية التى قامت ضد الحكم ، الى حد عظيم ، وقد
سبق الكلام على هذه الثورة ، فليرجع إليها فى ص (٨١)
(٣) ملخصه عن المقرئ

اثره في الحركة الفكرية

كان عبد الرحمن الثاني عالما ، فاشتد ميله الى العلماء .
وكان أدبيا فرفع مكانة الادباء ، وكان عالما بالفلسفة والشريعة
فبجل الفقهاء ، ومن ثم ازدحم بلاطه بالعلماء والشعراء
ورجال الادب والفقهاء ، ووصلت الحركة الفكرية في
الاندلس الى مدى بعيد

ولعه بالنساء

وكان شديد الولع بالنساء ، فاكثف قصره بأحسن
الجواري وأجملهن ، وقد خلف منهن مائة وخمسين من
الذكور ، وخمسين من الابات .

وحكايته مع جاريته طروب أشهر من أن تتصدى لها
وخلاصتها أنه أغضبها ، فعاقبته بالهجر والصدود ، وحاول
أن يترضاها بكل الوسائل ، فأخفق ، فأرسل اليها من خاصة
خصميانه من يرغمها على الحضور ، فأغلقت باب حجرتها
دونهم ، فاستأذنوه في كسر الباب عليها ، فلم يطاوعه قلبه ،

ولما اعيتته الحيل ، لجأ الى ترصيتها ، فسد عليها الباب من
خارج به بدر الدرام ، وتفرع اليها أن تراجعه ، على أن لها
جميع تلك النقود ، فخرجت اليه مكبة على رجله تقبلها ،
وأحرزت المال كله

أوصافه

كان أسمر اللون ، طويل القامة ، أفى الأنف ، أكحل
العين ، عظيم اللحية

أمثلة من شعره

لم نعتز من شعره ، بما يمكننا من الحكم على شاعريته
وربما كن في البيتين التاليين ، دليل على اصالة حكمته وبعد
نظره . وصدق شاعريته ، والبيتان :

واتقد تعارض أوجه لاوامر

فيقودها التوفيق نحو صوابها

وتشيخ ، إن يحو النعى بتجارب

فشباب رأى القوم عند شبابها

ما أبياناه الأخرى ، فتخط كثيرا ، عن هذه المنزلة ،

فمن ذلك قوله في جاريته طروب ، التي مر ذكرها :
 اذا ما بدت لي شمس النها ر طالعة ذكرتني طروبا
 أنا ابن الهشامين من غالب أشب حروبا وأطفى حروبا
 وليس في البيت الاول معنى يذكرك ، ولا بأس بجماع
 تلك الصورة التي يحويها البيت الثاني

* * *

وقوله يتشوق اليها ، وقد طالت غيبته في غزوة من
 غزواته :

الافى بوجهي سموم الهجير
 اذا كاد منه الحصى أن يذوبا
 تدارك بي الله دين الهدى
 فأحييته ، وأمت الصايبا
 وسرت الى الشرك في جحفل
 ملأت الحزون به والسهوبا
 ولا بأس بنظم هذه الأبيات الثلاثة في القوة ^(١)

(١) ومن أحسن ما عثرنا به من ثره ، ما كان يكتبه في بعض
 توقيعاته : « من لم يعرف وجه طلبه ، فالحرمان أولي به »

فضله على فن الغناء

ولى عبد الرحمن الثانى ، الحكم فى سنة ٢٠٦ ، كما أسلفنا ،
 فقدم عليه فى تلك السنة الأولى من حكمه ذرياب^(١) المسمى
 المشهور ، من العراق . فركب لقاؤه ، وبلغ فى إكرامه ،
 فكان بذلك أكبر نصير لهذا الفن الجليل فى بلاد الأندلس
 التى عرفت كيف تنتفع بمواهب هذا الفنان العبقري^(٢) ،
 وسترون فى حينه - الأثر الجليل الذى أحدثه رقى الغناء فى
 نظام الشعر العربى فى الأندلس^(٣)

(١) قال فى انفتاب : « ذرياب لقب غلب عليه ببلده ، من
 جن سوادونه ، مع فصاحة لسانه وحلاوة قيثارة ، شبه بطائر
 أسود غرد عندهم ، وكان شاعرا مطبوعا »

(٢) من شاء أن يقتنع حركة الغناء فى الأندلس ، ويتعرف
 أثر ذرياب للموسيقى فيها ، فليرجع الى الجزء الثانى من كتاب
 « تاريخ سوريا »

ص ٩٠ ، L'histoire des Musiciens

(٣) حيرى تدمر : « أن الغناء قد ركب الألفاظ فى احتراع
 الموسيقى فى الأندلس »

(١) زرياب الموسيقي

« كان لموسيقى فارسي في بلاط عبد الرحمن الثاني (٨٢٢-٨٥٢) الخطوة الاولى - ذلك الموسيقى هو زرياب (١) »

(١) معربة عن كتاب نيكلسون
(٢) نشأ بمقداد ، وكان تلميذا لاسحق الموصلي ، فتلقف من أغانيه استراقا ، وهدى من فهم الصناعة ، وصدق العقل مع طيب الصوت ، وصورة الطبع الى ما فاق به اسحق ، واسحق لا يشعر بما فتح عليه ، لى أن جري الرشيد مع اسحق خبره المشهور في الاقتراح عليه بمغن غريب ، مجيد للصنعة ، لم يشتهر مكانه اليه ، فذكر له مبيذه هذا ، وقال : « اه . ولى لكم ، وممعت له نزعات حسنة . ونفحات رقيقة . ملناطة بالنفس ، اذا أنا وفقته على ما استغرب منها ، وهو من اختراعى واستنبط فكري ، وأحس أن يكون له شأن » فقال الرشيد : « هذا ضلتي ، فأحضره » . فلحقه منه « حضرة . بكه رشيد ، عرب عن نفسه بأحسن مصق وأوجز خطاب . وسأله عن معرفة . رداء . بفتنه : « أحسن ما يحسنه الناس ، وأكثر ما أحسنه لا يحسنوه . لا يحسن الا عندك ، ولا يدخر لك ، فان أذنت غنية . . لم تسمعها اذن قبلك .

مولى الخليفة المهدي وتلميذ المغني الباب اسحق الموصلي الذي

فأمر باحضار عود استاذ اسحق ، فلما أدى اليه ، وقف
عن تناوله ، وقال : « لي عود ، نحتته بيدي ، وارهنته بأحكامي
ولا أرتضي غيره ، وهو بالباب ، فليأذن لي أمير المؤمنين في
استدعائه »

فأمر بادخاله ، فلما تأمله الرشيد ، وكان شبيها بالعود الذي
دفعه ، قال له : « ما منعك أن تستعمل عود استاذك » فقال :
« ان كان مولاي يرغب في غناء استاذي ، غنيته بعوده ، وان
كان يرغب في غنائي ، فلا بد لي من عودي » فقال له : « ما أراهما
الا واحدا » فقال « صدقت يا مولاي ، ولا يؤدي المظر غير ذلك
لكن عودي وان كان في قدر جسم عوده ومن جنس خشبه -
فهو يقع من وزنه في ثلاث أو نحوه ، وأوتاره من حرير لم يغزل
بماء سخن يكسبها انانة ورخاوة ، وبمها ومثلها (وترا من
أوتار العود) اتخذتهما من معران شبل أسد ، فلها في الترنم
والصفاء والجهارة والحدة ، أضعاف ما لغيرها من معران سائر
الخيار . وله من قوة الصبر على تأثير وقم المضارب المتعاقرة
بها . ما ليس لغيرها » فاستبرع الرشيد وصفه ، وأمره بالغناء ،
فجلس . ثم ادفع فقهاء :

يا أيها الملك الميعون طئره

هارون . رح اليك السد وابتهكروا

رأى فيه منافسا خطرا فأغراه بمصادرة بغداد وتلمس جده
في اسبانيا حيث تلقاه عبد الرحمن الثاني مرحبا به ، وأعطاه

وأتم التوبة ، وطار الرشيد طربا ، وقال لاسحق : « والله
لولا أنني أعلم من صدقتك لى على كتابه اياك لما عنده ، وتصديقه
لك من أنك لم تسمعه قبل ، لازلت بك العقوبة ، انركك اعلامى
بشأنه ، فخذ اليك ، واعتن بشأنه ، حتى أفرغ له ، فان له فيه
فيه نظرا » فسقط في يد اسحق ، وهاج به من داء الحسد ،
ما غلب صبره ، فخلا بزرباب وقال : « يا على ! ان الحسد أقدم
الأدواء وأدواها ، والدنيا فتنة ، والشركة في الصيانة هداية ،
لا حيلة في حسمها ، وقد مكرت بنينا انطويت عليه من اجاداتك
وعلو طبقتك ، وقصدت منفعتك ، فادا أما قد أريت نفسي من
مأمنها بادنائك ، وعن قليل تستط منزاتي ، وترتني أنت فوقى ،
وهذا ما لا اصاحبك عليه ولو ذك ولدى ، ولولا رعى لدمة
تربيتك لما قدمت شيئا على ان أذهب نفسك ، يكون في ذلك
ما كان ، فتخير في ثنتين ، لا بد لك منهما ، اما أن تذهب في
الارض العربية ، لا أسمع بحبرك ، بعد أن تعطيني عن ذلك
الايمان الموثنة ، وأنبضك لذلك بما أردت من مال وغيره ، واما
أن تقيم علي كرهى ورغضى مستهدنا الى ، فخذ الآن حذرلك مني

قصر انخا وأجرى عليه راتبا كراتب الامراء ، ومنحه كل ما يتصوره الانسان من مراتب الشرف ، فأحرز شهرة فاست والله أبقي عليك ، ولا أدع اغتيالك ، باذلا في ذلك بدني ومالي ، فاقض قضاءك »

رحلته الى الاندلس

فخرج زرياب لوقته ، وعلم قدرته على ما قال ، واختار القراو قدامه ، فأمانه اسحق على ذلك سريعا ، ومضى يبنى الاندلس ، واستراح قلب اسحق منه ، وتذكره الرشيد بعد فراغه ، فأمر اسحق بحضوره ، فقال : « ومن لى به يا أمير المؤمنين ؟ ذاك غلام مجنون ، يزعم أن الجن تكلمه وتطارحه ما يزعم به من غنائه ، فلا يرى في الدنيا من يعدله ، وما هو الا أن أبطأت عليه جائزة أمير المؤمنين ، وترك استعادته ، فقدر التقصير به ، والتهاون بعنافته ، فرحل مغاضبا ، ذاهبا على وجهه ، مستخفيا عني ، وقد صنع الله في ذلك لأمير المؤمنين ، فانه كان به لم ينشأه ويفرط خطئه ، فيفزع من رآه ! »

فسكن الرشيد الى قول اسحق ، وقال : « علي ما كان به ، فقد فطنا منه مرور كثير ! »

أم زرياب الحكم ، وكتب اليه يستأذنه في الوصول اليه

واسعة وصلت الى حد أنه كان يضع الاسلوب الأمثل لكل ما يختص بالذوق والعادات ، ويحدد الثرى ، ويصدق على الطهى ، ويعين من الملابس ما يمكن ارتداؤه فى فصول

ويعلمه بمكانه من صناعة الغناء ، ففرح الحكم بكتابه ، وأظهر له رغبته الشديدة فى ذلك ، فسار اليه زرياب بمياله وولده فلما بلغ الجزيرة الخضراء ، وافاه نهي الحكم فهم بالرجوع الى المدوة ، فثناه عن ذلك منصور اليهودى المغنى ، رسول الحكم الذى كان يرافقه ، ورغبه فى قصد عبد الرحمن الثانى خلف الحكم

احتفاء عيد الرحمن الثانى به

فكتب الى عبد الرحمن ؛ فأحسن الرد عليه ، ورحب به ، وكتب الى عماله على البلاد أن يحسنوا اليه ، وبوصلوه الى قرطبة وأمر خصيا من أكابر خصيانه أن يتلقاه ، حتى وصل الى البلدة فنزل فى دار حسنة ، واستدعاه بعد ثلاثة أيام ، وبدأ بمجالسته على النبيذ وجماع غنائه ؛ فهاهو الا أن همه ؛ فاستهوله واطرح كل غناء سواه ، وشغف به وقدمه على كل المغنيين

وكتب له فى كل شهر بمائتى دينار واثبا ، وأن يجرى على بنيه الاربعة عشرى دينار السكل واحد منهم ، وأن يجرى على

السنة ، وكان يتخذها ملوك اسبانيا نموذجاً لهم ، وما زال
يمظم سلطانه حتى صار يستشفع به ، وعرف ذلك عنه جميع
سكان المملكة حتى آخر أيام حكم المسلمين ^(١)

زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار ، وأقطعه كثيراً
من بساتين قرطبة

فضل زرياب على الموسيقى

ومما أدخله في الموسيقى العربية من التحسينات - عدا
الانغام الكثيرة التي أدخلها فيها - انه زاد في أوتار عوده وتراً
خامساً ، اختراعاً منه ، وهو الذي اخترع بالاندلس مضراب العود
من قوادم النسر بدلاً من الخشب وأبدع في ذلك ، للطف فشر
الويشة ونقائه وخفته على الاصابع وطول سلامة الوتر على كثرة
ملازمته اياه ، فلا غرو اذا غطى فضله دلى كل من اشتهر بفن
الغناء في الاندلس من قبله .

سعة حفظه

وقد حفظ نحو عشرة آلاف مقطوعة من الاغاني بألحانها -
فدل بذلك على سعة اطلاعه ، ووفور ذكائه . ا . هـ ملخصاً عن
المقري بتصرف

(١) والى القاري ما قاله المقري في ذلك أيضاً ، ليتبين منه مهاره
زرياب وأثره الشديد في الحضارة الاندلسية بعد أن عرف فضله

ولم يكن زرياب إلا واحداً من كثيرين من النوابغ
ورجال العلم الذين وفدوا على اسبانيا من الشرق فان قائمة

من قبل على الغناء الاندلسي
« وكان زرياب قد جمع الى خصاله هذه ، الاشتراك في كثير
من ضروب الغزف ، وفنون الألب ، ولطف المعاشرة ، وحرى
من آداب المجالسة ؛ وطيب المحادثة ، ومهارة الخدمة الملوكية ،
ما لم يجده أحد من أهل صناعته ، حتى اتخذ ملوك أهل الاندلس
وخواصهم قدوة فيما سنه لهم من آدابه واستحسنه من أطعمته
فصار الى آخر أيام أهل الاندلس مذوباً اليه ومعلوما به
فن ذلك أنه دخل الى الاندلس ، وجميع من فيها من رجل
أو امرأة يرسل شمره مفروقاً وسط الجبين ، غاما للصدغين
والحاجبين ، فلما عاين ذوو التحصيل ، تحديقته هو وولده ونساؤه
لشعورهم ، وتقصيرها دون جباههم ؛ وتسويتها مع حواجبهم ،
وتدويرها الى آذانهم ، واسدالها الى أصداعهم - حسبما عليه
اليوم الخدم الخفية والجواري - هوت اليه أفئدتهم واستحسنوه
ومما سنه لهم ، استعمال المرتك المتخذ من المرداسنج ، لطرده
ريح الصنان من مغابنهم ، ولا شيء يقوم مقامه ، وكانت ملوك
الاندلس تستعمل قبله ذرور الورد وزهر الريحان وما شاكل

العلماء الذين رحلوا في طلب العلم الى أفريقيا و مصر والى
للدن المقدسة في بلاد العرب والى حواضر سوريا العظيمة

ذلك من ذوات القبض والبرد ، فكانوا لا تسلم ثيابهم من وضره
فدلهم على تصميدها بالملح ، وتبييض لونه ، فلما جربوه
أحمدوه جدا

ومما اخترعه من الطبخ اللون المسمى عندهم بالثفايا . ويليه
عندهم لون الثقلية المنسوبة الى زرياب

ومما أخذته عنه الناس بالأندلس ، تفضيله آنية الزجاج الرفيع
على آنية الذهب والفضة ، وإيثاره فرش أنطاع الاديم لتقديم
للطعام فيها على الموائد الخشبية ، اذ الوضر يزول فيها عن الاديم
بأقل مسحة .

ولبسه كل صنف من الثياب في زمانه الذي يليق به ، فانه
رأى أن يكون ابتداء الناس للباس البياض وخلصهم الملون من
يوم مهرجان أهل البلد في ست بقين من شهر يونيه ، فيلبسونه
الى اول شهر اكتوبر ثلاثة أشهر متوالية ، ويلبسون بقية السنة
الثياب الملونة ، ورأى أن يابسوا في الفصل الذي بين الحر والبرد
— المسمى عندهم بالربيع — من مصبغهم جباب الخبز ، والمالحم ،

والعراق . والى خراسان و ترانسكسنيا . بل والى بلاد
الصين أحيانا - كانت تحوى كل نابغى الادباء ورجال البلاغة
العربية الذين أنجبتهم اسبانيا الاسلامية كما يرى ذلك من
يتصفح الفصل الخامس من كتاب المقرئ - ولهذا كانت
حركة مبادلة الآراء فى دؤوب ونشاط ، فلم يستأثر أحد من
رجال الشرق والغرب بشئ خاص ، وعرف الناس كل شئ
حتى أن مشاهير شعراء الاندلس كابن هانىء وابن زيدون
كان ينعتهما النقاد الشرقيون المعجبون بهما بمتنبى الغرب
وبمختبره (١) ، ا . ه .



والحرر ، والدراريح التى لا بطائن لها ، لقربها من لعف ثياب
البياض للظواهر ، التى ينتقلون اليها خلفتها وشبهها بالمحاشي ، ثياب
العمامة ، وكذا رأى أن يلبسوا فى آخر العيف وعند أول الخريف ،
المحاشي المروية ، والثياب المصمتة وما شاكلها من خفاف الثياب
الملونة ذات الحشو والبطائن الكثيفة ، وذلك عند قرص البرد
فى الغدوات ، الى أن يقوى البرد فينتقلون الى أنخن منها من
الملونات ، ويستظهرون من تحتها اذا احتاجوا اليه - صنوف القراء
(١) يجد القارئ فى ختام هذا الفصل كلمة فى هذا الصدد

لعل أول ما يتبادر الى أذهاننا ويسترعي انتباهنا
وحيرتنا من هذه القطعة، هو تقدير الاندلسيين لزياب، الذي
وصلوا فيه الى حد التقديس - رحب به عبد الرحمن الثاني،
وأغدق عليه نهما لا تحصى، واجرى عليه راتبا كراتب
الأمراء وزاد افتتانه به وثقته بسلامة ذوقه الى حد أن
حكمه في كل ما يخص بالأذواق والعادات وتعيين ما يصح
ارتداؤه في فصول السنة

هذا الاحتفاء النادر الذي لقيه هذا اللغني الالمى -
وذلك التقدير الذي تغالوا فيه الى هذا الحد، يدلنا على
شيئين غاية في الاهمية :

أولهما شغف الاندلسيين بفن الغناء وعنايتهم بأمره
عناية ربما رجحت عناية الغريبيز اليوم بهذا الفن وأهله^(١)
وثانيهما مغالاة الاندلسيين في الافتتان بكل شرقى

(١) سندتمع بهذا الاستنتاج في موضعه حين نتكلم من
المرشحات الاندلسية ونشأتها وأثر الغناء في الشعر العربي -
وكيف أنه كان - بيا في تحطيم أكبر قيد من القيود التي وقفت
بالشعر في مكانه وأخرته عصورا طويلة

والهيام بكل ما يمت بعلاقة الى المشرق ولم يقتصر ذلك على طبقة خاصة من الاندلسيين بل كان عاما في كل الطبقات من الملك الى أحقر أفراد شعبه وقد أظهر لكم حضرة الدكتور صنيف احتفاءهم الشديد بأبي على القالى بما يعزز رأينا في ذلك، فأما الاستنتاج الاول فلنأعود الىه في موضعه، وأما النقطة الثانية فانا نوجزها في ما يلي :

اثر المشرق فى الاندلس.

ان تقديس الاندلسيين لكل شرقى، مما يكاد يلمسه كل مطلع على تاريخهم فى كثير من المواضع، فلقد تغالوا فى اجلال المشرق حتى كانوا ينظرون اليه نظرة الابن الى أبيه ولعلكم تلمحون ذلك فيما ذكره نيكاسون من تلقيهم ابن هانى وابن زيدون بمتنبى الغرب وبحتره ^(١) فقد كان أقصى ما يطمح اليه الشاعر الاندلسى هو أن يلقب باسم شاعر

(١) لنا عودة قريبة الى هذه التسمية ومناقشتها، لتبين مقدار صحتها أو خطئها، فليس من العدل أن نمر بها من غير تعاقب عليها، وسنتناول ذلك فى ختام هذا الفصل

شرقى مشهور ، أو أن يقال أنه شبيه بمصره الشرقى فلان ،
كما كان أقصى ما يطمح اليه النحوى ، هو أن يشبه بنابغ من
نحاة الشرقيين كسيبويه ، وكذلك كان أقصى ما يطمح اليه
الملك هو أن يتشبه بملوك بنى العباس ويقدم فى كل شىء

* * *

قال العباس بن الاحنف على لسان هارون الرشيد
تلك الأبيات الشهيرة المنسوبة الى ثانيهما ، وهى :
ملك الثلاث الآنسات عنانى

وحلان من قابى بكل مكان
مالى تطاوعنى البرية كلها
وأطيعهن وهن فى عصيانى ؛
ما ذاك الا أن سلطان الهوى

— وبه قوين أعز — من سلطانى
فماذا فعل سليمان الظافر أحد ملوك الاندلس ؛ قلده
فيها فقال :

عجبا يهاب الليث حد سنانى
وأهاب لحظ فواتر الأجفان

الى أن قال : « وتملكت نفسى ثلاث كالدى ،
يا عجبا ! : كأن ابنة الملك وغفاره لا يمان الا بتقليد
أحد ملوك بني العباس حتى فى أتفه الاشياء - فاذا عشق
أحدم ثلاث أو انس ، وتملكن قلبه ، وغلبنه على أمره ، تحتم
على السلطان الأندلسي أن يعشق مثل هذا القدر لا أكثر
ولا أقل - ووجب أن يتملكن قلبه ويغلبنه على أمره كذلك ،
لتشبه حاله حال السلطان العباسي ! !

ووجب أيضا أن يكون التشبيب بهن من البحر
للكامل والفاضة النونية ، اثلا يحسب العشق مزيفا والنسيب
سمجا غير مقبول !!

قد نكون أسرفنا فى هذا الاستنتاج وقد نكون
توهمنا غير الحقيقة ، وقد يكون السلطان الأندلسي أراد
مجرد الفكاهة واللهو فحسب ، بتقليد السلطان العباسي :: قد
يكون هذا وقد لا يكون ، ولكن لا بأس علينا فى ذلك
فكلا الأمرين محتمل ، ولكن ما نريد اثباته أمر تاريخي
واقع سواء أصح ذلك الاستدلال ام لم يصح ، فان هناك
كثيرا من القرائن تبرزه - انظروا الى قول أحد شعراء

الاندلس وقد ضجر لعدم التفات قومه اليه
 أنا الشمس في جو المعلوم منيرة
 ولكن عبي ان مطلقى الغرب
 ولو أننى من جانب الشرق طالع
 لجد على ما صناع من ذكرى النهب
 وقول آخر :

أما ترى احمد فى مجده لا يلحق
 اطلعه الغرب فارنا مثله بامشرق^(١)
 وقول بعضهم فى الترحيب بالخزوى ، الهجاء الشهير ،
 حين قدم غرناطة :

يا ثانيا للمعرى فى حسن نظم ونثر
 وقرط ظرف ونبل وغوص فكر وفهم^٢

(١) هذا يدل على أنهم كانوا يعتبرون الشرق مخرج النوابع
 والعطاء

(٢) الخزوى هذا هو ابو بكر الخزوى ، وهو شاعر أعمى
 شديد اللقحة والشرة ، خبيث الطبع ، ثلاب للأعراض ؛ ولست
 ادرى أى وجه من اوجه الشبه بين هذا الواقع وبين شاعر المعرة ؟
 فليس بينهما من شبه الا تلك لاقفة المحتومة وهي فقدان البصر ؛

ثم انظروا الى قول أحد شعراء الاندلس الذى اظهر فيه تبرمه بتقليد العباسيين فى كل شيء حتى فى اسمائهم :

أما فيما عدا ذلك ، فبينهما من أوجه الشبه والاتصال ما بين
القيظ والنقيض ، وما الفرق بين المعرى وبين هذا الخزومى
الا كالفرق بين الخير والشر أو النور والظلمة
ولكنها مادة الفها الاندلسيون فى التذهيبه بمشهورى المشاركة
كما اوضحناه !

ولا بأس من انتهاز هذه المناسبة لتحيل من شاء التوثق من
قصة هذا الشاعر وخبث نفسه ، الى حكايته مع خزهون بنت
القلاعى فى ص ١١٨ من الجزء الاول من كتاب نفح الطيب ،
ففى هذه الحكاية مثل صحيح يعطى فكرة طامة عن كثير من
مجالس الادب فى بلاد الأندلس ، وأخلاق فئة كبيرة من ادبائهم
وأدبياتهم فى ذلك العصر ، وربما دل على شدة الشبه بين ما كان
يحدث فى تلك المجالس الاندلسية من المجون ، وبين مجالس أبى
نواس وأضرابه فى الشرق ، وربما ذكرنا هذا الهجاء الوقح الذى
نظالمه فى تلك الحكاية ، بمهاجاة بشار وحمام مجرد ، وملاحاة
جرير ، وما اكتنظ به ذلك الزمن من الفحش وهجر القول مما
لا تساعدنا آداب هذا العصر على اثباته ، على اننا نسكتفى بتذكرة
القارىء ببائية جرير التى فيها بينه المشهور :

مما يزهدني في أرض اندلس
القباب معتضد فيها ومعتمد
القباب مملكة في غير موضعها
كالهريجكي انتفاخا مودة الاسد



نحتذي بهذا القدر في اثبات تأثر الغرب بالشرق، على ان
فيما يراه المطلع على تاريخ الاندلس الكفاية في تمييز
ما ذهبنا اليه

اذا غضبت عليك بنو نعيم رأيت الناس كلهم غضابا
لننبه الى قوله :
لعمرك ما تقول بنو نعيم اذا ما الا... في... ابيك غابا !



وقد أسلفنا القول أن الاندلسيين تأدبوا بأدب الشرق ،
واتخذوا شعراء المشاركة قدوة واماما ، فقلدوهم في كل شيء
تقريبا ، وإن تؤدي هذه الموامل الى غير هذه النتيجة

ابن هاني والمتنبى

بقى بعد ذلك ، أن تناقش المؤرخين في تشبيه ابن هاني بالمتنبى وابن زيدون بالبحتري ، وقد وعدنا في اول هذا الفصل بالعودة الى ذلك في ختامه^(١) والآن نبروعدنا

ولما كنا لم ندرس ابن زيدون دراسة تمكثنا من الحكم عليه حكما صحيحا ، فانا ترك مناقشة القسم الثاني من هذه التسمية . ونكتفى الآن بالكلام على النقطة الاولى وهى تشبيه ابن هاني بالمتنبى لاستطاعتنا الكلام فيها - وسنسلك فى الموازنة بينهما طريقة قد لا نرضى عنها كثيرا . وقد لا نملك أنفسنا من الشعور بنقصها الشديد ، واسكن ضيق وقت وحاجتنا الشديدة الى الاجاز يضطررنا الى سلوكها

(١) كان من حق هذه المقارنة أن تؤخرها قليلا ، الى عصر الناصر أو عصر الحكم الثانى ، فقد وجد ابن هاني في زمنهما كما نراه في ترجمته ، ولكننا أردنا التعميل بهذه الكلمة لتنتم بها مناقشة اراء الاستاذ نيكلسون في النبذة التى ترجمناها له

رغم اعتقادنا بأن سرد عدة أبيات - كائنة ما كانت - لشاعر
ما، لا يكفى للوصول الى حكم صحيح عنه . وربما اتسع لنا
الوقت فكتبنا فى هذا الموضوع رسالة خاصة نسلك فيها
طرق المقارنة الصحيحة ، على أن كلتنا ان تخلو من بعض
فوائد، أهمها تحريك الافكار لمناقشة هذا الموضوع الخطير،
ونبدأ الموازنة بينهما الآن بسرد بضعة أبيات من أرقى
شعرهما المختار، لنتبين منها شاعريتهما ثم نسرد آراء مؤرخى
الأدب فيهما ونناقشها لعلنا نصل الى نتيجة مرضية :

مختار شعر ابن هاني^(١)

قال في الحكم
إنا - وفي آمال أنفسنا
طول ، وفي أعمارنا قصر -

(١) ابن هاني الأندلسي

ولد سنة ٣٢٦ - توفي سنة ٣٦٣ هـ

اسمه محمد ، كنيته أبو القاسم ، أمم أبيه هاني الأزدي
أحد الشعراء في بعض قرى المهدية ، وقد رحل إلى الأندلس ،
حيث خلف محمدا هذا ، بمدينة أشبيلية ، ومن تاريخه ، نأين أنه
كان معاصرا المعتزلي في الشرق ، ولعبد الرحمن الناصر وابنه
الحكم الثاني في الأندلس ، أي أنه كان في أزهي عصر من عصور
الادب العربي في الشرق والغرب

نشأ بأشبيلية واكثر من حفظ اشعار العرب وتعرف اخبارهم
وعمل الشعر وهو فيه

تقرب من صاحب أشبيلية ، ولما كان ابن هاني ميلا إلى
الفلسفة شغوا بدراستها ، وكان الأندلسيون يتهمون كل من
اشتغل بها ، بالاحاد والكفر (راجع الاصول ٩٢ و ٩٣) كره الناس ،

لنرى باعيننا مصارعنا
لو كانت الأبواب تعتبر
مما دهانا أن حاضرا
أجفاننا والغائب الفكر
وإذا تدبرنا جوارحنا
فأكلهن العين والنظر

واساءوا الظن بصاحب أشبيلية بسببه ؛ وأتموه بمذهبه ، فأشار
عليه بالرحيل الى مكان آخر ، ريثما يذسى امره ، فاستصوب كلامه
وأم بلاد المغرب ، وهو في السابعة والعشرين من عمره ، ومدح
جوهر القائد ، واستقدمه المعز حين انتهى خبره ، اليه وبالح في
الانعام عليه ، فأكثر من اشعاره في مدحه ، ولما انتقل المعز الى
مصر ، تجهز ابن هانيء للحاق به ، فلما وصل برقة مات فيها ،
وقد اختلفت الروايات في سبب موته ، واشهرها ، أن شخصا
من أهلها أضافه ، فخرج ذات ليلة من داره وهو سكران ، فنام
في الطريق حيث وجدوه في اليوم التالي ميتا ، وقد حزن المعز
حين بلغه ذلك وقال جلته المشهورة : « هذا رجل كنا نود أن
تأخر به شعراء المشرق ، فلم يتح لنا ذلك »
وعما يسترعي النظر أن ابن هانيء مات سنة ٣٦٣ أي في السنة
التي ولد فيها أبو العلاء المعري

لو كان للالباب ممتحن
 ما عدتها السمع والبصر
 أي الحياة ألد عيشتها
 من بعد علمي أنني بشر
 خست لعمر الله السنن
 لما تكلم فوقنا القدر

هل ينفعني عز ذي يمن
 وحجولها، واليمن والغر
 ومقالى المحمود شارد
 ولساني الصمصامة الذكر
 ها هنا كأس يشعت بها
 لا ملجأ منها ولا وزر
 أفترك الأيام تفعل ما
 شئت ولا أسطو فتعصر؟
 هلا بأيدينا أسنتنا
 في حين نغذوها فتشجر؟

فانبذ وشيخا وارم ذا شطب
 لا البيض نافعة ولا السم
 دنيا تجمعنا ، وأنفسنا
 شفر على أحكامها مذر
 لو لم تربنا ناب حادها
 انا نراها كيف تأتمر
 ما الدهر الا ما نحاذره
 هفواته وهناته الكبير

وفيها يقول :
 أقسمت لا يبقى صباح غد
 متبليج وأحم معتكر
 تفنى النجوم الزهر طالعة
 والنيران الشمس والقمر
 ولئن تبدت من مطاعمها
 منظومة فلسوف تنتثر
 ولئن سري الفلك المدار بها
 فلسوف يسلمها وتنفطر

وفيها يقول :

واذا صحبت العيش أوله

صفوا، فبين بعه الكدر

واذا انتميت الى مدى أمل

دركا، فيوم واحد عمر

ولخير عيش أنت لابس

عيس حتى ثمراته الكبر

واكل حلبة ساق أمد

واكل نهلة وارد صدر

وجدود تعمير المعمر أن

يسمو صمودا ثم ينحدر

واسيف يبلى وهو صاعمة

وتنال منه الهام وانقصر

والمرء كاظم المديد ضحى

ولمرء يحسره فينجسر -

ثم يقول في ختامها :

غرض ترامي في الخطوب، فنا

قوس، وذا سهب، وذا وتر

فجزعت ، حتى ليس بي جزع
وحذرت ، حتى ليس بي حذر (١)

* *

وقل في النسيب :
امسحوا عن ناظري كحل السهاد
وانفضوا عن مضجعي شوك القتاد
أو خذوا مني ما أعطيتكم
لا أحب الجسم مسلوب الفؤاد
هل تبحرون محبا من هوى ؟
أو تفكرون أسيرا من صفاد ؟
أسلوا عنكم من هجركم
فلما يسالو عن الماء الصوادي :

(١) هذا ما اخترناه من قصيدته الفلسفية التي قالها في رثاء والده
يحيى وجهنم بن هلي ، ومن رأينا أنها قد نمت الى اعلى قمة وصلت
اليها بلاغة ابن هاني ، ويمكن القول بأنها أروع قصيدة رأيناها له

أما كانت خطوب فيضت
فعدتنا عنكم أحدى العواد
فعلى الأيام من بعدكم
ما على الظلماء من لبس الحداد
لا بمزار منكم يدنو سوى
أن أرى أعلام هضب أو نجاد
ومنها :

قل تنويل خيال منكم
يطي بين جفون وسهاد
ومنها :

لم يزدنا القرب الا هجرة
فرضينا بالنتفى والبعاد
واذا شاء زمان رابنا
برقيب أو حبود أو معاد

وقال يصف أكله:

يأليت شعري ، إذا أومى الى فمه

أحلفه لهوات أم ميادين ؟

كانها - وخبيث الزاد يضرمها -

جهنم ، قذفت فيها الشياطين

تبارك الله ما أمضى أسنته .

كانما كل فلك منه طاحون ؛

كان بيت سلاح فيه مخزن

مما أعدته للرسل الفراعين ؛

أين الاسنة أم أين الصوارم أم

أين الخناجر أم أين السكاكين

كانما الحبل المشوى فى يده

ذو النون فى الماء لما عضه النون

ان الجداء بأيديها وأرجلها

كانما افترستهم الدماحين

وغدر البط من منى وواحدة

كانما اختطفتهن الشواهين

يخفّض الرز من قرن الى قدم
 وللبلاعيم تطويب وتلحين
 كأننا كالأر دكن من طبائعه
 نار، وفي كل عضو منه كنون؛
 كأننا في الحشا من خمل معدته
 قرنفل وجواريش وكمون
 قوموا بنا فلقد ربت خواطرنا
 وجاذبتنا أعنتها البراذين
 صحتكم - نخذوا من شدة وزرا
 أولا، فأنتم سويق فيه مطحون^(١)

(١) هذه قصيدة جميلة تتمثل منها صورة مضحكة لشعره
 ذلك الا كول، ولكنهم - على جهلها - لم تسم الى شعر الفحول
 أمثال المنبجى وابن لرومى، والى الفارسيء مقالة الثاني في هذا
 معنى، لا يتبين منه بنفسه، التمرق ينشعر "عجوز" بغيره :
 وأما يد البصري في كل صفحة
 فأقلع من سيل واغرف من رفس
 بغير على مال الوزر وأهله
 فيفشف في رغبته فيما نقش

وقوله في وصف الخيل :
وصواهل، لا الهضب يوم مغارها
هضب، ولا اليبدا الحزون حزون
عرفت بساعة سبقها، لأنها
علقت بها يوم الرهات عيون
وأجل علم البرق فيها أنها
مرت بجاحتيه وهي ظنون (١)

على أنه ينبغي الى كل صاحب
ضروسأله تأتى الى النور والكيش
ينجبر عنها أن فيها ثلثا
وذلكم أدهي، وأوكد للجرح
ألم تعلموا أن الرحي، عند نقرها
وتجريشها، تأتى على الصلب والهش؟
(١) انظر الى المفلاة القبيحة في هذا البيت، ثم قسه الى
بيت أبي العلاء المعري في وصف سرعة الخيل من غير أن يلجأ
الى المحال، في قوله من قصيدة أنشأها في صباه :
ولما لم يسابقهن شيء من الحيوان سابقن الظلالا

وقال يمدح المعز
 تقول بنو العباس « هل فتحت مصر »
 قتل لبني العباس : « قد قضى الامر » ،
 وقد جاوز الاسكندرية جوهر
 تطالعه البشرى ، ويقدمه النصر ^(١)
 ومنها وهو نهاية الملق وصغار النفس :
 امام رأيت الدين مرتبطا به
 فطاعته فوز ، وعصيانه خسر
 أرى مدحه كالمدح لله إنه
 فنوت وتسبيح يحط به الوزر
 الى أن يقول :
 رأى أن سيسمى مالك الارض كلها
 فلما رآه قال : « ذا الصمد الوتر » ،

(١) في هذين البيتين تهب علينا نفحة من نفحات المتنبي
 رغم ما شعر به من السخط لما في الايات الاخرى من المغالاة
 والملق

وفيها يقول :

وما ضر مصر حين ألفت قيادها

إليك ، امد النيل أم غاله جزر

* * *

غدا جوهر فيها فمامة رحمة

يقي جانبها كل جانبية تعرو

كأني به قد سار في القوم سيرة

تود لها بغداد لو أنها مصر

ستجسدها فيها المشارق ، انه

سواء اذا ما حل في الارض والقطر

الى أن يقول مخاطبا المعز :

وأوصيته فيهم برفقك ، مردفا

بجودك ، موقوداً به عهدك البر

وصاة كما أوصى به الله رسله

ونيس باذن أنت مسمعا وقر

ويقول :

رضينا لكم يا أهل مصر بدولة
أطاع لنا في ظلها الأمن والوفور
لكم اسوة فينا قدبنا ، فلم يكن
بأحوالنا عنكم خفاء ولا ستر

* * *

حتى يقول :

فيا ملكا - هدى الملائك هديه -
ولكن نجر الانبياء له نجر
ويا دازقا من كفه نشأ الحيا ..
والا فم أسرارها نبع البحر
الا انما الايام أيامك التي
لك الشطر من نعمائها ، ولنا الشطر
لك المجد منها ، يالك الخير والعلی
وتبقى لنا منها الحلوة والدر

ويقول في ختامها وهو نهاية الاحالة :

فلو سمع التشويب من كان دمة
وفاتا، ولي الصوت من ضمه قبر

لناديت من قد فوز " احي بدولة
تقام لها الموتى ويرتجع العمر : "
ونختار له في المدح قوله أيضا :

أبني العوالي السمرية والسيو
ف الشرفية والعديد الاكثر
من منكم الملك المطاع كأنه

تحت السوابغ تبع في حمير
القائد الخليل العتاق شوازيا

خزرا الى لحظ السنان الأخر

شعث النواصي حشرة آذانها
قب الأباطل، دانيات الأنسر

تنبو صنا بكهن عن غفر الثرى
فيطآن في خد العزيز الأصغر

وفيها يقول :

قوم يبيت على الحشايا غير م
وميتهم فوق الجياد الضمر
وتظل تسبح في الدماء قباهم
فكانهن سفائن في أبحر
فياضهم من كل مهجة خالع
وخيامهم من كل لبدة قسور
حي من الاعراب الا أنهم
يردون ماء الامن غير مكدر
وأصدق ما نصف به هذه القصيدة أنها تأيد محكم
لشعر المتنبي !

مختار شعر المتنبي^(١)

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من أمره ما عانا

(١) أبو الطيب المتنبي

٣٠٣ سنة ٣٥٤ هـ

اسمه أحمد بن الحسين، لقبه المتنبي، كنيته أبو الطيب، ولادته بالكوفة وكان أبوه سقاء

نشأ أبو الطيب محبا للعلم والادب قوى الحافظة، فلما فرغ من حمله أبوه الشام ينتقل به من باديتها الى حاضرتها، واستمر في تلقي العلم فأتقن اللغة وتعمق في معرفة حوشيتها. وحفظ الكثير من شعر الجاهلية وغيرهم.

نشأ بعيد الهمة، كبير النفس فلم يقنع بالشهرة الأدبية بل طمعت نفسه الى السيادة بالفتح! فدها الى بيعته قوم من مريديه من أبناء سنة فباعوه، ولما كاد يتم له ذلك، وصل خبره الى والي البلدة فقبض عليه وحبسه، ثم أطلقه الوالي بعد حين.

فيقال انه خرج الى بني كلب، وأقام فيهم وادعي أنه لموي، ثم ادعى النبوة - وفي هذا كلام كثير ربما عدنا الى مناقشته في غير هذا الكتاب!

قالوا: « ولما شاع أمره بن الناس خرج عليه اوثاق، أي رخص

وتولوا بنصبة كلهم منه ٥ وان سر بعضهم أحيانا
وبما تحسن الصنيع لياليه ٥ ولكن تكدر الاحسانا
وكانا لم يرض فينا بريب الدهر حتى أعانه من أاعانا

من قبل الاخشيديّة ، فقاتله وأسر من كان معه من بنى كلب
وغيرهم من قبائل العرب ، وحبسه في السجن دهرآ علويلا ، حتى كاد
يتلف ، فسئل في أمره ، فاستتابه وكتب عليه وثيقة ، وأشهد
فيها ببطلان ما ادعاه ووجوهه الى الاسلام ، وأطلقه . فكان
المتنبى كلما ذكر له قرآنه بعد ذلك حارل التنصل من تبعته ٥



ثم اشتهر بالشعر ، فتصابق الملوك الى استدعائه بالجوائز ومنهم
سيف الدولة بن حمدان فقدم عليه المتنبى سنة ٣٣٧ هـ ، ومدحه
بكثير من غرر قصائده ، ثم وقع بين المتنبى وابن خالويه النحوى
المشهور قول فى مجلس سيف الدولة فرأب الى المتنبى فضرب
وجهه بمفتاح كان معه فشجه ، ولم يدافع سيف الدولة عنه .

فغضب المتنبى . ورحل الى مصر . وتقرّب من ابن حمدان
كافور الاخشيدي سنة ٣٤٦ هـ وامتدحه 'نقما من سيف الدولة
فأكرمه كافور' ، ثم ارقاب فيه لما رأى من كبره وتعاليه ، وقال :

كلما أنبت الزمان قناة ركب للرء في القناة سنانا
ومراد النفوس أحقر من أن نتمادى فيه وإن نتفانى
غير أن الفتى يلاقى المنايا كالحات، ولا يلقى الهوانا
وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تموت جيانا
كل ما لم يكن من الصعب في الأند فس سهل فيه إذا هو كانا



ومن أبدع آياته الفلسفية قوله:

دل من يغيظ الدليل بعيش رب عيش أخف منه الحام
كل حلم أتى بنير اقتدار حجة لاجئ إليها اللثام
من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح يميت إيلام

« يا قوم من ادعي البوة بعد محمد (صلم) ألا يدمى الملك مع
كافور »

ثم وأطيب بغداد، ثم فارس، حيث امتدح «مفيد الدولة»
ابن بويه نديمي. وأحزله طاعة، وعاد من فارس فأصدا بغداد
حيث قتل في طريقه

وقوله من قصيدة رائمة :
ولقد رأيت الحادثات ، فلا أرى
يتقاييت ، ولا سوادا يعصم ^(١)

وفيها يقول
ذو العقل يشقى في النعم بعقله
واخو الجهالة في الشقاوة ينعم
والناس قد نبذوا الحفاظ ، فمطاق
ينسى الذي يولى ، وعاف يندم

ويقول :
لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى
حتى يراق على جوانبه الدم
ويقول :

والظلم من شيم النفوس ، فان تجدد
ذا عفة ، فلعله لا يعظم :

(١) معنى البيت « لا أرى الشيب سديا للموت ، ولا الشب واقيا منه »

مازات تدفع كل أمر فادح
حتى أتى الأمر الذي لا يدفع
فظللت تنظر، لارماحك شرع
فيما، راك ، ولاسيوفك قطع؟
ثم يقول :

وصلت اليك يد ، سواء عندها
الباز الاشهب ، والغراب الأبقع

ومن أروع ما اختاره له في الغزل قوله :
لعينك ما يلقي الفؤاد وما لقي
وللحب ما لم يبق مني وما بقي
وما كنت ممن يدخل العشق قلبه
ولكن من يبصر جفونك يعشق
وبين الرضى والسخط والقرب والنوى
مجال لدمع المفلة المترق
وأحلى الهوى ما شاك في الوصل ربه
وفي الهجر ، فهو الدهر ير جو ويتقي؟

ولم أر كالأحافظ يوم رحيلهم
بمئن بكل القتل من كل مشفق
عشية يعدونا عن النظر البكا
وعن لذة التوديع خوف التفرق
وقوله في قصيدة أخرى :

عزب أسي من داؤه الحديق النجل
عياء، به مات الحبيرن من قبل
فمن شاء فليمنظر الى ، فمنظري
نذير الى من ظن أن الهوى سهل
وما هي الا لحظة بعد لحظة
اذا نزلت في قلبه رحل العقل

جري حبها مجري دمي في مفاصلي
فأصبح لي عن كل شغلهم، شغل
* *

ومن أصدق ما تتمثل به نفسه الطموحة الى الحسم
والسيطرة قوله من قصيدة له :

لقد تصبرت حتى لات مصطبر
 فالآن اقدم حتى لات مقتحم
 لا تركن وجوه الخيل عابسة
 والحرب اقوم من ساق على قدم
 بكل منصت مازال منتظري
 حتى أدات له من دولة الخدم
 * *

وقوله من قصيدة أخرى
 تمرست بالآفات حتى تركتها
 تقول: «أما المرات أم ذعر لذعر؟»
 وأقدمت اقدام الاتي كأن لي
 سوى مهجتي؛ أو كان لي عندها وتر
 ذر النفس تأخذ وسمها قبل بينها
 فمترق جاران دارهما العمر
 ولا تحسبن المجيد زقاوقينه
 فما المجيد إلا السيف والفنكة البكر

وتضرب أعناق الملوك ، وأن ترى
لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيا دويا ، كأنما
تداول سمع المرء أنمله العشر
وفيها يقول

ومن ينفق الساعات في جمع ماله
مخافة فقر ؛ فأنذى فعمل الفقر

* *

وقوله من قصيدة طويلة :
يا ساقبي ! آخر في كؤوسك
أم في كؤوسك هم وتسهب
أصخرة انا ؛ مالي لا تغيرني
هذي المدام ، ولا هني الاغريد
ماذا لقيت من الدنيا ، واعجبها
أنى بما أنا بك منه محسود

وقوله من قصيدة أخرى:
مما أضر بأهل العشق أنهم
هروء، وما عرفوا الدنيا، وما فطنوا
تقني عيونهم دمعاً وأنفسهم
في إثر كل قبيح وجهه حسن
وقوله من قصيدة أخرى
أني أصاحب حلمي . وهوبى كرم
ولا أصاحب حلمي ، وهوبى جبن
* *

ومما تختاره له قوله يمدح سيف الدولة من قصيدة
على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها
وتصغر في عين العظيم العظائم
وفي هذه القصيدة لرائعة يقول
فلا وقت ذوب الغش ناره
فلم يبق إلا صارم أو ضبارم

الى أن يقول

وقفت وما فى الموت شك لواقف

كأنك فى جفن الردى وهو نائم

تمر بك الابطال كللى هزيمة

ووجهك وضاح ، وثغرك باسم

ثم يقول

ضمت جناحيهم على ضمة

نوت الخوافى تحتها والقوادم

وقوله من قصيدة أخرى

لا يدرك المجد الا سيد فطن

لما يشق على السادات فعال

لا وارث جهل يبناء ما وهبت

ولا كسوب بغير السيف ساك

الى أن يقول :

كأن نفسك لا ترضاك صاحبا

إلا وأنت على المفضل مفضل

ولا تمذك صوانا لمجتها
الا وأنت لها في الروح بذال
لولا المشقة ساد الناس كلهم
الجود يفقر والاقدام قتال

* *

نكتفى بهذا القدر من شعر المتنبي وابن هانيء الاندلسي
ونحيل من شاء التوسع الى ديوانيهما، ونؤكده لحضراتكم
أننا قد تحرينا نهاية الدقة في الاختيار، محاولين جهدنا أن
يخرج القارىء بعد قراءة هذه النخبة من شعرهما، بصورة
قريبة الوضوح ان لم نقل تامة — يتمثل منها شاعر يتما
ويرى بنفسه في أى سماء من البلاغة يحاق كل منها

ولا مندوحة لنا عن القول بأن عنورنا على تلك الايات
الرائعة التي اخترناها من شعر ابن هانيء قد كبدا كثيرا
من العناء، لقلة الجيد من كلامه، على حين لم يكفنا اختيار
هذه الصفوة المتمردة بأسلوبها العالى ومعانيها الساحرة،
من شعر المتنبي، أكثر من القاء نظرة مطمئنة في ديوانه الخالد

ولقد اخترنا لكم أمثلة من أروع شعر ابن هانيء،
وأريناكم أعلى جو حلقت فيه بلاغته، فهل ترون في كل
ما ذكرناه، شعرا يمت بنسب الى قول المتنبي في نونيته
الساحرة :

وكانا لم يرض فينا بريب الـ دهر، حتى أعانه من أعانا؛
كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا؛
أم هل ترون في كل شعر ابن هانيء، ما يمت بنسب
ما الى هذه النونية الساحرة ؟ كلا ! وشتان بينهما (١)

(١) من الحق ألا نكنم أعجابنا الشديد برائية ابن هانيء
التي ذكرناها له في ص (٢١٩) لاسيما قوله فيها
انا وفي آمال انفسنا طول، وفي اعمارنا قصر
انرى بأعيننا مصارعنا لو كانت الالباب تعتبر
وقوله :

أي الحياة ألد عيشتها من بعد على أنني بشر
وقوله، وربما كان أروع ما قرأناه له :
خرست لعمر الله انفسنا لما تكلم فوقها القدر؛
فقد كاد يسمو بهذه القصيدة الى مصاف التحول، حتى
لاحسنا في أكثر آياتها طائفة من أهمي خوالج الحياة،

ان نظرة يلقها الانسان على ديوانيهما تبين له الفرق
العظيم بين قصيدة طويلة تقرأها لابن هانيء فلا يعجبك
منها الا بضعة أبيات قلائل واخرى المتنبي لا تقل عنها
طولا قد لا يشذ عن إعجابك منها أكثر من هذا القدر

ومن يدري ؟ فرمما لو طال عمر ابن هانيء واستمر في هذه
الطريق الفلسفية الحقة ، التي انتهجها في رائيته ، لكان لنا فيه
رأي آخر ، ولعددناه في مرتبة الفحول ، التي لم يسم اليها من
شعراء العربية الا افراد غاية في الندرة

ولنذكر مثلاً ، يتبين منه القاريء — رغم إيجازه — ما قد نعتيه
بقولنا « مرتبة الفحول » التي سما اليها المتنبي وأضرابه القليلون
كالمرعي والبحرسي وغيرهما ، والتي قصر ابن هانيء عن شأوها .

قلنا ان ابن هانيء قد أبدع في قوله :
خرست لعمر الله انفسنا لما تكلم فوقهم الفارس
ولا نزل نكره أنه وفق الى اخراج صورة حية ، تتمثل
في جلال هذا المعنى وروعته . ولكنه لم يبد بطور الا جـاءة بعد

ولو أن انسانا قرأ نونية المتنبي التي اخترناها لهوا كتنفى
بقراءتها وحدها، وقرأ شعر ابن هانيء كله ، ثم حكم بتفوق
الاول على الثاني لعذرنا - وان لم نقبل حكمه ، لانفرادها
بميزات لا تكاد تجتمع في سواها

ولكن ماذا يقول من يقدم على المقارنة بينهما وليست
هذه القصيدة الساحرة الامثلا واحدا من الامثلة العليا
الكثيرة التي أخرجها المتنبي للوجود!

فاذا شئت أن تري ما بعد مرتبة الاجادة ، فانظر الى هذا
المعنى في صورته الخالدة حين تناوله شاعر المعرفة ، فطبعه بطابع
الخلود الذي امتاز به اكثر شعراء ، لتبين الفرق واضحا بين مرتبة
شاعر مجيد كابن هانيء الاذلي ، وشاعر فحل كأبي الملاء مثلاً ،
فرمما كدنا نفس الفرق بين شعر الاجادة وشعر الخلود في قول
المعري :

تقفون . واللهلك المسخر دائب ونحركون فتضحك الاقدار
ولعل أوجز وأصدق ما نقوله في هذا البيت انه باغ حد
الاعجاز !!

لنعد اذن الى الأسباب التي ذكرها مؤرخو الآداب^(١)
ليبرروا بها تلقيبهم ابن هانيء بالمتنبي علنا نعتز فيها على شيء يبالغ
صدورنا ويقتنعنا بصواب ما ذهبوا اليه أو أرجحيته على الأقل
قال مؤرخو الآداب إن اوجه الشبه بين الرجلين
كثيرة ولكن أهمها ما يلي :

(١) نشأ كلاهما في الطبقات الوضيعة وترقى بمواهبه
وشعره الى درجات الخاصة

(٢) اغرق كلاهما في المدح الى حد مذموم

(١) فقد اتفق المؤرخون كلهم تقريباً على أن ابن هانيء
خير شعراء الاندلس ، بلا منازع ، كما اتفقوا كذلك على تلقيبه
بمجنون العرب ، وتعالى بعض للناس في تقديره فمدوه شاعراً فذاً
وقالوا :

ان تكن فارساً فكن كعلی

أو تكن شاعراً ، فكن كابن هاني

كل من يدهى بما ليس فيه

كذبتة شواهد الامتحان !

ولم نعتز الى الآن على رأى مؤرخ بناقض ذلك ؛ غير ما نذكره

في ختام هذا الفصل من رأى المعرى فيه

- (٣) جالس كلاهما الملوك وناظم الامراء .
 (٤) أجاد كلاهما وصف ما رأى اعادة نادرة
 (٥) كانا معاصرين
 (٦) مات كلاهما غيلة بيد عدو نذل دنيء وهو في كمال
 العمر وتناهى القوة
 وهى اوجه شبه كما ترونها مضحكة ، ولعل أغراها
 بالضحك الوجهان الاخيران ، واست أدري لم لم يسترسلاوا
 فى اضافة أوجه شبه اخرى اليها ليزيدونا اقتناعا بصحة
 ما ذهبوا اليه ، كأن يقولوا مثلا : وكلاهما رجل ، واكل منهما
 عينان ، ثم يعددوا من أوجه الاتفاق أو الاختلاف بينهما
 اشترا كهما فى الطول والقصر أو عدم اشترا كهما الخ
 ليس فى هذه الالوجه الاوجه واحد يتكفى اعتباره
 وجها وهو الرابع الذى يقولون فيه إن كلهم قرأ أجاد
 وصف ما رأى اعادة نادرة ، وهو قول يحتاج الى تحديد
 ودقة ، ولا ينبغي أن يلتقى على عواهنه ، على أنه نستطيع أن
 نقول إنه بالاختصار غير صحيح فى مجموعه ، نعم أجاد ابن

هانيء وصف بعض الاشياء التي رآها، ولكن مختاره
وروايه - نعم قلنا بالقياس الى حسنات المتنبي - لا تسمو
بحسب ما الى الذروة التي حلفت فيها بلاغة المتنبي وعبقريته
الجبارة

وانما اجاد ابن هانيء وصف بعض الاشياء كما يجيد
أى شاعر آخر من أشباهه الكثيرين جدا - لا كما يجيد
شاعر قد لا تعرف العربية له مثيلا الا اثنين فقط هما
المعري وابن الرومي

نعم ثنية الى تلك الاسباب ونتم النظر فيها علنا
نحرف في سبب آخر نبربه هذا الخلط ! ربما كان ذلك هو
السبب الاول لذي ذكروا فيه أن كليهما نشأ في الطبقات
نوصية وترقى بتواهبه وشعره الى درجات اخاصة ، وهو
كأنه لا يخفى من منة أيضا ، نعم ارتقى كلاهما بتواهبه
وشعره ومع من أنس ارتقوا كذلك من درجات العامة الى
عامة ، بولك والامرء بتواهبه وشعرهم فهل يكون في
ذات مبرر متقاربه بمتقني ؟

لقد يتساءل الانسان كيف وصلت شهرة ابن هانيء الى حد أن قارنه الناس بالمتنبى وفضلوه على كل شعراء الاندلس ان لم يكن جديراً بذلك؟ والجواب على هذه النقطة من أيسر الامور ، فإن الشهرة وحدها ليست معياراً للكفاءة ، واياست جدارة الانسان هي دائماً الوسيلة الى شهرته وبعد صيته ، بل هناك طرق شتى وظروف عديدة تعينه على ذلك ، وعلى قدر استعداد الانسان لها ومعرفته بانتهاز تلك الفرص ونهايته على الشهرة يكون نصيبه منها وأنتم أفلا ترون من شهرة بعض معاصرينا من الشعراء وغيرهم وبلوغها حداً كبيراً جداً مع تقصيرهم التام ، ما يقرب لكم فهم السبب الذي قد يكون داعياً لشهرة ابن هانيء وما قيمة الشهرة ؟ أليست أبوابها قاصرة على الجماهير وهل للجماهير رأى في البلاغة ؟^(١)

(١) ليس للشهرة قيمة حقيقية ، إذ لم يكن صاحبها جديراً بها ، ولقد يضيق بنا المقام اذا شدنا الاقاسم في الاستدلال على ذلك بالامثلة المتعددة المنجددة ، التي كثيراً ما نشاهد ما في روحنا ووجداننا من تحيل بعض الناس على الوصول الى الشهرة بكل اوسه تل الى نيثة

* *

اننا نظلم ابن هانيء ظلماً فاحشاً ونعينه أشد العين اذا
وكثيراً ما ينجحون ، ولكنه في الغالب نجاح مؤقت ، لا يلبث
ان يفضح غشيه .

ومعاذ الله أن نعى ابن هانيء بشيء مما نقول ؛ وحاشانا أن
نقص الي ذلك ، فان لابن هانيء في نظرنا - رغم قصيره الشديد
عن بلوغ شأو المتنبي مكانة ادبية كبيرة ، تدعونا الى احترامه ،
بل والى الاعجاب به أحياناً .

* *

ولكننا لا نرى مع ذلك بأساً من انتهاز هذه المناسبة •
لاظهار قيمة الشهرة في نفسها حتى لا يتخذها بعض الناس وسيلة
من وسائل الاقناع ، والى القارىء مثلاً من امثلة عديدة من
أساليب السورة - نسرقه كدليل صادق لا يدع مجالاً للشك ، ولا
يقبل التأويل - في حضرة قيمتها :

أساليب السورة

شبهة أساليب كثيرة تتفرع تحت عنوان الاتي . انما أهمها
ولا بأس من ذكر واحد من ذلك المفرق هو رحله وسر صناعته
الطبيعية عريضة من فروعها ، فمما يصل فيه إلى ذكره قوله

قارناه بالمتنبى - بل أنى لأجرؤ فأقول ، اننى بعد مطالعة كل
مقالاه تقريبا لم أتردد فى الحكم بأن مقارنة الاول بالثانى
بعد حتى فى مصاف الخطاطين العاديين ولما اعيتته الحيل ولم يجد
من سبيل الى الشهرة عن طريق الجدارة لما يتطلبه ذلك من
سلامة الطبع والعمل المتواصل - سلك طرقا اخرى للوصول الى
غرضه ويمكن تاييىص ما نعرفه منها فيما يلى :

اولا : التعلق بأذيال كل من يمت بهلاقة الى الصحف

ثانيا : كتابة أسماء الصحف والمجلات وحفرها على نقشته
الخاصة واهدائها الى اصحابها

ثالثا : الاسراع بالتعرف بكل اديب نابه وتلقه اياه طمعا فى
أن يكتب له ذات يوم اسم كتاب يؤلنه أو صحيفة يصدرها

رابعا : اهداء كل من يعرف عنه القدرة على نظم الكلام -
كشيها باسمه ، أو هدية اخرى تتناسب مع ما يتوقعه من وراء
ذلك من الفائدة . ولقد أهدى بعضهم طورا ذهبية ثمنا مقدما
لهدائهم فيه

خامسا : التألق فى منبسه والعناية بحمل هندامه مشابها لرى
جعة الأرتست

سادسا : كتابة الاعلانات عن زوجه بنفسه فى الصحف
وتجديس على نشرها بكل وسيلة ، وتزويد كمتى الاستاذ والدا بغة

جريمة كبرى، ارتكبها معاصروه أولاً، ثم قلدهم في ارتكابها
بعض المؤرخين وتابعهم عليها البعض الآخر بلا روية - كما
فيها حتى يحفظها الجمهور

سابعاً : اتخذ أسماء زعماء السياسة وأساطين الاجتماع وسبيله
الى الرفعة من شأنه وان شره خطه الرديء جمال كلماتهم البديعة
ثامناً : ترديد كلتي (الفن) و (الجمال) أمام اقرار العامة
ونشر الدعاوى المريضة عن نفسه في كل مجالس، والخط من شأن
أساطين فن الخط الذين يترفعون عن أن يكونوا اساتذته ، وكثرة
تنقصه ايام وتبجحهم بأنهم عيال على (الفن) وانهم لا يفهمون
(الجمال) (والهائين في سوح الجمال) وعشاق (جمال الفن)
(وفن الجمل) !!

ولقد توصل بهذه الصفة - والحمد لله - الى أمنية -
ونجحت وسائله الحظيرة رغم أنف الخلق والفن - واشتهر اسمه
حينما ما بين العامة - وان احتقرته الخاصة - وساعده على ذلك ما يلى :
اولاً : كثرة الجاسمات التي يتبعها أغاب أرباب الصحف
وعده صائماً كثير الخنايق

ثانياً : تنسفه كراس بالحلة العميانية وعدم تنفقات الكثيرين
منهم لمسائل التشرذم الجلية
ثالثاً : ترفع حقير الخطاطين عن أن يتدنسوا يوماً من الايام

اعتقد أن الحكم على ابن هانيء بأنه خير شعراء الاندلس
بلا منازع جريمة أخرى لا تعدلها الجريمة المقارنة بينهما
الى انتقاده - لأن رجال هذه الطائفة كلهم لا يمتدحون
بوجوده أصلاً

وها هو الآن يجرب دعاواه في الأدب ونحن نبشره بالنجاح
إذا سلك أشباه هذه الوسائل . ولا بأس من سرد فكاهة بسيطة
حدثني بها صديق لى عنه . وهى وحدها كافية في إظهار جنون
هذا المسكين بالشهرة وتمالكه عليها - وخلاصتها أنه تقدم ذات
يوم الى وظيفة خبير فى إحدى المحاكم ثم ثلاثة من يحترفون الخطف
فاظهرت نتيجة لامتحان أنه الرابع (أي لاخير) - فخذ
فعل ! لم يكتب بهذه خيبة . ولم يشأ أن يغر به حتى هذه المرة دفعة
من غير أن يعكسها تمام ، ثم يتفجع بها ! فنشر بعد بضعة أيام في
صحيفة (. .) ما يلى : (قسم صديقنا النابغة (. .) في لامتحان
فى وظيفة خبير باخفوض فكان الرابع فى قرنته . . . ونحن
لا يسعدنا الا أن نهنته بنبوغه . . . !

حسبنا هذا القدر فى إظهار قيمة الشهرة ونوشحننا الافضة
لخرجنا عن الموضوع الذى تصحينا له . وربما فردت هذه
الموضوع رسالة خاصة به نطبعها على حدة ونبين فيها ، شباه هذا

لسنا متحاملين على ابن هانيء فليس بيننا وبينه خصومة أدبية ، وليس ثمت ما يحملنا على انتقاص أدبه أو تفضيل

الدمعي واضرابه الكثيرين من المهالكين على الشهرة «
ولو أننا شئنا الأفضة في مرد الأمثلة الكثيرة للاستدلال على حقارة الشهرة ، وقلة غنائها ، وإظهار الطرق الحقيمة والحيل السخيفة التي يسلكها عشاقها المفتونون بها ، لامتد بنا نفس الكلام وخرجنا عما قصدنا إليه ، فلنكتف بإحالة القارئ الى ما كتبه النقاد الألماني ما كس نورداو في كتابه « الغرائب . Paraxes » عن المجاح ووسائله ، وقد لحصه الاستاذ العقاد في مجلة البيان ، فليرجع إليه من شاء .

على أننا لا نرى بأسا من اقتطاف الكلمة التالية من مقال طريف ، حلو الدمابة ، كتبه صديقنا الأستاذ سيد افندى ابراهيم في العدد الثلاثين من صحيفة الرحاء ، تعليقا على ما كتبناه في ذلك وقد أيد فيه ما ذهبنا إليه ، وأورد بعض ملاحظات على مقالنا ، ونحن نشبها هنا ، مع الشكر ، لما فيها من الفكاهة والفائدة ، قال :

« ولا أكنم الاديب أنني ألومه أشد اللوم على تقصيره في إنهاء تلك الرسالة التي وعدنا بها في مقاله الممتع فان بلدنا مكتظ

سواه عليه بغير حق ، بل لسنا نأقن عليه بل هو في رأينا
من أساطين شعراء العربية (الكثيرين) . ولقد نجله وبكبر

بالادعاء الكثيرين الذين جنوا بالشهرة جنونا فلم يجدوا أى
غضاضة عليهم من التحايل على نيلها بكل وسيلة بالغة ما بلغت
زرايتها - من غير حياء ولا خجل -

وليس من ارضاء الضمير ولا من الاخلاص في العمل ، أن
يتهاون الادباء بكشف حيل تلك الفئة القذرة التي تحميها قدراتها
من أن يتناولها أحد بالنقد ، فنتميز هذه الفرصة للتدليس على
الجمهور الساذج - ونحن مع عرفاننا أن مجرد التفكير في هذه
الفئات شرف لهم أى شرف ، فانا لن نضن على هذا الآدمي -
رغم ذلك - بهذا الفخار الذي تصبو اليه نفسه الحقيرة وببذل
في سبيله ألف حيلة

لقد أظهر لنا الأديب صورة بهلوانية مضحكة من ذلك
المسوخ ولكنه - والحق يقال - نحري المصدق في كل كلمة قالها -

وهذا في رأيي أول شرط أساسي يجب على الناقد اتباعه - ولئن

أخذت الكاتب بشيء ، فهو أنه ترك بعض ملاحظات هامة كنت
أرجو أن لا تفوته وأن لا يخلو منها مقاله الجميل - وقد يكون
تركها محمدا اما رغبة منه في الإيجاز واما لأنه استكثر عليه مقالة

مواهبه ، ولقد نهش لكثير من مختار شعره وتغنى به
ونطرب له ، ولقد نصفق لكلامه استحسانا ، كل ذلك

ضافية لحقارته ، واني أجل ملاحظاتي وأمرد بعض النقط التي
أغفلها فيها يائي :

بدأ صديقي بقوله « أعرف رجلا ممن مارسوا صناعة
الخط » - واني استميج الصديق عذرا اذا ملته أشد الملوم على
هذا الخط المشين الذي دل على جهله التام بصناعة الخط وعدم
صلاحيته مطلقا للحكم عليها

ولقد نجح ذلك الدمي في حيله اذا ظفر به هذه التسمية من
الخاصة - فازغاية ما يقال عنه انه ممن مارسوا صناعة النقش ، والفرق
واضح بين الخط والنقش فيما اضن ! واني لا أضن عليه بهذه
التسمية ولا استكثرها عليه كما يفعل سواي . ونعمة ملاحظة
أخرى أبدتها علي مقوله وهي أنه أغفل الكلام على صورته :

ولئن صح ما يقولونه من أن الوجه مرآة صادقة للتعبير عن
دخيلة صاحبها . فان من ينظر الى سحنة ذلك النقاش يستطيع
بأدنى تأمل أن يلح على سباه أربع صفات تسترعي انتباهه لأول
وهلة وهي : الملق والغباء والصفاقة والادماء



ولقد صدق الشاعر العربي صالح ابن عبد القدوس حين قال

تفعله اذا ذكر اسمه على حده ، فاذا قسناه الى المتنبى أو قارناه به ، تضاعفت أماننا شاعريته وظهر بمظهر العاجز العبي ، ولم ما يبلغ الاعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه فقد بذل ذلك للنقاش المتأنق جهودا كبيرة في التحايل على نقر صورته في بعض الصحف والمجلات ولم يدركه بذلك قد أظهر للملأ صورة دقيقة كنا نأسف على فقدانها وكان يحسدنا للنصب اذا حاولنا الحصول على مثل نستدل به على ما ذهبوا اليه من أن الوجه مرآة صادقة لصاحبه — وأني يتاح للانسان أن يمر على مثل هذه الصورة النفيسة التي نلمح فيها تلك الصفات لاربع فاطمة شاهدة واضحة لكل ذى عينين

ولا جرم أذ صفتته التي لا تقف عند حد وتزلفه بلا حساب لكل انسان ، قد تمكننا من نفسه — كما يشهد بذلك كل عريقه — الى حد يحار الانسان في تحليله — وعلى هاتين الخطتين وحدهما بنيت شهرته عند العامة . ولا بأس من سرد الفكاهة لذاتية تستمين منها تلك الصفات الاربع التي ذكرناها جنية ، ونقدريء ذب روح بها عن نفسه وله أن يستمتع منها ما شاء زيادة على ما استمتعنا به وعرفناه .

جاء ذات ليلة ووجهه يطفح بشرا وسرورا وقد ترنحت عنقه بخمرة الزهو والفخر ، وما كاد يقترب من رفقتيه حتى قام

انظروا كيف جعل من هذا المعنى قضية منطقية بديعة
ودعها يبرهان شعري ، غاية في الحسن ، فظهرت للناس
صورة تامة ، تأنس اليها للنفس ، وتمش لها



وهذه عادة أصيلة في المتنبي ، بل ميزة خص بها دون
الكثيرين من شعراء العربية ، فلا تكاد تقرأ له شعراً —
من غير أن تحس تلك الروعة وهذه الفخامة ، بل إن لشعره
طابعاً أنماز به ، بذلك عليه فلا تحتاج إلى السؤال عن قائله ،
ولا تتردد في أن تنسبه إلى المتنبي ^(١)



ولناقد أن يحاسبنا على ما رمينا به ابن هانيء من الملل
وضعة النفس ، وزعمناه المتنبي من الكبر والعظمة النفسية

(١) وهذه من أكبر مميزات شعر النحول ، فإن من الهين
أن يميز الانسان بين شعر المتنبي والمعمري والبحري وابن الرومي
مضى نواصر على دراستهم ، لوضوح شخصياتهم جميعاً في أكثر
اشعارهم ، ولما يخطيء الامامان في ذلك ، اذا اعتمد على ذوق
صحيح ، وطبع صادق ، ودراسة واسعة .

مع وفرة ما قاله في المدح المملوء بالمبالغة والتملق ، وربما
حسب بعض الناس أن المتنبي صنو ابن هانيء من هذه
الوجهة ، وهو خطأ لا يسمنا السكوت عليه ، وكلام باطل
أشبه ما يكون بالحق ، وقول يحتاج الى دقة وإانة

المتنبي كثير من أشعار المدح المملأ بالملق ، كما لابن
هانيء ، فقيم بتماز الاول على الثاني ؛ وأين تلك المعظمة المزعومة ؟
تلك المعظمة التي تزعمها المتنبي - أيها السادة - ظاهرة
حتى في هذا النوع من الشعر المملوء بالمبالغات السخيفة ،
متى أنعمنا النظر

ونوجز فنقول : وإن مدح المتنبي للملوك والامراء
يشعرك بأنه مدح ككفء لكفء ، فاذا تعلقهم فهو ند
يتماق أنداده ، بل ربما شعرت من مديحه - أحيانا - أنه رجل
أكبر منهم نفسا - يشعر تفوقه عليهم ، ولكنه يرى أدوات
رفقته وضخامة شأنه ، ووسائل تحقيق رغبته منحصرة في
إرضائهم في أول أمره - فيأخذ منهم جسرا يهبط عليه الى آماله
الكبيرة . وكثيرا ما من عليهم بشعره ، وأظهر لهم بعرضه

العبارة صالحة ما يمنحونه من الهبات الوافرة بالقياس إلى
ما يكسوم به من حلال الشعر الخالد
أما مدائح ابن هانيء فتشعر بك بأنه فرد عادي ، كان
أقصى أمله ، أن يمدح الملوك ويتملقهم ، حاسبا ذلك غاية
الشرف ، ونهاية الرفعة ، فلا غرو اذا رأيت متزلفا فنيت
شخصيته فيهم ، ورأيت المتعني شامخ الرأس ، دالا عليهم
يمدحهم بما يمدح نفسه به ، ويرى نفسه بينهم ، ملكا غير
متوج ، بين ملوك متوجين ،،



لنعد إلى شعرهما الذي قال مؤرخو الآداب انهما
اشتركا في الكفر فيه فماذا نرى ؟

نرى أن المتعني لا يزال حتى في هذه المرة ذا خصائص
نادرة .. كفر ابن هانيء بسبب معنى تافه حقير كان يمكن
أداؤه بأسلوب أجمل وأبدع من غير اخلال بالبحر أو
القافية فقال :

ما شئت لاما شامت الاقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
وهو معنى بدانا على نهاية الملق وصغار النفس وضيق

العقل ، وما أكثر وقوع ابن هانيء في هذا الأثرق^(١)
 وكفر المتنبي ، كما يقول رجال الدين ؛ ولكن لأى
 معنى ؛ لمعنى جليل قد ينسى الناس جريمته وغرض تشل
 فيه نفسه الوثابة التى حلفت فى سماء العظمة اللانهائية ، فقال :
 أى محل أرتقى أى عظيم أتقى ؟
 وكل ما قد خلق إلا ٠ وما لم يخلق
 محتقر فى همتى كسعررة فى مفرقى !
 وجماع القول أن المتنبي عظيم - وهو لو لم يكن شاعرا
 عظيما لكان شيئا آخر ، ولكن متصفا بصفة العظمة الملازمة
 له ، وقد خلقه الله ليكون عظيما فكان كما أراد الله أن يكون^(٢)

(١) ارجع الى ص . (١٤٠ و ١٤١ و ١٤٢)

(٢) بعد ان اتمينا من كتابة هذا الفصل عثرنا برأى
 للفيلسوف الحكيم أبى للعلاء المعري حين سئل عن المتنبي فقال :
 « هو أشعر لمحدثين » ثم سئل عن ابن هانيء فقال « ما أراه إلا
 كرحى تطحن قرونا »

وهو حكم صائب يؤيد ما ذهبنا اليه ولا يخيره أن يحسبه
 بعض الناس صادرا عن هوى فى نفس أبى العلاء المتعصبه

مجلد بن عبد الرحمن^(١)

٢٣٨ - ٢٧٣

اشتهر بغزواته الكثيرة ، وكان ينفه وبين الفرنجة
والمجوس وغيرهم حروب طاحنة ، وقد وجه همه الى الفتح ،
وانصرف في وقائع عديدة ، وقهر المجوس وأخذ منهم كثيراً
من الغنائم بعد حرب عنيفة

وربما كان أم ما حدث في زمنه هو حروبه مع الشقى

للمتنبى ، فان نظرة طويلة في ديوانيهما تشعرك بمصائب هذا الحكم
العدل وصدقته :

ونعل أعجب ما يدهشك من شعر ابن هانيء أنك تقرؤه ،
فتمحك روعة أسلوبه ، وقرة تعبيره ، ومتانة حركه ، فأذا رجعت
الى منقشته ، وتهم ما تحويه تلك الالفاظ الرنانة وجدت معنى
تفهم لا قيمة له ، أو معنى لم ينضج بعد ، أو معنى شائماً متكرراً ،
وربما وجدت بعض أبياتها المتيعة الأسلوب غالباً من المعنى .

١ / ولې ملك وصره ثلاثون سنة تقريباً

الجرىء ابن حفصون ، الذى قوى أمره واستغنم شأنه
فى زمنه ، وقد استطاع محمد أن يخضعه مدة حكمه ، ولكنه
مات قبل أن يقضى على ابن حفصون

صفات

وقد وصفوا هذا الامير بأنه كان عادلا واسع الحلم ،
كريم الخلق حسن البديهة والروية ، عالما بالحساب ، وقيا
لحواليه فى أنفسهم وفى أعقابهم ، لا يسمع فيهم وشاية ، فأجبه
الناس وأخامدوا له
وقد دفعته شدة التمسك بدينه الى اعتياد تصارى
قرطبة .

دخول المذهب الحنبلي في زمنه

وقام نزاع في أول حكمه بين فقهاء قرطبة وبقى بن مخلد^(١) الذي رحل من الأندلس إلى المشرق حيث تلقى مذهب ابن حنبل - فلما رجع إلى الأندلس بدأ يدرسه في جامع قرطبة، فثار عليه مدرسو المذهب المالكي، وأنكروا عليه ما فيه من الخلاف، واستبشعوه، وقام عليه جماعة من العامة ومنعوه من قراءته، ولما بلغت الأمير محمد شكاة خصومه، استجضهم وإياهم وتصفح الكتاب الذي معه - وهو مصنف أبي بكر بن أبي شيبه في أصول المذهب الحنبلي - جزءا جزءا حتى أتى على آخره، ثم قال لخازن كتبه: «هذا لا تستغنى عنه خزائنا، فانظر في نسخة لنا»، وقال لبقى: «انشر عليك واروما عندك»، ثم نهام عن أن يتعرضوا له

(١) ولد بقی فی سنة ٢٠١ ومات فی سنة ٢٧٦، ورحل من الأندلس إلى المشرق حيث تلقى مذهب ابن حنبل علی أشهر علمائه، ثم رجع إلى الأندلس فبدأ يدرسه في جامع قرطبة

المنذر بن محمد^(١)

٢٧٣ - ٢٧٥

مات الامير محمد في سنة ٢٧٣ فوليه ابنه المنذر ، وقد
تقم في الملك عامين قتل في السنة الاولى منها وزير آبيه ،
هشام بن عبد العزيز^(٢)

(١) ولد سنة ٢١٩ هـ ، وولى الملك وعمره أربع وأربعون
سنة

(٢) وقد قالوا ان أهل قرطبة كانوا يسمون فيه لدى المنذر ،
ويثولون كلامه للإيقاع به ، لشدة حبه ووفائه للأمر محمد ،
حتى انهم تأولوا قوله ، في الامير محمد ، عند مواراته :

أعزى يا محمد عنك نفسي أمين الله اذا المني الجسم !

فملا مات قوم لم يموتوا ودفع عنك لي كأس الخمر ؟

فقاروا انه يعني المنذر بقوله : « قوم لم يموتوا »

ولم يزل يزداد سخط الامير عليه ، حتى أمر بحبسه ، ثم بعث

عليه من قتله في سجنه ، ونهب ماله وسجن أولاده

ومما كتبه هذا الوزير وهو في سجنه ، الي جاريته ، قوله :

وأشهر ما حدث له ، حربه مع ابن حفصون فقد
فتح جميع قلاع وحصونه ، ولما شدد عليه الحصار ، سأله
الصلح ، فأجاب وأفرج عنه ، فنكث ، فرجع الحصار ،
ولكنه مات ، وهو يحاصر ابن حفصون

واني عدائي أن أزورك ، مطبق
وباب منيع بالحديد مضرب
فإن تمحي يا حاج مما أصابني
فقي ريب هذا الدهر ما يتعجب
زكت رشاد الامر إذ كنت قادرا
عليه ، فلاقيت الذي كنت أرهب
وكم قائل قال : « أنج وبحك سالما
ففي الارض عنهم مستراد ومذهب ،
فقلت له : « ان الفرار مذلة
وتقسي على الاسواء أحل وأطيب »
سأرضى بكم الله فيما ينوبني
وما من قضاء الله للمرء مهرب
فإن يك أمسى شامتا بي ، فانه
سبتهل في كأمي وشيكا ويشرب

عبد الله بن محمد^(١)

٢٧٥ - ٣٠٠

ولى الملك عقب موت اخيه المنذر بن محمد . وكان عصره مملوءا بالاضطراب والفتن ، وكثر قيام الثوار في زمنه وتغلبوا على الكور والمدن . وامتنعوا عن اداء اخراج ، ولولا انقطاع القتال بينه وبين الفرنج والجلالقة حينئذ ، لتقوضت اركان مملكته . فقد ارتبكت احوال الاندلس في زمنه ، ارتبا كاشديدا ، وأصبحت مجالا لمنازعات القبائل الفاتحة وميدانا للفتن و"شقيق بين الاسرة المالكة ، وقد ضاعف أحزانه ، ثورة ابنه محمد والى اشبيلية^(٢) من ناحية

(١) ولد سنة ٢٧٥ وولى الملك وعمره خمس وأربعون سنة
(٢) قالوا : ، ، وكان السبب في ذلك هو أن لأمير عبد الله
والد محمد هذا ، اطلق سراخ ابنى هاشم بن عبد العزيز . لورير
الذى مر ذكره في ص (١٨١) واطلق سراخ معلمها جابر بن مغيث
أحد مشاهير العلماء في ذلك العصر ، ورد اليهم أمولهم ، فكان
من ذلك ان أحبه أهل قرطبة ، وسخطت عليه امرته ، ولا سيما

وشدة مناوأة ابن حفصون وتمرده عليه من ناحية أخرى ،
وقد انتهى أمر الاول منهما بأز حاربه أبوه ، وأسره ، وحبسه
في قلعة أشبيلية ، حيث مات في سجنه ، وقد واصل عبد الله
كفاحه مع ابن حفصون ، كما واصل حروبه في محاربة غيره
من الثوار والفاطحيين

أوصافه

كان جميل الصورة ، أزرق العينين ، معتدل القامة ،
فطنا ، عالما ، شجاعا

حزنه على أمه

وماتت أمه في سنة ٢٩٩ ، فحزن عليها أشد الحزن ،
وبنى لها قبرا فخما ، وبني لنفسه قبرا آخر بجواره ، وزهد في
الدنيا ، فجمع الأمراء والوزراء والولاة ، وأوصى بولاية
عهد المملوك الحفيده عبد الرحمن ابن محمد ، اذ رأى القلوب
بجمعة عليه

ابنه محمد والى أشبيلية ، فنار عليه مع أخويه الأصمغ والقاسم
والبي شريش وشذونة في جنوب الاندلس ، واندم اليهم ولاية
آخرون .

أمثلة من أثره

— ١ —

مثال من محادثاته

اعتذر اليه يوماً بعض مواليه فقال له عبد الله :
« إن مخائل الأمور لتدل على خلاف قولك ، وتنبيء
هنا بباطل تنصلك ، ولو أقررت بذنبك ، واستغفرت
لجرمك ، لكان أجمل بك وأسدل لستر العفو عليك ، »
فقال :

« قد اشتمل الذنب على ، وحق الخطأ بي ، وإنما أنا
بشر ، وما يقوم لي عذر : »
فأجابه عبد الله :

« مهلاً عليك ! رويدا بك ! تقدمت لك خدمة ،
وتأخرت لك توبة ، وما للذنب بينهما مدخل ، وقد وسعتك
الغفران ! »

مثال من كتابتي

وكتب الى بعض عماله :

«أما بعد، فلو كان نظرك فيما خصصناك به، واهتباك به، على حسب متوترك بالكتب واشتغالك بذلك على مهم امرك، لكنت من أحسن رجالنا غناء، وأتمهم نظرا وأفضلهم حزما، فأقلل من الكتاب فيما لا وجه له، ولا نفع فيه، واصرَف همتك، وفكرتك، وعنايتك إلى ما يبدو فيه اكتفاؤك ويظهر فيه غناؤك - إز شاء الله ! »،

أمثلة من شعرة

- ١ -

مثال من غزل

يا مهجة المشتاق ما أوجعك ويا أسير الحب ما أخشعك
ويا رسول العين من لحظها بالرد والتبليغ ما أسرعك
تذهب بالسر فتأني به في مجلس يخفى على من معك
كم حاجة أنجزت إبرازها تبارك الرحمن ما أطوعك؛

- ٢ -

مثال آخر^(١)

ويحي على شادن كحيل في مثله يخلع العذار
كأنما وجنتاه ورد خالطه النور والبهار
قضيب بان اذا تنني يدير طرفا به احورار
فصفو ودى عليه وقف ما اطرد الليل والنهار

(١) قائم في صباه

- ٣ -

مثال من زهد

يا من يراوعه الأجل	حتم يلهمك الأمل !
حتم لا تحشى الردى	وكانه بك قد نزل !
أغفلت عن طلب النجا	ولا نجا لمن غفل !
هيات يشغلك المني	ولا يدوم لك الشغل !

- ٤ -

مثال آخر

أرى الدنيا تصير الى فناء	وما فيها لشيء من بقاء
فبادر بالانابة غير وان	على شيء يصير الى فناء
كانك قد حملت على سرير	وغيب حسن وجهك في الثراء
فنافس في التقى واجنح اليه	لعلك ترصين رب السماء

عز اغتراع الموشحات *

في زمن هذا الامير اخترع الموشحات مقدم بن
معافر الغريري ؛ وسنتناول الكلام عنها بعد قليل

(١) عبد الرحمن الناصر

٣٠٠ - ٣٥٠ هـ

« وفي سنة ٩١٢ م . خلف أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر ، جدّه الأمير عبد الله . على عرش قرطبة ، وإن صفاته وذكاءه وحكمته في سوس ممالكه العظيمة لتتجلى في القطعة التالية التي خطها قلم المؤرخ الأديب « دوزي » الذي سيظل كتابه عمدة الباحث ، وإن الفه منذ خمسين عاما



« يفرد عبد الرحمن الثالث بأنه كان الأول ، بلا منازع من بين الملوك الأمويين الذين حكموا اسبانيا ، وإن ما أتمه وحده ، يكاد يكون معجزة ، فقد وجد الأمير اضورية سائرة إلى طريق «فوضى» والحروب الداخلية ، ورأى الفتن والأحزاب السياسية قد انهكتها ، والفاها مقتسمة بين

(١) معربة عن الفصل التاسع من كتاب تاريخ داب العرب

للاستاذ نيكلسون

كثير من الامراء المتبايني الأجناس ، وراها معرضة
لإغارات مسيحي الشمال التي لا تنقطع ، كما رأى أنها على
وشك أن يلتهمها أحد اثنين ، هما الليونيون والافارقة ،
فأخذ اسبانيا - بالرغم من العقبات التي لا تحصى - منها
جميعا ، ونجهاها من الخراب الداخلي وصدد عنها الغازات
الخارجية وبعث فيها روحا جديدة ، وجعلها أقوى مما كانت
عليه في أى وقت مرت به ، ونظمها وأسمد حال أهلها
وجعلها محترمة في الخارج

وكان بيت المال في حال برئ لها ، فامتلا في عهده ،
وقد خصص من ايراد مملكته السنوى الذى بلغ ٦٠٢١٥٠٠٠
جنيها . ثلثا كان يصرفه في النفقات العادية ، وثلثا احتياطيا
يدخره ، وثلثا ينفقه على مياينه (١)

وقد قدر ما في خزائن بيت ماله في سنة ٩٥١م . بمبلغ
عظيم بلغ (٢٠٠٠٠٠٠٠) جنيه وهو ما يحملنا نتق بأن
ما قاله أحد "سائحين من ان عبيد الرحمن هذا والحمدانى

(١) وهذا يسهل لكم ادراك الامر في تقدم فن العمارة
الذى وصل في عصره الى حد يدعو للدهشة كما سنبينه

(ناصر الدولة) الذى كان حينئذها كافي بلاد الجزيرة (بين
النهرين) كانا أغنى معاصريهما - لم يكن جزافا، وأنه لم
يقبل ذلك لعدم تقديره للمسائل المالية أو جهله بها - وقد
كانت سعادة المملكة متوقفة على سعادة بيت المال، ومن
ثم نجحت الزراعة والصناعة والتجارة والفنون والعلوم -
وان قرطبة التى فيها نصف مليون نسمة وثلاثة آلاف مسجد
والتي فيها القصور الفخمة والتي بها ١١٣ ألف منزل و ٣٠٠
ماخورة وثمان وعشرون ضاحية لم يكن ليفوقها فى سعتها
وعظمتها واهبتها الا بغداد وحدها، ذلك البلد الذى طالما
شذف القرطبيون بمقارنتها به، ولقد كانت قوة عبدالرحمن
عظيمة - فقد كان يناصره اسطول كبير فى منازعاته مع
الفاطميين دولة للبحر الابيض وقد غنم سبته مفتاح مورتيا نيا
ثم إن جيشه الكبير الذى كان على اتم نظام والذى
ربما كان احسن جيش فى العالم - قد جعله يتفوق على المسيحيين
قاطنى الشمال - وقد رغب فى محالفته حتى اشد الحكم صالفا
فلقد ارسل امبراطور القسطنطينية وملوك الالمان وايطاليا

وفرنا سفراءم اليه (١)

ويقيني ان تلك نتائج باهرة - ولكن دهشتنا واعجابنا
بهذا العمل اذ ندرس ذلك العصر الذهبي لا يبلغان الحد الذي
يصلان اليه ، بنفس الرجل الذي قام بهذا العمل ولكنها
العبقرية والذكاء الواسع الذي لا تند عنه شاردة هما اللذان
يجعلاننا لا يقل اعجابنا برأيه في ادق التفاصيل عنه في
اعوس المسائل وأعضائها

وان ذلك الداهية الالهي الذي جمع الكلمة ووحيد
الملكمة ولذي اوجد بمخالفاته نوعا من التوازن والذي
استطاع بأناته وحلمه الواسع أن يضم الى مجلسه السيامي
اسانذة الاقاليم الاخرى هو اقرب الى ان يكون ملكا
حديثا منه الي اذ يكون ملكا من ملوك القرون الوسطى

وموجز القول ان عبد الرحمن الثالث جعل مسلمي
الاندلس أمة واحدة وكون من العرب والاسبان امة
اندلسية متضافرة

تلك الامة التي تقدمت بسرعة لا يصدقها العقل كما

(١) سيمر بك شيء من ذلك بعد قليل .

سترونها الآن - الى مستوى تهذيبي عال، جعل اوروبا تحسدها عليه، ووصل بها الى حد لم تضارعهامعه اية مملكة من ممالك الشرق الاسلامية - ومهما يكن من شيء فقد بدأ سقوط الأسرة الاموية بعد مائة . ا . هـ ،،



ونحن لا نملك أنفسنا من الاعجاب بهذا الوصف الشائق الذى أتحفنا به العلامة دوزى . وليس يسعنا كما أنه لا يسع أى منصف الا موافقته على كل ما جاء فيه واعتماده فان ذلك الوصف وان يكن يبدو فيه لمن يلتقى عليه النظرة الاولى أو يقرؤه لأول وهلة ، شئ من تحيز دوزى لعبد الرحمن الناصر - الا أنه مع ذلك رصف حق ، خل من الاغراق والهوى ولا يلبث المنصف لمصدق أن يعره عاينه ويستمد صدق ما جاء فيه ، واخفق أن عبد الرحمن الناصر لم يكن من كبار جديرا بالاعجاب بحسب ، بل كان زيادة على ذلك جديرا بخلود الذكر - وانه لا يجهلنا البحث اذا حاولنا أن نعثر بأمثاله القايدين فى التاريخ، فن أمثاله من الملوك لا يشرفون

العالم الاماما ولا يظفر بهم للتاريخ الا نادرا - نعم وليسوا
بمن يوجدون في كل قرن (١)

(١) ونحن يا سادة حين ندرس أمثال عبد الرحمن الداخل أو
عبد الرحمن الناصر ونرى ما قام به كل منهما من جليل الاعمال
نستطيع أن ندرك بسهولة ، الباعث الأول والمؤثرات الحقيقية
التي كان لها أكبر الأثر في الأدب الاندلسي
فإن من لا يفهم تماما أن عبد الرحمن الثالث مثلاً قد جعل
مسلمى الاندلس امة واحدة ، وكون من العرب والاسبان امة
أندلسية متضافرة كما سر - وإن من لا يعلم أن الزراعة والصناعة
قد نجحت وإن الامن استتب وإن غناء الدولة قد وصل في مدته
الى درجة لا تسامى - لن يفهم سر الروح الادبية التي سرت في
الامة حينئذ ، وليس من يجهل أمثال هذه المصنوعات التي تحيا بها
الأمم ، والتي لولاها لبادت ولما كان لها شأن يذكر في عالم التاريخ ،
بحقيق أن يفهم للدرجة التي وصلت اليها بلاغتها ولا بجدير أن
يدرك الاسباب التي وصلت بها الى تلك الدرجة - ولن يكون
شأنه لا كشأن الكثيرين عندنا ممن يحسبون دراسة بلاغة امة
مما لا يتخطى حفظ بضع طرف وأشعار بدیعة وعدة نماذج قيمة
فهم لا يعرفون ، تاريخ الادب الا انه لسي ممتد ، أكثر من أن
بن زيد بن كان شعراً خيراً ، وانه كان يحب ولادة وبراسلها وقراسله

* *

ولكن كم يتفجع الانسان ويتحسر وتتحول غبطته
وسروره بهذا العصر الذهبي الى أسى عميق وحزن يذهله

وان من خير قصائده نونيته المشهورة الخ الخ
ثم يعرفون بعد ذلك بضع أشعار متفرقة لبضع شعراء
متفرقين دون أن يعرفوا في أى عصر نشأ شاعرهم ولا المؤثرات
التي أثرت في شعره ولا اثر شعره في الحالة العامة وأثر الحالة
العامة في شعره ، وارتباط ذلك كله بالحالة السياسية وارتباط
الحالة السياسية به

وهل يكتفى من يود دراسة بلاغة امة ما ؛ بمدة محفوظات
متفرقة غير مرتبط بعضها ببعض ، ولا مقيد بزمان ولا مكان ؟
وهل 'ستطيع أن أقول في علم بلاغة الاندلسية لاني أحفظ
ترجم ست شعراء ونحو عشرين قصيدة لهم ؛ وهل بكفينا أن
نتق في مثل هذه المحاضرات قول ابن زيدون :

رها لعطفك وثرمني كأنما صبغت نصارته برد صباك
والميل - مهم طرب - قعر طوله هني - وقد غفل الرقيب - وهك
حتى ذابغنا قوله :

ثما مني تنمي أمت حميها يا ليتني أصبحت بعض مني .

عن نفسه حين يقرأ هذه الجملة التي ختم بها نيكلسون كلامه
الذي علق به على كلام دوزي وهي قوله ”ومها يكن من

يدنو بوصولك حين شط مزاره وهم ، أكاد به أقبل فك
صفقنا استحسناله ، وسحرنا اعتدائه الى هذا المعنى الباهر
الذي يمثل تلك الصورة الحقيقية ويشرح حال العاشق الصادق
في عشقه بهذه الدقة النادرة ، في قوله :

يدنو بوصولك حين شط مزاره وهم أكاد به أقبل فك
نم يا سادة : انها أبيات رائعة فلما نعتز على شبيبهما في الشعر
العربي ، وليس من شك في أنها من اعلی امثلة البلاغة الحقة ، ولكنها
مع ذلك ليست وحدها كل المقصود من دراسة البلاغة وتاريخها
* * *

واني على يقين من ان من لا يدرس التاريخ العام دراسة
مفصلة لن يستطيع ان يحكم بنفسه حكما صادقا على بلاغة امه ما
ولن تكون دراسته الا كدراسة مدارس ، للبلاغة ، اذ يكفي
الطالب فيها بالامام بطائفة من اعماء الشعراء والادباء ، وعامة من مختار
أقر لهم وعدة احكام لا رأي له فيها مطلقا ، لقد علمنا اننا
وعدنا اليه امانة لم تنقص ولم تزد ، كما قلنا عن استاذنا هو الآخر
مديره - وهي طريقة يجب محاربتها بكل وسيلة - عني اني لا ارى
وجوب دراسة التاريخ العام كغيب ، للوصول به الى فهم

شيء ، فقد بدأ سقوط الاسرة الاموية بعد ممانه ،
يجزئنا ذلك لانها جملة تعودنا أن نسمع أشباهها من

البلاغة على حقيقتها، بل ازيد على ذلك وجوب دراسة علم تقوم
البلدان، لاسيما للاقليم الذي نشأت فيه تلك الآداب ونمت، مع
العناية التامة بتفهم أثر المناخ وأثر موقع البلد الى آخر تلك الاسباب
التي تباين بين الامزجة والطبائع - ولخير الانسان ان يلم بمصر
واحد من المصور المامعجديا، من ان يكون راوية لتراجم ألف شاعر
لا يعلم ارتباطهم بالتاريخ العام، وارتباط التاريخ العام بهم، واثمهم
في الحضارة، واثم الحضارة فيهم - بل اني لاجرؤ فأقول: ان خيرا
للانسان ان لا يدرس آدابا قط من ان يدرسها بالطريقة المضطربة
التي سلكها كثير ممن كتبوا في تاريخ الأدب عندنا - اللهم الا اذا
كان الغرض من دراسته هو الافهام على دراسة بضع منتخبات
ونماذج من البلاغة لتقوية الملتكات اللغوية وتهذيب الذوق
لأدبى خصب - وانما ردونا هذه لملاحظة مرة اخرى لانا على
يقين من ان تلك كثيرين منا لا يزنون يعتقدون ان دراسة تاريخ
البلاغة معده لا كتفه، بذكر ترجمة مشاهير الشعراء والافتصار
عن نخبة من شعارهم - وهم في ذلك يرون ان من الاسرف
في توسع الانسان في الكلام على التاريخ العام - على انه كتب

المؤرخين لا سيما المختصين منهم بالكلام على التاريخ
الانداسى ولا مندوحة للمطالع على تاريخ المسلمين ، لا سيما
في اسبانيا ، من سماع هذه الجملة عقب كل ملك قوى عظيم

ازددنا بحثنا في دراسة بلاغة امة ما وأعوزنا تفهم الاسباب التي
أدت الى نتائج خاصة ، كلما ازداد شعورنا بالحاجة الشديدة الى
التوسع لا في دراسة تاريخها العام وحده بل وفي علم تقويم
البلدان ايضا

أثر الناصر في الاندلس

« وجد الاندلس مضطربة فسكنها ، وقاتل المخالفين حتى أذعنوا واستنزل الثوار وحى اثر ابن حفصون ^(١) كبيرهم ، رحل أهل طيطة على الطاعة وكانوا معروفين بالخلاف والانتقاض - واستقامت الاندلس وسائر جهاتها في نيف وعشرين سنة من أيامه ودامت نحو من خمسين سنة استفحل فيها ملك بني أمية بتلك النواحي - وهو أول من تسمى بأمر المؤمنين عند تلاشي خلافة بالمشرق ا. هـ ^(٢) ،

سبب تلقيبه بالخلافة

فانه لما رأى هياج الدولة العباسية وضعفها في المشرق وظهور الدولة التركية والديلمية أقر ان امرأ المؤمنين لائقة به ، فلقب نفسه أمير المؤمنين ا. هـ «

(١) وقد مات الشقي عمر بن حفصون في سنة ٣٠٦ بعد أن هدد ملك الأمويين صوبلا ، وكاد يثل عرشهم مراراً فزال بموته أكبر شبح مرعب للفوضى (٢) ابن خلدون

وقد أدرت من أعقبه هذا اللقب . واستهل خطيب
جامع قرطبة خطبة الجمعة بذ ك ذلك في سنة ٣١٦ ، وقد انفذ
الناصر كتبه الى عماله بالمنشور التالي :

منشور الخلافة

«أما بعد ، فإننا احق من استوفى حقه ، واجدر من
استكمل حظه ، وابس من كرامة الله ما ألبسه - للذي
فضلنا به ، واظهر أثرنا فيه ، ورفع سلطانا اليه ، ويسر على
ايدينا دركه ، وسهل بدولتنا مرامه - وللذي اشاد في الآفاق
من ذكرنا ، وعلو أمرنا ، واعلن من رجاء العالمين بنا ،
واعان من انحرافهم الينا ، واستبشارهم بدولتنا ، والحمد لله
ولى الانعام - بما انعم به ، واهل الفضل ، بما تفضل علينا فيه
وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمر المؤمنين ،
وخروج الكتب عنا ، وورودها علينا بذلك . إذ كل مدعو
بهذا الاسم منتحل له ، ودخيل فيه ، ومتسم بما لا يستحقه
وعلمنا أن التماذي على ترك الواجب لنا من ذلك ، حق
نُضعناه . واسم ثابت أسقطناه ، فأمر الخطيب بموضعك

أن يقول به ، واجر مخاطبتك لنا عليه - ان شاء الله ،
والله المستعان ،،

أثره في الحضارة الاندلسية

” ولما استفحل ملك الناصر ^(١) ، صرف نظره الى تشييد
المباني والقصور ، وكان جده الامير محمد ، وابوه عبدالرحمن
الأوسط ، وجده الحكم ، قد اختلفوا في ذلك وبنوا قصورهم
على اكبر الاتفاق والضخامة ، وكان منها المجلس الزاهر
والبهو الكامل والقصر المنيف ، فبنى هو الى جانب الزاهر
قصره العظيم وسماه دار الروضة ، وجلب الماء الى قصورهم
من الجبل واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر
فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية ، ثم اخذ في
بناء المنزهات ، فاتخذ مينا الناعورة خارج القصور ، وساق
لها ماء من أعلى اجب - على بعد امسافة .،

تشيد مدينة الزهراء

” ثم اختط مدينة الزهراء ، واتخذها منزله ، وكرسها

(١) ابن خلدون

للملك ، فأنشأ فيها من المباني والقصور والبساتين ما علا
على مبانيهم الاولى ، واتخذ فيها مجالات للوحش فسيحة
الفناء ، متباعدة السياح ، ومسارح للطيور مظلة بالشباك ،
واتخذ فيها داراً لصناعة آلات من آلات السلاح للحرب
والحلى للزينة ، وغير ذلك من المهن
وأمر أن تعمل الظلة على صحن الجامع بقرطبة ، وقاية
للناس من حر الشمس ^(١) ،



وقد عني الناصر عناية خاصة بإنشاء نافورات من المرمر
الجميل في جوامع قرطبة واشبيلية ، يكتنفها بوح يغرس
فيها شجر البرتقال والاس وغيرهما
وأصلح قنطرة النهر الكبير ، وضرب نقوداً جديدة
وضع عليها اسمه وألقابه ^(٢)

() ابن خلدون

(٢) وكان ذلك في السنة التي تليها فيها بالخلافة أى في سنة
(٦٣٥ هـ) . فأمر بإقامة دار السكة داخل قرطبة ، لضرب الدنانير
والدراهم ، وكانت مثاقيلة ودراهمه محضاً من خالص الذهب والفضة .

وبما استبدل به بعض المؤرخين على رقى عصره ،
ما حكوه من أنه أراد القصد ذات يوم ، فقمعد بلهبو في
المجلس الكبير ، المشرف على مدينته بالزهراء ، واستدعى
الطبيب لذلك ، وأخذ الطبيب الآلة ، وجلس يد الناصر
وإنه لكذلك ، وإذا بزرزور قد أطل ، فصعد على اناء ذهب
بالمجلس ، وانشد :

أما الفاصد رفقا بأمر المؤمنيننا

أنا تقصد عرقا فيه عجا العالمينا

وجمل يكرر ذلك المرة بعد المرة ، فاستظرفه الناصر
وسر به وسأل عن اهتدى الى ذلك وعلم الزرزور ،
فذكر له ان السيدة الكبرى مرجانة ام ولده وفي عهده
الحكم المستنصر بالله صنعت ذلك واعدته لهذا الامر
قولوا : " فوهب لها ما ينيف على ٣٠ الف دينار " ،

العصر الذهبي

وقد أصاب المؤرخون في تسميتهم هذا العصر
الاندلسي بالعصر الذهبي^(١) فقد تفتت فيه سوق العلم
والأدب وارتقت فيه الفنون، فكنت ترى أنى ذهبت
مجالس أدب ومجالس علم ومجالس غناء، وكان بلاط الناصر
مزدحما بالعلماء ورجال الأدب والفن

هدية قسطنطين

ولما عظم أمر الناصر، وارتفع شأنه، رغب في مخالفته
حتى أشد الملوك صلفا - كما يقول دوزي - وكان من بين
هؤلاء الملوك قسطنطين ملك الروم الذي بعث إليه بهديته
المشهورة وأرسل معها كتابا يرغب فيه تجديد المحالفة القديمة
التي كانت بين أسلافهما مع خلفاء بغداد

قلوا: وكتب هذا الكتاب بحروف من ذهب
في رق سماوي اللون، وفيه طرس سماوي أيضا كتب بحروف

(١) تشمل هذه التسمية عصرى الناصر وابنه الحكم الثاني

من الفضة يصف الهدية وأصنافها، وكلاهما بالخط الاغريقى

* *

فأحسن الناصر لقاء الرسل، حتى اذا وصلوا الى قصر
قرطبة، بهرهم ما رأوه من بهجة الملك ودوعته، وأمر
ال خليفة بعض الادباء والشعراء بالخطابة بما يناسب ذلك المقام

ارتباك أبى علي القالى^(١)

فبدأ الكلام أبو على القالى، فحمد الله، وصلى على النبي،

(١) ترجمة القالى

المتوفى سنة ٢٥٦

سمه اسمعيل، ونقبه أبو على. وامم أبيه القاسم وكان من
مواشي عبد الملك بن مروان.

أكثر أبو على من حفظ اللغة والسعر، وضىء به شديدة
بدرس نحو الجعفرين، وتعلمه لأب دريد، وغنويه، وابن
درستويه، وغيرهم.

وقد أقام ببغداد ٢٥ سنة ثم أقام بالموصل زمناً. ثم وفد على
الاندلس فى زمن الناصر « وكان ابنه الحكيم يتصرف حينئذ من
مرايه كالوزير، فأمر طاعلم ابن رماحس، أن يجيئ مع أبى على

ثم ارتج عليه لهول المحفل وأبهة الخلافة .

الى قرطبة في وفد من وجوه رعيته ، ينتخبهم من بياض أهل الكورة ، تكرمه لأبي على ، ففعل ، وسار معه نحو قرطبة في موكب نبيل ، فكانوا يتذاكرون الادب في طريقهم ، ويتناشدون الاشعار ، الى ان تجاوزوا يوما ، وهم سائرون ، أدب عبد الملك بن مروان ، ومسألته جلساءه عن أفضل المناديل ، وانشاده البيت :

« ثمت قما الى جرد مسومة أعرافهن لأيدينا مناديل »

وكان التذاكر للحكاية الشيخ أبا على ، فأنشد الكلمة في البيت :

« اعرافها لأيدينا مناديل »

فاكرها ابن رفاعه الألبيري . وكان من أهل الادب والمعرفة ، وفي خاتمه حرج وزعارة ، فاستعاد أبا على البيت مستثبنا مرتين في كليهما انشده « اعرافها »

فلوي ابن رفاعه عنانه منصرفا ، وقال : « مع هذا يوفد على أمير المؤمنين وتجشم الرحلة لتعظيمه ، وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس ، لا يغلط الصبيان فيه ، والله لا تتبعته خطوة » و نصرف عن الجملة ، ونذب أميره ابن رماحس الا يفعل ، فلم فيم يجب فيه حيلة ، وكتب الى الحكم يعرفه ، ويصف له ما جرى لأبي رداء ، ويشكوه ، « اجابه على ظهر كتابه : « الحمد لله الذي جعل في بادية من بوايد من مخفي عوفاة أهل تهرق الينا ، وابن

قلوا: « وانقطع ، وبهت ، فما وصل إلّا قطع ، فوقف

رفاعة أولى بالرضا عنه من السخط ، فدعه لقائه ، واقدم بالرجل
غير منتقص من تكرمته ، فسوف يملّيه الاختبار ان شاء الله
أو يحطّه » ا . هـ

وفي هذا الجواب تتمثلون عدل الحكم وانصافه ، ووفور
عقله ، وغزارة أدبه كما تتمثلون من هذه الحكاية ، شدة تعلق
الادباء بالمعائل العروضية واشباهاها ، وفيها دليل آخر على ماسقناه
من كبار الانداسيين لرجال الشرق وعلمه .

ويريد ان لا يغوت اتماريء ان مثل هذا الخطأ العروضي
انتهى وقع فيه الاديّب ابن النقال لا ينقص من قيمته الادبية ،
ولا يزيد في قيمة بن رفاعة ، ولئن صحت دلالة على شيء ، فهو
شيء لا يضر مع ذلك لاديب الاندلسي في حكمه ، وترقبه له درجة
عظيمة من بن النقاد فيعلل بها فرحا ، وبملا ماضيه ، فخر ، فينبه
بذلك مره .

ومن يدري ؟ عربنا كان ابو علي في شعره شاغل — ثناء تالوته
هــ البيت — والتفكير في موضوعه الشرقي أو هندس ما عهد مجده
من ارقبـات هندس — و تروى في شئ آخر .
على ما — د — ما — لم يصحح وبن بيت من الشعر فن

ساكتاً مفكراً

ذلك لا يدل على شيء أكثر من فقدان الروح الموسيقية وحدها، وذلك لا يطمئن في سلامة ذوقه الأدبي وحسن اختياره، وسعة علمه .



ولقد تعلمت بو على القالي وأرتج عليه حين أراد الترحيب برسلك ملك الروم ، وأظهر مجد الاسلام أمامهم ، فهل دل ذلك على شيء أكثر من أن لكل مقام ناساً لا يصلحون إلا له .
فلائي على القالي ، التفكير الهادي ، والبحث الأدبي المطعم ، وتمحيص الروايات والاسانيد ، ولابن سعيد البلوطي وأشباهه الأثرية والتأثير الخطابي على نفوس سامعيه . وليس في استطاعة أحدهما أن يقوم مقام الآخر .

نحن نحيل أنفارى على أخبار أبي الهيثم صاعد في الجزء الثاني من نفع تطيب (من ص ٥٠ - ٥٩) وفي كتاب المعجب (من ص ١٦ - ٢٠) ليتبين منها مثلاً ناذراً للأثرية وسرعة في البداة وحذف الجواب ، مع البعد الشديد عن تمحيص ما يقول ، أو تحري الدقة في كلامه ، وسيمر بك شيء من أخباره

خطبة منذر بن سعيد البلوطي^(١)

فلما رأى منذر بن سعيد البلوطي ذلك ، قام قائماً بدرجة
من مرقاة أبي علي ، ووصل افتتاحه ، وخطب خطبة صافية ،
نختار منها قوله :

(١) ترجمة منذر بن سعيد البلوطي

ولد سنة ٢٧٣ عند ولاية المنذر بن محمد ، وتوفي سنة ٣٥٥
وقد ولاه الناصر القضاء بقرطبة ، بعد ان ثبت له كفاءته وسعة
علمه ؛ وكان مهيباً قوى النفوذ ، وله كتب كثيرة في السنة
والورع ، وقد نظم بعض أشعار في الزهد منها قوله :

الموت حوض ، وكلما نرد لم ينسج مما يخافه أحد
فلا تكن مغرماً برزق غد فلست تدري بما يجيء غد
وخذ من الدهر ما أتاك به ويسلم الروح منك والجسد
والخير والشر لا تمعه في الناس الا التشيع والحسد
وقوله :

كم نصابي وقد علاك المشيب وتعامي حمداً و أنت اللبيب
كيف تلهو وقد أدرك نذير ان سيأتي لهما منك قريب

«وانى اذكركم نعم الله تعالى عليكم وتلافيه لكم بخلافة
أمير المؤمنين التى لمت شعسكم، وآمنت سربكم، ورفعت
خوفكم، بمدان كنتم قليلا فكثركم، ومستضعفين فقوامكم،
ومستذابين فنصركم، ولاه الله رعايتكم، واسند اليه امامتكم،

يا سفيها، قد حان منه رحيل بعد ذلك الرحيل يوم عصيب !
ان اموت سكرة فارقبها لا يدأويك - ان أئتاك - طيب
وفى ختام هذه الابيات يقول :

ليس من ساعة من الدهر الا للعنايا طليك فيها رقيب
وكتب اليه بعض الادباء بقوله :

مسألة جئتك مستفتيا عنها وأنت العالم المستشار
علام تحمر وجوه القضا وأوجه العشاق فيها اصفرار
فأجابه منذر بقوله :

احمر وجه الظبي اذ لحظه سيف على العشاق فيه احمرار
واصفر وجه الاسب لما نأى والشمس تبقى للمغيب اصفرار
وفي هذا شئ تبين منه طريقة فهمهم الادب ونوع تفكيرهم فيه ؛
ومما حكاه عن نفسه ، ما حدث له مع أبي جعفر بن النحاس ،
وهو فى مجلسه هناك ، يملئ فى اخبار الشعراء ، شمر قيس المجنون ،
حيث يقول :

حبيبي هـ بالاشام عين حزينة تبكي على نجد لعل أعينها

أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق ، واحاطت بكم شمل
النفاق ، حتى صرتم في مثل حدقة البعير ، من ضيق الحال
ونكد العيش والتغير ، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرجاء ،
وانتقلتم يمين سياسته الى كنف المافية بعد استيطان البلاء ،
أنشدكم الله يا معشر الملأ ، ألم تكن الدماء مسفوكه فحقها ،
والسبب مخوفة فآمنها ، والاموال منتهبة فاحرزها وحصنها ،
ألم تكن البلاد خرابا فعمرها ، وثغور المسلمين مهتضمة
فحماها ونصرها ؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته ، وتلافيه
جمع كلمتكم ، بعد افتراقها بامامته ، حتى اذهب الله عنكم
غيتكم ، وشفى صدوركم ، وصرتم يدأ على عدوكم ، بعد ان

قد اسمها الباكون لاحامة مطوقة بات وبات قرينها
تجوبها أخرى على خيزرانة يكاد يدينها من الارض لينها
فقال له : « يا أبا جعفر ماذا أعزك بباتا يصنعان ؟ » فقال
لى : « وكيف تقوله أنت يا أندلسي ؟ » فقلت له : « بات وذن
قرينها ! » فسكت : قال ابن سعيد : « وما زال يستثقلنى بعد
ذلك حتى منعتى كتاب العين ، وكنت ذهبت الى الاسنفسح
من سجنه . »

وسيمر بك طرف من اخبار ابن سعيد هذا بعد قليل .

كان بأسكم بينكم ، ناشدتم الله ألم تكن خلافته قفل الفتنة
بعد انطلاقتها من عقالها ، ألم يتلاف صلاح الامور بنفسه
بعد اضطراب احوالها ؛ ولم يكل ذلك إلى القواد والاجناد ،
حتى باشركم بالمهجة والاولاد ، واعتزل النسوان ، وهجر
الايوان ، ورفض الدعة وهي محبوبة ، وترك الركون الى
الراحة وهي مطلوبة ، بطوية صحيحة ، وعزيمة صريحة ،
وبصيرة نافذة ثاقبة ، وريح هابة غالبة ، ونصرة من الله واقعة
واجبة ، وسلطان قاهر ، وجد ظاهر ، وسيف منصور ،
تحت عدل مشهور ، متحملاً للنصب ، مستقلاً لما ناله في
جانب الله من التعب ، حتى لانت الاحوال بعد شدتها ،
وانكسرت شوكة الفتنة عند حديثها ،

قالوا : « ولما فرغ من خطبته أنشد معرصاً بأبي على القالي :
هذا المقال الذي ما عابه فند لكن قائله أزرى به البلد
لو كنت فيهم غريباً كنت مطرفاً لكنني منهم فاغتالي النكد »
وقد بانح اعجاب الناصر والحاضرين بهذه الخطبة أقصى
حد ، وكانت سبباً في رفعة شأنه ونباهة ذكره فيما بعد (١)

(١) ومما قاله مفترخاً بأفداه ، وهجاعته ؛ بمناسبة ذلك

فقد ولّاه الصلاة والخطابة في المسجد الجامع وأمره على
الصلاة بالزهراء ، ولما مات محمد بن عيسى القاضي ولّاه الناصر
قضاء الجماعة بقرطبة

الخطبة ، الابيات التالية :

مقال كحد السيف وسط المهافل	فرقت به ما بين حق وباطل
بقب ذي ترمي جنباته	كبارق رعد عند رفس الأنامل
فأدحضت رجلى ولازل مقوى	ولا طاش عقلي يوم تلك الأزل
وقد حدثت نحوي عيون أخاها	كمثل سهام اننت في المقتل
ظير امام كان أو هو كائن	لمقتبل ، وفي "مصور لاوئيل
ترى "انس" أفواجا يؤمون ببه	وكهم ما بين راض وآمل
وفود ملوك الروم وسط فنائنه	مخوفة بأس أو رجاء لئيل
غمش سالما أقصى حياة معمر	فأنت غيث كل حاف وناعس
ستملأها ما بين شرق ومغرب	و تدرب قسطنطين أو شمس بوس

طرفة من أخبار الناصر

مع ابن شهيد^(١)

ذكر ابن بسام أن أبا عامر بن شهيد أحمد بن عبد الملك
الوزير، أهدى له غلام من النصارى لم تقع العيون على شبهه
فلمحه الناصر فقال لابن شهيد: «أني لك هذا» فقال «هو
من عند الله» فقال له الناصر: «تتحفوننا بالنجوم وتستأثرون
بالقمر» فاستعذر واحتفل في هدية بعثها مع الغلام وقال «يا بني
كن مع جملة ما بمشت به، ولولا الضرورة ما سمحت بك
نفسى» وكتب معه هذين البيتين:

أمولاي هذا البدر سار لا فقمكم
والأفق أولى بالبدور من الأرض
فرضيكم بالنفس وهى نفيسة
ولم أر قبلى من تهجته يرضى

(١) نجد ترجمته وطرفاً من أخباره الممتعة في الجزء الأول
من كتاب فتح الطيب من (ص ٢٢٩-٢٣٣) وفي ص ٢٤٦ و٢٤٧

فحسن ذلك عند الناصر، واتحفه بمال جزيل وتمكنت
عنده مكانته، ثم إنه بعد ذلك أهديت إليه جارية من أجل
نساء الدنيا تخاف أن ينتهي ذلك الى الناصر فيطلبها فتكون
كقصصة الغلام فاحتفل في هدية أعظم من الأولى وبعثها
معهما، وكتب له هذه الأبيات :

امولاي هذى الشمس والبدر اولا

تقدم ، كيما يلتقى القمران

قران لعمرى بالسعادة ناطق

فدم منهما في كوثر وجنان

فما لها والله في الحسن ثالث

وما لك في تلك البرية ثان

فتضاعفت مكانته عنده ، ثم إن أحد الوشاة رفع يده
أنه بقى في نفسه من الغلام حزيمة وأنه لا يزال يذكره حين
تحركه الشمول ويقرع السن على تعذر نوصوله ، فقال بوشى
بذلك : لا تحرك أسنانك ولا ضر رأسك ، واعمل الناصر
حيلة في أن يكتب على أسنان الغلام رقعة منها : « يمولاي سمع
أنك كنت لى على انفراد وذا أزل معك فى نعيم وانى وإن

كنت عند الخليفة مشاركا في المنزل له ، محاذر ما يبدو منه
من سطوة الملك ، فتحيل في استدعائي منه « وبعثها مع غلام
صغير السن وأوصاه أن يقول من عند فلان وأن الملك لم
يكلمه قط ، ان سأله عن ذلك ، فلما وقف أبو عامر على الرسالة
واستخبر الخادم فعلم في سؤاله ما كان في نفسه من الغلام
وما تكلم به في مجالس المدام ، كتب على ظهر الرقعة ، ولم
يزد حرفاً :

أمن بعد احكام التجارب تبتنى
لدى سقوط العير في غابة الاسد ؟
وما أنا ممن يغلب الحب قلبه
ولا جاهل ما يدعيه اولو الحسد

فلما وقف الناصر على الجواب تعجب من فطنته ولم
يعد الى استماع واش به ، ودخل عليه بعد ذلك فقال له « كيف
خلصت من الشرك » فقال : « لأن عقلي بالهوى غير مشترك »
فأَنعم عليه وازدادت محبته عنده . ا . هـ .

سطوة الدين في زمنه

وكان الناصر مع قوته وصرامته ، يخاف الفقهاء ويداريهم أحيانا ، وقد أظهر شيئا من ضعف العزيمة أمامهم في غير مرة ، ولقد جبهه القاضي منذر بن سعيد ، في أوقات مختلفة ، مناسبات عدة ، فاحتمله ، ولم يجرؤ على الاقتصاص منه

— ١ —

فمن ماذلك ماحكوه عن ابن سعيد البلوطي هذا ^(١) ، حين دخل على الناصر مرة ، وهو في قبة جعل قدمدها من ذهب وفضة واحتفل احتفالا ظن أنه لم يصل إليه أحدهم الملوك ، فقام ابن سعيد خطيبا ، والمجاس قد غص بأرباب الدولة ، فتلا قوله تعالى : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة . لجعلنا أن يكفر بالرحمن لبيوتهم نسبة من فضة ، ومعارض عليها يظهرون . » ثم أتبع الآية بما يليق بذلك ،

(١) ذكرنا ترجمته في غير هذا المكان في ص (٢٠٩) فليرجم

قالوا : " فوجم الملك ، ولم يسمعه الا احتمال منذر
لعظم قدره في علمه ودينه «

— ٢ —

وكثيراً ما شدد النكير على الناصر ، لإسرافه في بناء
الزهراء ، وقد دخل عليه يوماً وهو مكب على الاشتغال
بالبناء ، فوعظه واشتد في تأنيبه ، فأنشده الناصر معتذراً :
هم الملوك اذا أرادوا نشرها

من بعدهم ، فبالسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا ، وكم
ملك محاه حوادث الأزمان
ان البناء اذا تعاظم شأنه
أضحى يدل على عظيم الشأن

— ٣ —

وحضر يوماً في الزهراء فأنشد بعض الشعراء قصيدة
للناصر ، منها :

سيشهد ما بقيت انك لم تكن
ضعيفاً ، وقد مكنت للدين والدنيا

فيا لجامع المعمور للعلم والتقى
وبالزهرة الزهراء للملك والعليا
فاهتز الناصر وابتهج واطرق القاضى منذر هنيهة ثم أنشد:
يا باني الزهراء مستغرقا
اوقاته فيها ، أما تهول ؟
لله ما أحسنها رونقا
لوم تكن زهرتها تذبل ؛^(١)
فاضطر الناصر الى مداراته ، وأجابه بقوله : .. اذا
هب عليها نسيم التذكور واخذنين ، وسقتها مدامع الخشوع
فانها لا تذبل ؛ ،
فقال منذر : .. اللهم فاشهد أنى بثبت ما عندي ، و
آل نصحا ؛ ،

(١) ولا بأس من ذكر هاتين البيتين ههنا لمصلحة ، لمن
أشدهما الوزير ابن جهور بعد تفويض ملك بني أمية في الانس .
حين وقف على قصورهم ، ورأى ذبول زهراء :
قلت يوما لدار قوم تقنوا : (أين سكناك العز ز عينا ؟)
فأجبت : « هنا » أقامو قبلا ثم ساروا ، ولست أعلم أين ؛

وقد أظهر الناصر شيئاً كثيراً من ضعف العزيمة ، بعد
انتمساره على الشقي ابن حفصون ، حين أُلِف عليه الفقهاء
الذين اتبعوه ؛ وسألوه أن يخرجوا رفات عمر بن حفصون
وابنه من جدثهما ، فلم يستطع لكلامهم ردّاً ، وأذن لهم
بذلك مضطراً ، فبدشوا أشلاءهما ، وبعثوا بها الى قرطبة
حيث صابت

عناية الناصر بتربية ابنه الحكم

وقد وجه الناصر عناية خاصة ، إلى تربية ابنه الحكم الثاني ، أكبر أولاده ، وولى عهده من بعده ، ولم يدخر وسعا في تهذيبه واختيار صفوة من أدباء ذلك العصر وعلمائه لتثقيفه ، حتى انه استدعى أبا علي القالى من بغداد لذلك ، فبلغ الحكم فى الرقى الفكرى شأوا بعيد المدى

منافسة أخير

وكان له أخ اسمه عبدالله ، وكان لا يقل عنه كثرا . فى الفروسية والعلم والادب وسعة المدارك ، والتعمق فى دراسة الفقه والفلسفة والتاريخ وعلم الهيئة ، ومما استدلوا به على علمه أنه ألف بنفسه تاريخا للعباسيين .

وكانت حوله بطانة سوء ، فأغرته بالعمل فى الخفاء على انتزاع الملك من أخيه ، ولى العهد ، وكان أكبر مشجع له على ذلك فقيه ما كر اسمه احمد بن عبد البر ، كان يطمع

الى الحصول على منصب قاضى قضاة اسبانيا اذا نجح سعيه
قالوا : وكان أعز حميم للامير عبد الله ، رجل ذو
قدرة خارقة للعادة يعرف بان عبد البر ، وكان يلزم الامير
ملازمة شديدة ، حتى قيل انه لم يفارقه قط ، فكان يصاحبه
فى غدوانه وروحائه ، ويندر أن يرى عبد الله بغيره ، وكان
هذا الرجل يكتم فى صدره مطامع وأغراضا ، فكان يصانع
من فوقه ، ويعتو على من دونه ، ويخفى تحت ثياب تنبؤ
عن الحشمة والوفار ، نفسا خبيثة ذات مكر ودهاء ، وعزم
اكيد على القيام بغطالبها الخفية ،، فخدع الامير عبد الله ، والقى
فى روعه أن أشرف قرطبة والاقاليم يقدرون له ميزاته
الكثيرة على أخيه الحكم ، ويساعدونه على الخلاص من
ظلم أبيه متى هم بالمناوأة ، وشرع فى استرداد حقه المغتصب
فى زعمه ، وامعن فى التفرير به فأوممه أن ذلك العمل ناجح
وأنه الوسيلة الوحيدة لسماعته وخيره وأنه بذلك يضطر
أباه إلى تسليم العرش اليه

فشل المؤامرة

فأخذ مع بذلك عبد الله ، وتمت المؤامرة على قتل الحكم
وحددوا لتنفيذ ذلك ، يوم عيد الاضحى الذى قرب مياعده
ولكن أمرهم لم يلبث أن انفضح ، فقبض عليهم
الناصر ، ووقف على نواياهم ، وأمر بالفقيه المخادم الشيخ ابن
عبد البر فسجن ، وحكم عليه بالاعدام ، وجعل انفاذه
في يوم عيد الاضحى أى اليوم الذى كان موعد تنفيذ جريمته
ليقتنص منه على فعلته الشنعاء ، ولكن ابن عبد البر قتل
نفسه في السجن في ليلة ذلك اليوم ، لما علم بذلك ، وقال :
” بيدي لا بيد عمرو . “ وكان ذلك في سنة ٣٣٨

وطلب الحكم العفو عن أخيه فلم يقبل الناصر ذلك
وأنفذه فيه العدل مقتدياً بالخليفة العادل عمر بن الخطاب ،
ولما يس الأسير عبد الله من عفو أبيه ، انتحر في سجنه
كذلك ، ودفن في اليوم التالى

مثالان من شعر الناصر

— ١ —

ولعل أبدع ما رأيناه من شعره قوله :

لا يضير الصغير حدثان سن إنما الشأن في صعود الصغير
كم مقيم فازت يداه بغنم لم تنله بالركض كف منير

— ٢ —

وقوله ، وهو تحليل نفسي :

ما كل شيء فقدت إلا عوضني الله منه شيئا
إني إذا ما منعت خيري تباعد الخير من يديا
من كان لي نعمة عليه فإنها نعمة عليا

الحكم الثانى^(١)

٣٥٠ - ٣٦٦ هـ

لم يل حكم الاندلس أمير عالم كهذا الامير من قبل ،
وان اسلافه - على ارتفاع مواهبهم العلمية ، وعلى ما كان فيهم
من الرغبة فى إغناء مكاتبهم - لم يصل بهم الشغف باقتناء
الكتب النادرة النفيسة الى هذا الحد الذى وصل اليه هيام
الحكم

فى القاهرة وبغداد ، وفى دمشق والاسكندرية ،
كان له عملاء ، مكلفون بنسخ الكتب الحديثة والقديمة
وشراؤها ، بالغاً ما بلغ ثمنها ، حتى امتلأ بها قصره واصبح
مصنعاً لا تكاد تقع العين فيه على غير العاملين من نساخ
الكتب ومغلفيها^(٢) وقد بلغ فهرست مكتبة - وحده

(١) معربة عن كتاب تاريخ مسلمي اسبانيا لدوزى

(٢) قال ابن خلدون : « وجمع فى داره الخذاق فى صناعة
النسخ ، والمهرة فى الضبط والاجادة فى التجليد ، فأوفى فى ذلك كله

اربعا واربعين كراسة^(١) تتراوح اوراق الواحدة منها بين
المشرين والخمسين، ولم يكن بها غير اسماء الكتب وحدها
دون أن تتناول وصفها أو شرح شيء من محتوياتها
ويقول بعض المؤرخين ان عدد الكتب بلغ اربعمائة
الف كتاب قرأها الحكم كلها، ولم يقتصر على ذلك بل عاق
على اكثرها، فكان يكتب على اول الكتاب أو آخره
اسم المؤلف ولقبه وجنسيته وقبيلته وتاريخ ميلاده وبوم

واجتمعت بالاندلس خزائن من الكتب لم تكن لاحد من
قبله ولا من بعده ، الا ما يذكرون عن الناصر العباسي بن المستضيء
ولم نزل هذه الكتب بقصر قرطبة الى أن بيع اكثرها في
حصار البربر »

(١) قالوا : « وكان محبا للعلوم مكرما لاهلها ، جماعة للكتب
في انواعها ، بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله »
وقد روى محمد بن حزم : « ان عدد التفهارس التي فيها
تسمية الكتب ٤٤ فهرسة ، وفي كل فهرسة عشرون ورقة ،
ليس فيها الا أسماء الدواوين لا غير
فأقام العلم والعلماء سوقا نافقة جلبت اليها بضائمه من كل
مكان »

وفاته وما يعزى اليه من الطرف والنوادر^(١) وكانت
تعليقاته ثمينه

وكان الحكم لا يجارى في تاريخ الأدب ، وكانت
مذكراته ذات خطر ين علماء الاندلس ، وقد لاقت
دواجا عظيما

وكثيراً ما كانت تنتهى اليه مؤلفات الفرس وسوريا
قبل أن يقرأها أحد في الشرق

ولم يكذب بلبغه ان أبا الفرج الاصفهاني ، عالم العراق ،
يشتغل بوضع مذكرات عن شعراء العرب ومغنيهم ، حتى

(١) قالوا : « وكان يستجلب المصنفات من الاقاليم والنواحي
بأذلا فيها ما أمكن من الاموال حتى ضاقت عنها خزائنه ، وكان
ذا غرم بها ، قد آثر ذلك على لذات ملوك ، فاستوسع علمه ،
ودق نظره وجمت استفادته ، وكان في المعرفة بالرجال والاخبار
ولانساب أحوزيا نسيج وحده ، وكان ثقة فيما ينقله »

قال ابن الأبار . « وقلما وجد كتب من خزائنه الا وله
غيه قراءة أو نظر في أى فن كان ، ويكتب فيه نسب المؤلف
ومولده ووفاته ، ويأتى من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد لا
عنده ، امنيته بهذا الشأن »

ارسل اليه الف قطعة من الذهب ، راجيا إياه أن يبعث اليه
بنسخة من كتابه ، عقب فراغه من تأليفه (١) .
ومن ثم امتلأ قلب أبي الفرج الاصفهاني شكراً
وعرفانا لصنيعه ، وأسرع في تلبية رغبته ، فارسل اليه نسخة
مخطوطة ، شفها بقصيدة عدد فيها مآثر الأمير ، ومؤلف
في أنساب الامويين ، وتلك هدية جديدة نال جزاءها

وجلة القول أن نعم الحكم على العلماء ، من أجنب
ووطنيين ، لم تقف عند حد ، فازدحم بهم بلاطه ، وقد شجعهم
وشملهم جميعا بمجانيته ، ومنهم الفلاسفة الذين استطاعوا بفضل

(١) قال ابن خلدون : « وكان يبعث في الكتب الى الافطار
رجالا من التجار ، ويمسك اليهم الاموال اشراؤها ، حتى جلب
منها الى الاندلس ما لم يعهدوه ، وبعث في كتاب الاغانى الى
مصنعه أبي الفرج الاصفهاني ، وكان نسبة في بني أمية ، وأرسل
اليه فيه الف دينار من الذهب العين ، فبعث اليه بنسخة منه قبل
أن يخرج به بالعراق .
وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه
لمختصر ابن عبد الحكم ، وأمثال ذلك »

قلبك الحماية أن يتفرغوا لفلسفتهم غير خائفين عنت المتنطمين
في الدين



ولقد أزهـر كل فرع من فروع العلم في عهد هذا الأمير
العالم ، فتعددت المدارس الأولية المنتجة ، وأصبح كل أهل
الانداس تقريبا يقرؤون ويكتبون ، على حين كانت أرفع
الطبقات في اوروبا المسيحية جاهلة ، اذا استثنينا رجال
الكهنوت

وعنى بتدريس علم النحو والبيان في المدارس ، وكان
الحكم بعد كل ذلك يرى أن العلم لما يبلغ الدرجة التي يصبو
اليها من الذبوع والانتشار ، فدفعته عنايته بهذيب الطبقات
الفقيرة إلى انشاء سبع وعشرين مدرسة في العاصمة كان
ينفق على معلمها ، ويتلقى فيها الفقراء دروس التربية
والتهذيب بغير أجر . ا. ه. ،

حروب الحكم

لما مات الناصر، وتولى الخلافة بعده ولى عهده الحكم، طمع الجلافة فيه أول حكمه، ولكنه أسرع بغزوتهم وقمعهم، فقبضوا مستذلين، ثم عظمت فتوحات الحكم في كثير من النواحي، وكثرت غنائمه فيها من الأموال والسلاح والأقوات والأثاث

وفي سنة ٣٥٤ حارب المجوس المعتدين وقهرهم ونالت منهم عساكره في كل جهة من الساحل، ومما ساعده على المحافظة على مملكته، انقسام امراء النصارى على أنفسهم، وقد واصل العمل على اتساع مملكته فنجح وبثت دعوته في المغرب الأقصى والأوسط فنجحت وزاحت دعوة الشيعة^(١)

(١) قال ابن خلدون: « فأوطأ العساكر أرض العدو، من المغرب الأقصى والأوسط، وتلقي دعوته ملوك زناته ومغراوة ومكناسة فبشوا في أعمالهم وخطبوا بها على منابرهم، وزاحوا بها دعوة الشيعة فيما يليهم، ووفد عليه ملوكهم فأجزل صلتهم وأكرم وفادتهم »

تشديد في محاربة الخمر

وقد بذل وسعه في ابطال الخمر في مملكته ، وكان
قد وصل به بغضها الى حد أن تم باستئصال شجر العنب من
الاندلس ، فلم يثن عن عزمه الا بعد أن أخبروه أن الخمر
قد تعصر من غير العنب كذلك

مثالان من شعره

ونكتفي من شعره بالمثالين التاليين ، فأولهما قوله :
الى الله اشكو من شمائل مترف
على ظلوم لا يدين بما دنت
نأت عنه دارى فاستزاد صدوده
واني على وجدى القديم كما كنت
ولو كنت أدرى أن شوقى بالغ
من الوجد ما بلغته لم اكن بنت

وثانیہما قوله :

عجبت وقد ودعتها كيف لم أمت

وكيف انثنت بعد الوداع يدي معي

فيا مقلتي العبري عليها اسكبي دما

ويا كبدي الحري عليها تقطعي

الموشحات في الأندلس

د وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التعميق فيه الغاية . استحدث المتأخرون منهم فنا سموه بالموشح ، ينظمونه أسماطاً أسماطاً . وأغصاناً أغصاناً ، ويكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً ، ويلتزمون عند قوافي تلك الأغصان ، متتاليكاً فيما بعد الى آخر القطعة ، وأكثر ما تنتهي عندهم الى سبعة أبيات . ويشتمل كل بيت على أغصان عدد ما يحسب الأغراض والمذاهب ، وينسبون فيها ويعدحون كما يفعل في القصائد ، وتجاوزوا في ذلك الى الغاية ، واستظرفه الناس جملة ، الخاصة والكافة ، لسهولة تناوله وقرب طريقه وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس ، مقدم ن معافر الفريرى ، من شعراء الامير عبد الله بن محمد المروانى ^(١) وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله احمد بن عبد ربه ^(٢) صاحب كتاب العقد ، ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر ، وكسدت

(١) ارجع الى ترجمته في ص (١٨٣) (٢) كان معاصر للناصر

موشحاتها، فكان أول من برع في هذا الشأن، عبادة ابن
الغزاز شاعر المعتصم بن صامح^(١) صاحب المرية^(٢) اهـ

* *

ونحن نختار لحضراتكم بضع أمثلة من أعلى نماذج
الموشحات، مجتزئين بالقليل، لثقتنا أن أغلب حضراتكم
قد اطلع على الكثير منها:

نماذج من الموشحات

فمن أحسن النماذج التي نختارها موشحة لسان الدين
ابن الخطيب المشهورة^(٣)، وهي قوله:

جاءك الغيث إذا الغيث همي يا زمان الوصل بالاندلس
لم يكن وملك الأحلام في الكرى أو خلسة المختلس

* *

أذيقود الدهر أسباب المنى تنقل الخطو على ما نرسم
زمر بين فرادى وثنى مثل ما يدعو الوفود الموسم
والحيا قد جلل الروض سنى فسنا الأزهار فيه يبسم

(١) كان معاصراً للمعتصم (٢) مقدمة ابن خلدون

(٣) وقد عارض بها موشحة ابن سهل

وروى النمان عن ماء السما كيف يروى مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوبا معلما يزدهى منه بأبهى ملبس.

* *

في ليال كتمت سر الهوى بالدجي ، لولا شموس القدر
مال نجم الكأس فيها وهوى مستقيم السير سعد الأثر
وطرمافيه من عيب ، سوى انه مر ككاح البصر
حين لذ النوم منا ، أو كما هجم الصبح نجوم الحرس.
غارت الشهب بنا ، أو ربما أثرت فينا عيون النرجس

* *

أى شيء لا مرى قد خلصا فيكون الروض قد كثر (١) فيه
تنهب الازهار فيه الفرصا أمنت من مكره ما تنقيه
فاذا الماء تناجى والحصا وخلا كل خليل بأخيه
تبصر الود غيور ندما يكتسى من غيظه مبيكتسى
وترى الآس لييا فها يسرق السمع بأذني فرس

* *

يا أهيل الحى من وادى النقى وبقي سكن أنتم به

ضاق عن وجدى بكم رجب القضا لا أبالي شرقه من غربه
فأعيدوا عهد أنس قد مضى تنفذوا حائلكم من كربه
واتقوا الله، وأحيوا مغرما يتلاشى نفسا في نفس
حبس القلب عليكم كرما أقرضون عفاء الحبس ؟

* *

وبقاي فيكم مقرب بأحاديث المنى ، وهو بعيد
قرأ أطلع منه المغرب شقوة المغرى به ، وهو سعيد
قد تساوى محسن أو مذنب فى هواه بين وعد ووعيد
ساحر المقلّة ، معسول اللهى جال فى النفس مجال النفس
سدّد السهم وسعى ورمى بفؤادى نهبة المفترس
ولعل أبدع ما فى هذا الموشح قوله بعد ذلك :

ان يكن جار وخاب الامل

وفؤاد العصب بالشوق يذوب

فهو للنفس حبيب أول

ليس فى الحب لمحبوب ذنوب

أمره معتمل معتمل

فى صنوع قد براها وقلوب

حكم اللحظ بها فاحتكما
لم يراقب في ضعاف الأنفس
ينصف المظلوم ممن ظلما
وبجأزي البر منها والسي

وقد أبدع أبو بكر الأبيض الوشاح في قوله من
موشعة له :

مالئني شرب راح على رياض الاقحاح
لولا هضم الوشاح إذا أسى في الصباح
أو في الاصيل أضحي يقول
ما للشمول ؛ لطمت خدي
والشمال هبت فبال
غصن اعتدال منه بردى
مما أباد القلوب يمشى لنا مستريا
يا لحظه رد ثوبا ويا ثناء الشنبا
برد غليل صب غليل
لا يستحيل فيه من عهد

ولا يزال في كل حال
 يرجو الوصال وهو في الصمد
 واليكم مثلاً ثالثاً من أجل المؤشحات وهو قول بعضهم
 ما للموله من سكره لا يفيق
 ياله سكرانا !
 من غير خمر مالم الكئيب الشوق
 يندب الأوطانا
 هل تستمد أيا منا بالخليج
 وليالينا
 أو يستفاد من النسيم الأريج
 مسك دارينا
 واد يكاد حسن المكان البهيج
 أن يحيينا
 ونهر يظله دوح عليه أنيق
 مورك فينان
 والماء يجري وعائم وغريق
 من جنى الربحان :

ومن أبدع موشحات عبادة، الفزاز، موشحته التي
غيرها قوله :

لا جرم من لحسا قد عشقا قد حرم !

وَمَا لَا بَأْسَ بِاخْتِيَارِهِ مِنَ الْمَوْشَحَاتِ ، قَوْلُ التَّلَاسَانِي
مِنْ مَوْشَحَةٍ لَهُ :

يَا مَذْيِبًا مَهْجَى كَمَا فَقْتُ فِي الْحَسَنِ الْبَدُورَ مَدَى
يَا حَكِيمًا كَلَّهَ اعْتَمَدًا عَجِبًا أَنْ تَبْرِيءَ الرَّمْدَا
وَبَسْطَمِ النَّظَائِرِينَ كَسَى جَفَنُكَ السَّحَابَ وَانْكَسَرَا
وَقَوْلُ الشَّيْخِ أَثِيرِ الدِّينِ أَبِي حَيَّانَ ، مِنْ مَوْشَحَةٍ لَهُ :

إِنْ كَانَ لَيْلٌ دَاجٌ وَخَاتَنَا الْإِصْبَاحُ
فَنُورُهَا الْوَهَاجُ يَفْنَى عَنِ الْمَصْبَاحِ

سَلَاةٌ تَبْدُو كَالْكُوكَبِ الْأَزْهَرِ
مَزَاجُهَا شَهْدٌ وَعَرْفُهَا عَنَبَرٌ
وَحَبِذَا الْوَرْدُ مِنْهَا وَإِنْ أَسْكُرَ

وَفِيهَا يَقُولُ فِي وَصْفِ حَبِيبِهِ

يَلْحُظُهُ الْمَرْهَفُ يَسْطُو عَلَى الْأَسَدِ

كس طوة الحجاج في الناس والسفاح
فما ترى من ناج من لحظة السفاح الخ
وقول بعضهم :

هل يصح الأمان من شبيه البدر ؟
وهو مثل الزمان منتم للفسد ؟
وهي معارضة للموشحة التي اولها :

صاحك عن جنان سافر عن بدر
صناق عنه الزمان وحواء صدرى

ومن موشحات ابن بقی قوله :

ما ردنى لابس ثوب الضنا الدارس
الاقصر

في غصن مائس شعاعه عاكس
ضوء البصر الخ

وقوله ايضاً :

خذ حديث الشوق عن نفسي

وعن الدمع الذي همما

* * *

ماتری شوقی فد وفدا
وہما دمی واطردا
وانغندی فای عیك مدی؟

* * *

آہ من مدہ ومن قبس
بین صوفی وانسہ چہ!
بني رہہ از سفر
أضمت زورہ نرا
فاحذروه کک انرا
فبالخاف الہدی قدی
منہ خبر مرادہ

* * *

وہ خبرہ من رہجہ ای رہہ
فی نغمۃ ہر درندہ رہہ
أسأل من دمی خذوہ رہہ

ج

دعني على منهج التصابي ما قام لي العذر بالشباب
ولا تطل في المنى عتابي فلست أصغى الى عتاب
لا ترج ردى الى صوبي والكاس تقتر عن حباب
* * *

والفصن يبدى لنا انعطائه اذا هنا فوقه النسيم
والروض أهدي لنا قطفه واختار في برده الرقيم
الى ان يقول :

لله عصر لنا تقضى بالسد (١) والمنبر البهيج

(١) السد هو من متنزهات قرطبة ، وقد اكثر شعراء
الاندلس من ذكره في اشعارهم ، ومن أبدع ما رأيناه لهم في ذلك ،
قول أبي شهاب الملقبي ، يصف يوم راحة بهذا السد :

ويوم لنا بالسد ، لو رد عيشه

بعمشة أيام الزمان ، رددناه

بكرن له ، والشمس في خدر شرقها

الى اذاجوت ، اذ دعا الغرب دعواه

فطمنا شدوا ، واغتباطا ونشوة

ورجع حديث ، لورقي الميت أحياء !

على مثله من بمنزلة تبغني المنى

فيه ما أسمى وأبدع مرآه !

أرى اذكاري اليه فرضا وشوقه دائما يهيج
خـمـ خـمـ خلعتنا عليه غمضا وللصبا مسرح أديج

* *

ورد أطال الى ارتشافه حتى انقضى شربه الكريم
لله ما أسرع انحرافه وهكذا الدهر لا يديم

شدته به الأرحا ، وانتت نثرها

علينا ، فأصغينا له وقبضناه

لئن بان ، انا بالآئين لفقدته

وبالدمع في اثر التفراق حكيتناه

(١) ر ح م ي — ش ي ي ح ن ه شعر

مجالس الادب والخناء

وأثرها في الشعر

قال حضرة الدكتور ضيف ، في إحدى محاضراته .
 « وقد أثرت تلك المجالس في الاندلس تأثيراً عظيماً
 في المعاني الشعرية ، بسبب ما أوجدته من التنافس الشديد
 بين الشعراء والادباء ، ولكن الغناء كان قاصراً على تاجين
 بضعة أشعار عربية مما قاله الشعراء المعاصرون أو المتقدمون .
 بل إنهم كثيراً ما كانوا يتغنون بوضع أبيات جاعلية أو أموية
 وعباسية ، ولهذا السبب لم تعد تروى الغناء زيادة انعام قليلة
 لا تختلف كثيراً عن ما بقيت في الشرق ! »

فلاستدري أن تلك الخمر أثرت في المعاني الشعرية
 فهدبتها ولكنه يرى من الناحية الأخرى أنها لم تؤثر مطلقاً
 في البراعة الشعرية بل هي في أوزانها وقوافيها —

فإن تلك الخمر قد أثرت في المعاني الشعرية تأثيراً

عظيما ووصلت بها الى حد ما تكن متباعدة لولاها، وأما انها كانت سبباً في التنفس بين الشعراء ولادباء مما كان له اكبر الاثر في تهذيب الشعر وابتكار المعاني الجديدة وادخال كثير من الاساليب الرشيدة فيه، فذلك ما لا يشك فيه أحد وحسبك آية على صدق ذلك ما نقله نيكاسون عن القزويني في كلامه عن مدينة شلب، البرتل - أن قطينها جميعاً إلا ما بدر - كانوا قرضون الشعر ويعاون الأدب فلو مررت به لاحت وقف وراء محرمه وسأته أن ينسبك بضع بيتات لأجاب صلبتك من "مور مرتجلا في" موضوع تغلب اليه ايكلاء فيه، وهو - الاشك مرأكبر نتاج تلك المجاس التي كان هذا الفضل في نصوصه، بلادي تلك لمكة العاية .



فأما أن اثر الغناء كان قصراً على زيادة وضع الغناء فحسب . وأما أن الغناء لم يكن له من أثر مطابقة في طريقة نظم الشعر، وأما أن الغناء كان مجرد لهو وطرب يقتصد به صرف الوقت، وأما أن الغناء لم يبعث لاندسين الى اختراع نوع جديد في الشعر يتضاءل بالقياس اليه ذلك الاثر الذي

أحدثته تلك المجالس في المعاني الشعرية - رغم ما يئناه من أهميته - فذلك ما نستطيع الاستفاذ المذر اذا خالفناه فيه وأظهرنا لحضرته اننا نؤمن بعكسه تماماً .

فاننا نعتقد أن أثر الغناء ومجالس الغناء في رقي المعاني الشعرية وتهذيبها ، يتضائل بجانب تحطيم أكبر قيد رزى به الشعر العربي ، وهو التقيد بمدة اوزان وقواف خاصة لا يتخطاها أحد ، ولا يحسر انسان على الانتقاص عليها ، بل ولا يؤذن له أن يفكر في ذلك - فلما شاع الغناء في الاندلس وافتن أهلها في التلاحين والغناء ، استطاعوا ان يرفعوا عن عائقهم ذلك النير الثقيل الذي سببه التقليد ، ثم اهتموا الى اختراع الموشحات - كما سنبين ذلك في حينه ونثبت به بما نعدّه كافياً لاثباته ، من ابراهيم التي افتنمنا بصحتها - وايسر يستطيع أن يقدر اهمية هذا التطور الذي نشأ عن اختراع الموشحات أو تبين خطورته - الا من تتبع الحركة النقدية عند العرب وعرف أن التقليد الاعمى كان رائدها في اغلب الاحايين ونشدة تنانيمهم في الحفلة على محاكاة من تقدمهم من العرب وتبع سايهم في التفكير - قد وصلت الى حد

يدعو الى الحيرة - وامل ا كبر نكبة أصابت الشعر العربي
هى ذاك التفليد الذى سرى اليهم من اعتقادهم الفاسد بأن
الفضل كل الفضل لمتقدم وان العرب الجاهلين قد وصلوا
بالشعر الى درجة ليس بعدها غاية ، وان مهمة الشاعر منهم
يجب أن تنحصر فى الاتيان بشعر يحاكي اشعارهم التى اتخذوها
نماذج عالية بلغت أعلى درجات التكمل وتسامت عن تناول
النقد - ولو شئنا الافاضة فى هذه النقطة ، التى نراها من الزم
الماو ازم لا يفاء ، موضوعنا ، فعملنا - ولكننا نكتفى بنظر ذاتية
سريعة ، لتبين منها الحد الذى وصل اليه تعنت النقد وتضييقه
على الشعراء ، والعروق التى لجأ اليها بعض من حاول التجديد
من الشعراء ، فاذا انتهينا من ذلك شرعنا فى اثبات ما طالبه
منا الاستاذ ضيف ، وهو البرهنة على أن الموشحات كانت
نتيجة الغناء ، ثم نختتم هذا الفصل بكلمة جامعة تنتهضها
للملامة ابن خلدون تعد بمثابة تدرية موجزة فداء ، حتى يسلم
علينا ان نلم بصورة واضحة لتكوين هذا الفصل

بلغ أشده في الممور المتأخرة

[illegible]

(١) وكانوا كثيراً ما ينحلون الاوائل اياتاً من الشعر بقصد تأييد قاعدة نحوية جديدة رغبة في التحرر من عتق قهاء النحو - وربما لجأ بعضهم الى هذه الطريقة ليظهر عظم الملم بعدد كبير من قصائد الجاهليين

امرؤ القيس، فحله الأبياب التالية، واطلق عليها اسم الشعر
 المسط، وادعى أنه عثر بها عرصنا، وهي
 توهمت من هند معالم اطلال
 عفاهن طول الدهر في الزمن الخالي
 * * *
 مراعي من هند خلت ومصائف
 يصيح بمفناها صدى وعواضف
 وغيرها هوج الرياح الواصف
 وكل مسف ثم آخر رادف
 بأسحم من نوء السما كين هطال
 وهذه أبيات لا يتردد أنسان له ذوق أدبي في أن
 يشك في نسبتها لامرئ القيس على الأقل - بل ربما جزم
 بنسبتها له وهو ما نذهب إليه، لظهور الصنعة والتكلف
 فيها وبعدها الشديد عن أسلوبه الذي كاد يماز به عن سواه
 من الشعراء (١)

(١) وقد ذكر المعري في رسالة الغفران (ج ١ ص ١٠٩)
 مذقشة خبائية ممتعة بين مريء القيس وابن أقرح، تنصل
 غيب الأور من نسمة تسميط آخر، دسه دليبه بعض



وربما جأ بعضهم الى الغناء يستعاز به لظانه التظاهر
على النفوس، واتخذ من النغم الساحر عوناً له على ادخال تحوير
آخر في نظم الشعر - رغم أنف النقاد الجامدين - ومن هذه
الفئة سلم الخاسر المغني النابه، حين قال في مدح موسى الهادي

موسى اطر	غبت بكر
ثم انهمر	ألوى المر
كم اعتسر	ثم تسر
وكم قدر	ثم غفر
عدل تسير	بش لأثر
خير وشر	نفع وضر
خير البشر	فرع مضر

الرواة، وقد جاء فيه :

يا قوم ان الهوى اذا أصاب انفى
في القلب، ثم ارتقى فهد بعض الغوى
فقد هوى لرجل

بدر بدر والمفتخر

لمن غير

* *

ويسمون هذا النوع من اللحم - المقطع - سمي
كذلك لأنه مقطوع من الرجز الذي قلته العرب ووزنه كما
تأملون (مستعملان مستعملان مستعملان) ، ثم تمتاز العرب
القدماء فيه فانحصر بعضهم على جزأين منها كقول دريد
ابن الصمة يوم هوزان

يا ليتني كنت جريح أخب فيها وأضع

فكان من الطبيعي - يسير - لم الخاسر في هذه الطريق
الى آخره وأزيفتصر على جزء واحد من أجزاء الرجز الثلاثة
وهو « مستعمل » ، وكما قلنا لم يكنوا يميزون الى
التجديد - مما كان طبيعيا - لذلك استعان سلم الخاسر على
ترويح عهده الوضع بقوة تأثير الغذاء - ثم تبعه غيره فنظم
أرجوزة من هذا النوع ، فقـ :

طيف له بذى سلم بعد العتم يطوى لآكم الخ

* *

ولا يفوتنا أن نختم هذا الفصل بمثّل واحد من أمثلة
عديدة يعيننا استقصاؤها - الاستدلال على تنطع بعض
الققاد وتشبيهه بالتقديم - وربما تبينتم منه السرفى تأخر
لزمّن الذى اخترعت فيه الموشحات عن حينه بسبب
اضطهاد الققاد لكل فكرة مستحدثة وعدم فهم الأكرية
منهم لمغرض الأسمى الذى يرى إليه السمر

ابن رشيق والتجديد^(١)

فمن أدلة - خطهم على الجديد - لالسبب - سوى جدته
وحدها - ما نورد على حضراتكم من قول ابن رشيق من
كلام طويل نفتطف لكم منه القطعة التالية :
« وقد رأيت جماعة يركبون الخمسات والمسمطات
ويكثرون منها

(١) ابن رشيق القيرواني

المتوفى سنة ٥٠٦ هـ

ممه الحسن ابن رشيق وكنيته أبو العباس ، وموطنه القيروان
وأصل أبيه بملوك رومي من موالي الأزد كان صائغا في بلدة
« حمادية » فعلمه أبوه صنعته

شغف ابن رشيق بالأدب فرحل الى القيروان واتصل بخدمة
صاحبها ، وعلا شأنها

ومما فربها العرب ، انقل لي صقلية وأقام بما زر الى أن مات
وهو مؤلف كتب عمدة الذي يمد بحق من أنفس الكتب
العربية - وابن رشيق من اقرب النقاد الى الاعتدال والحرية
وابه - عن التقليد

ولم أر متقدما حاذقا صنع شيئا منها، لأنها دالة على عجز
الشاعر وقلة قوافيه وضيق عطنه
ما خلا أمراً القيس في القصيدة التي نسبت إليه (١)
وما اصححها له ،

أى والله اعكدا فليكن المقد الصائب! وهكذا فليكن
القطع والتشبيث بأذيال القدماء والبعيد عن فهم النهاية السامية
التي خلق الشعر من أجلها! لم ير ابن رشيق متقدما صنع
شيئا من الخمسات والمسمطات . وهذا وحده سبب كاف
عنده للسخط عليها والخط من قيمتها والافتناع بعدم
صلاحيتها . فعبير كل عيب في نظر هذا السامع انفذ هو أن
الأوائل الفادرين الذين جمع الله البيوع وصواب النظر
ووفور العمل وقصايعهم - لم يخترعوا شيئا من هذه الأوصاف -
ولو أنهم سبوتوا إلى خترهم حسنت ولا تردد بن رشيق
في قبولها والاعتراف بمزايدها خييلة
وأغرب من ذلك أن هذا التفسير لا يستحق

أن يصرح في كتابه أن من أكبر أسباب سخطه على هذه
الاولئاع الجميلة التي نمدّها خطوة في سبيل رقى الشعر
وتدرجه في طريق الكمال - انها تدل على عجز الشاعر وقلة
قوافيه وضيق عطنه !!! - اذن فالشعر في نظره هو نوع
من المباهاة والاقتدار على صيد اقوافى الساردة - وليس
مجالا لشرح اخوالج التي يزيدّها وضوحاً قلة القيود في
النظم ؟ - ولكن حذار ان ننسى أن امرأ القيس يشذ
عن هذه القاعدة في نظر ابن رشيق واضرابه - لأنه يرتاب
في نسبة تلك القصيدة اليه - ولو أنه تحقق من انه قلب
اكن له شاذ خرفي مستحسانها، وما صعب عليه أن يتلمس
فيها مزايا أخرى - لا يصعب علينا أن نتكهن بها - تسين له
قبول هذا النوع

وذو وصل ابن رشيق الى هذا الحد من التنطع مع
ما شهريه من التبجح في النقد وسعة الاطلاع على كلام
العرب . ومع ما نعرفه من أن به مملوك روى من موافى
الازد ، وهو ما نجعله قلة من غيره تعصباً لآراء العرب
القدماء - فما ضئلك بأخذ نبي يعامل اليه ننطع سواه من

للققاد الجامدين الذين وصل العمى ببعضهم الى حد أن
يسمع البيتين من الشعر فينطق لسانه بمدحهما والثناء عليهما—
ثم لا يكاد يسأل عن قائمهما فيجد هما لصاحبه ، حتى ينتقض
على حكمه في الحال ، ولا يستحي أن يقول له : « أى والله
إن أثر التكلف فيهما مظاهر ^(١) »

(١) انظر الى شكوي ابن قتيبة (٢١٣ - ٢١٦) وهو من
احرار نقاد المشاركة ونافيهم ، ومن اساطين نقاد بغداد — من
الطريقة التقليدية التي يسير عليها نقاد العرب . قال : « فاني رأيت
من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه موضع
متخيره — ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده الا أنه قيل
في زمانه ورأى قائله — ولم يقهر الله الشعر والعلم والبلاغة على
زمن دون زمن ولا خص به قوما دون قوم بل جعل لله كل
قديم منهم حديثاً في عصره وكل شريف خارجياً في أونه
فقد كان جرير والفرزدق والاخلطل يعدون محدثين ، وكان
أبو عمر بن العلاء يقول : « لقد نبغ هذا » تحدث وحسن ، حتى
لقد هممت بروايته » ثم صار هؤلاء قدماء عندنا يبعد للمهد
منهم ، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعده كالخزيمي والعتابي
والحسن ابن هنيء

سلطان الغناء

واذا وصل تعنت النقاد في الشرق الى هذا الحد، وذكرنا ما يذناه من قبل في احدى المحاضرات السابقة من اندفاع الانداسيين في تقليد الشرقيين الذين اتخذوا - هم الآخرون - بلاغة العرب الأقدمين نموذجاً عالياً لا يقبل التحوير ولا يخضع لقانون النقد - فقد يسهل علينا اذا استوعبنا ذلك أن نتصور بسهولة أن جهود النقاد في الاندلس لم يكن اقل عن جهود النقاد في الشرق، بل وربما زاد - واذن فكيف نعمل اختراع الموشحات في الاندلس مع ما يذناه من تعنت النقاد؟ وكيف تقبلها الوسط الذي كان متأثراً بأراء المقد اجامدين؟

فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له، ووثقنا حبه به - ولم يضعه عندنا تأخر قاله ولا حداثة سنه كما ان اردى اذ ورد علينا المتقدم أو الشريف، لم يرممه عندنا - حبه بلا تقدمه، ه

ان نظرة واحدة تلقى بها الى سلطان الغناء القاهر
الذى تغلب على نفوذ النقاد وتعضهم، فيها الجواب الصادق
عن هذا السؤال - فقد استعان الاندلسيون بسلطان الغناء
وقوة النغم الساحر على ارغام النقاد الجامدين على قبول تلك
الانواع الجديدة التى طالما عارضوها بكل شدة

* * *

رأيت في احدى المحاضرات السابقة الى أى حد وصل
تقديس الاندلسيين لزياب الموسيقى وكيف أنهم رفعوه
الى مكانة يس بعدد زيادة لمستزيد^١ حتى وصل
الى منزل يشناه كل سيد وبمصر عن ادراكه المتناول
وقد استمتعنا من ذلك في حينه، استمتعنا حين مهمين،
أحدهم وهو اخذنا بتوضوح هذا الفصل به هو شغف
الاندلسيين واقتنائهم بالغناء الى حد لا تثنى اذا قلنا به راء
زاد على اثنان الغربيين به في هذه الايام

ولا جرم ان بلوح الانس في الغناء مرضي لا يستطيع
أن يتخلص منه الا من وفى حين غير سبلة البشر - بل ين

بعض الحيوانات يتأثر به كالجل والحصان مثلاً - بل زعم
بعض المتغالبين جداً من العلماء المعاصرين لنا في امريكا أن
الجماد ايضاً قد يتأثر به . فاذا ما وجد الجمهور اقبالا من الملوك
على هذا الفن وتنشيطا لذويه - فانه بما فيه من حب طبيعى
للغناء ، وبما فيه من تقليد أعمى لما يحبذه الملوك - حتى ولو كان
مخالفاً لطباعه - يندفع في تحبيذه اندفاعاً لا مثيل له !

فاذا زدنا على ذلك ما كان بين الغرب والشرق من المنافسة
في كل شيء تقريباً ، ثم ذكرنا ايضاً أن زدياب كان تلميذاً لاستاذ
النايغ اسحق الموصلى وان اسحق هذا قد رأى فيه منافساً
خطراً فهده بالوعيد مرة وأغراه باللين أخرى ليغادر
الشرق الى بلاد الاندلس - لما رآه من اقبال الخليفة العباسى
عليه ، فكان لذلك اكبر الاثر في نفس زدياب الطموحة ، فسعى
للتفوق على استاذه ، وساعدته الفرصة الى أن احدث له منافسته
في بلاد الغرب . واذا ذكرنا ما لقيه زرياب من ضروب
التشجيع الذى لم يكن يحلم به من قبل ، ومن الهيمنة النامة
على الاذواق ، والتصرف فى نفوس الناس كما يشاء - ثم أضفنا
الى ذلك نبوغه واستعداده العظيم للتفوق فى هذا

على كل معاصريه في الشرق والغرب - وذكرنا بجانب ذلك
ما في طبيعة الاندلسيين من حب الغناء بسبب موقع اقليمهم
الناذر - نقول -

اذا وعينا كل هذه الاعتبارات لم نستغرب قط ما وصل
اليه سلطان الغناء على النفوس في بلاد الاندلس - ولم يدهشنا
ما نراه من انتشار مجالس الغناء في كل جهة من جهاتها حتى
أصبح شغف الفلاح به وهو وراء المحراث لا يقل عن واع
الامراء به بين الموالي والدساتين



ومتى أقررنا ذلك فقد أدركنا السر في تلاشي سلطة
النقاد الجامدين وضياع نفوذهم العظيم الذي طالما اتخذوه
وسيلة للاستبداد باذواق الشعراء، ولم نستغرب السبب في
ضياع سلطانهم الذي تضائل أمام سلطان الغناء الفاهر الذي
خضع الجميع لتأثيره حتى النقاد - ومن هنا يسر علينا
ادراك السبب في اختراع الموشحات في الاندلس

أثر الغناء في الشعر

الغناء هو السبب الأول في اختراع الشعر

فلا عجب اذا كان هو السبب أيضاً في اختراع الموشحات :

* *

يرى أكثر المؤرخين أن السبب الأول الذي دعا العرب الى نظم الشعر هو حداؤهم للابل . قالوا : « وكان العربي يغنى انطرب ناقته ، فيسهل عليها قطع المفاوز الشاسعة واجتياز المهامه المترامية . وبدأ العرب بنظم عدة ابيات قصيرة تتفق اعاريضها وانغامها مع سير الابل وحداثها » واستدلوا على ذلك بعدة ابيات يطاق توقيعها سير الابل

وروى بعضهم أن السبب الاول في نظم الشعر هو أن مضر بن نزار بن معد سقط عن بعيره فانكسرت يده فحس يقول « ييداه . ييداه » وكان من أحسن الناس صوتاً . فاستوسقت الابل وطاب لها السير . قيل : « ولعل الهزات الاربع تمتابعة في سير الناقة ارشدته الى ايقام حدائه على

اجزاء رباعية فكان من الحذاء الرجز وهو أول بحور الشعر .
وما زالت الاوزان تترقى شيئاً فشيئاً ،

» ودرجاً صاعوا الشعر أولاً بمباريات قصيرة تحفظ
وتتناقل على سبيل الأمثال الحكيمة ونحوها . والظاهر
أنهم قضوا أجيالاً والنظم عندهم على سبيل الأمثال . حتى
اتفق لبعضهم أن جعله شطرين مسجوعين في مثل واحد
أو مثليين متآلفين فرأى في ذلك رنة ، فترنم به ، وأخذ عنه

الناس وجعلوا يتغنونه في حدوهم وانشادهم وراء إبلهم ، والغناء
لسان طيبي ، فاعجبتهم رنة القافية والوزن ، فزادوه شطراً
وشطرين أو أكثر على قافية واحدة ، وهو الرجز في أبسط
أحواله ، وظلوا دهرًا ضويلاً يقول شاعرهم من الرجز اليتيم
أو الثلاثة . إذا هاجت به قريحة الشعر لمفاخرة أو مشاتة
أو منافرة . وكانوا كلما نبغ فيهم نبغة أدخل في النظم
تحسيناً ^(١) ، حتى إذا جاء المهمل قصد القصائد وجاء بعده
امرؤ القيس فانت فيها وأطرها وبلغت نهضة العرب أشدها
في الجاهلية في أيام مهمل وابن اخته امرؤ القيس . وقد

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج (٣) ص (٢٣)

اهتدى بعض المستشرقين الى بعض أنغام العرب وشرحها في محاضرة له، القاها في نادي الموسيقى - فيما سمعت - على ملاء من اداء مصر والفرنجية . وبين لهم طريقة انشاد العرب للشعر وتغنيتهم به . ثم تطرق الى الكلام على معلنة امرى القيس فصورها للحاضرين ، ثم أمر بها فغنتها على دساتينها فئة من الموسيقيين أعدها لهذا الغرض خاصة

ذلك ما رواه لى صديق أديب ، يجيد الفراء ويحسن التوقيع . وقد أكد لى أن جميع الحاضرين خرجوا مقتنعين بأن ذلك النغم كان بلا ريب النغم الذى تغنى به امرؤ القيس وغيره من اجاهليين لمسايقه التامة لحداه الابل ومطابقته لسيرها

وقد تمكن صديق - لحسن الحظ - من ضبط ذلك النغم وحفظه ، وأسمعني به ، فاخذته عنه منذ ذلك الحين - ولا أكذبكم يا سادة أنه نغم لا يتمالك الانسان نفسه - وقت سماعه - من الجزم بأنه لم يخلق إلا ليوقع على سير الابل وحداؤها - وكثيرا ما تغنيت به لنفسى خفيل الى - رغم رداءة صوتى - أننى راكب جملا واننى أحده !



وبعد ، فأى ميزة للشعر على النثر الا ميزة الموسيقية
التي يحدّثها الوزن والا ميزة الاتساق الذي تحدّثه القافية ؟؟
والا فاهى الفائدة من وجود هذين القيدين فى الشعر ،
وقد تعلمون ما يتطلبانه من العناء والجهد ، وما قد
يجرّان اليه من تحوير بعض الأفكار التي أرادها الشاعر
أو تبر بعض المعاني التي رام الافصاح عنها . مما لا يعزّيه عنه
لا عرفانه بان النغم سيسد ذلك الفراغ ، ويزيد على ذلك تلك
الحلة البديعة التي يفرغها على الشعر - ذلك هو ما أفهمه
من وجود تلك القيود الشديدة فى الشعر العربى . تلك
القيود التي بدأ الانداسيون بتحطيم بعضها - وأن لها
أن تحطم جميعا وان تلقى بلا رحمة ولا شفقة - وأى انتفاع
للانسان بالوزن والقافية اذا كان الغرض هو سرد الشعر
بعد ذلك كما يسرد النثر ؟؟

الشكوى من القافية

قد يعترض علينا أحدكم بأن النثر المسجع قد اخترعه العرب من غير أن يفكر واحد منهم في أن يتغنى به . وهو اعتراض وجيه نقره على أهميته ، ولكننا نسأله أيضا : دوما الفائدة من تسجيعة اذن ؟ أليس ذلك اسرافا دعا اليه قضاء الوقت ؟ (١)

(١) وقد حل صديقي الاستاذ سيد افندى ابراهيم هذا الاعتراض على أبسط وجه فقال « كان الباعث الاول الذي دعا العرب الى نظم الشعر هو الغناء (حذاء الابل) وبعد زمن طويل نسي ذلك الباعث واصبح الشعر معتبرا بنفسه دون نظر الى أصله ثم خطا العرب خطوة اخرى فأنشأوا كلاما مقفى خاليا من الوزن وهو النثر المسجع ، وقد اكثر الكهان من استعماله - ولقد حاول بعض الشعراء فيما بعد أن يزيد قيودا جديدة على الشعر غير القيود الاولى ، فالزم فيه مالا ينزم ومنهم ابو الملاء الذى تنغالى في لزومياته في اتباع قيود سنّها لنفسه والزمها بها . وهذا دليل على أن القيود لأولى التى كان الباعث اليها للغناء ، نسبت عاما

على أن الشكوى من الفاقية عامة في أغلب العصور،
وقد حاول بعض أفذاذ من العرب أن يتمردوا عليها فلم يفلحوا
كثيرا في ترغيب الناس الى ذلك - ومن ذا الذي يدرى الى
أى حد كانت تصل البلاغة العربية لو حطم ذلك القيد الثقيل
(الفاقية) في ابتداء الدولة الاموية مثلا؟ - لا شك أن
حدوث ذلك كان معناه فتح باب الرقي على مصراعيه وانفساح
الشعر العربي للاغراض المختلفة التي انفسح لها اخوه الشعر
الغربي في هذه الأيام . ولكن الفاقية وحدها كانت من اكبر
التكبات التي وقفت حائلا دون رقي الشعر العربي الى الحد
الذي وصل اليه الشعر الغربي ، كما أنها كانت سببا في انقراض
الشعر القصصي الطويل لذي نجمده في لغات الغرب التي
ملك أصحابها كل سبيل يؤدي الى تسهيل النظام - وهذا
رأى يشاركنا فيه الكثيرون من أحرار المفكرين و

واعتبرت من مستلزمات الشعر بعد أن زال السبب الذي كانت
لازمة من اجله - والافأى فائدة في التزام هذه القيود الثقيلة
حتى في شعر الفلسفة والحكم ؟ وهو في نظرنا تمايل وجيه
لا نتردد كثيرا في قبوله

موردون هنا بعض ما قيل في هذا الصدد من السخط على القافية
قال الاديب البستاني من كلام طويل في مقدمة
الايادة ص (١٠١) :

« رب من ترجو به دفع الاذى عنك بأنيك الأذى من قبله »
« فقد يأتي الضر من حيث يرجى النفع . فإن اتساع »
« القوافي في اللغة العربية من جملة أسباب التضيق على »
« الشعراء . اذ بها طال الشاعر باعا فلا يأتي على عدد »
« معلوم من الأبيات حتى يكاد يستنزف القوافي السائغة . »
« ولهذا كان من المستحيل نظم الالوف المؤلفة على قافية »
« واحدة . وهذا من جملة أسباب ضعف الشعر القصصى »
« في العربية ، واذا فرضنا وجود قافية تتسع لمثل هذا المجال »
« فالأذن تمل توالى النغمة الواحدة لأطيب الالخان ا . هـ »



وقال الاستاذ العقاد في هذا الصدد ما تقتطف لكم
منه ما يلي :

« ولا مكان الريب في أن القيود الصناعية التي »
« أشرنا إليها ستجرب عليها أحكام التغيير والتنقيح فان »

« أوزاننا وقوافينا أضيق من أن تنفسح لأغراض شاعر »
 « تفتحت مفايق نفسه وقرأ الشعر العربي فرأى كيف »
 « ترحب أوزانهم بالأقاصيص المطولة والمقاصد المختلفة »
 « وكيف تلين في أيديهم القوالب الشعرية فيودعونها »
 « ما لا قدرة لشاعر عربي على وضعه في غير النثر . ألا يرى »
 « القارئ كيف سهل على العامة نظم القصص المسببة »
 « والملاحم الضافية الصعبة في قوافيهم المطلقة ؛ وليت »
 « شعري بم يفضل الشعر العامي الشعر الفصيح إلا بمثل »
 « هذه المزية ؟ » إلى أن قل : « وما كانت العرب تنكر القافية »
 « الرسالة ؛ فقد كان شعراؤهم يتساهلون في التزام القافية »
 « كما في قول الشاعر :

الاهل ترى ان لم تكن أم مائك

بملك يدى ان السكفاء قليل

رأى من رفيقيه جفاء وغائفة

اذ قم يبتلع الفلوس ذميم

فقل : « أفلا وتركوا الرجل انى

بملكه والعافيات تدور »

فبيناه يشرى رحله قال قائل
لمن جل رخو الملاط نجيب
وكقول غيره :

بنات وطاء على خد الليل لا يشكين عملا ما أتقين
وقول الآخر :

جارية من ضبة بن أد كأنها في درعها للنمط الخ
وبعض هذه القوافي ، كما تراها ، قريبة مخارج الروى
وبعضها تتباعد مخارجه . ولكنهم كانوا على حالة من البداوة
والفطرة لا تسمح لغير الشعر الغنائى بالظهور والانتشار
وكانوا لا يماون مشقة في صوغ هذه الاشعار في قوالهم
فلم يلجأوا الى اطلاق القافية ، ولا سيما في شعر يعتمد في
تأثيره على رتته الموسيقية ، وجاء العروضيون فعدوا ذلك
عيبا وسموه نارة بالا كفه وتارة : لاجازة أو الاجارة ، لقلة
ما وجد منه في شعر العرب . فلما انتقلت اللغة العربية
الى اقوام سلافهم وحالهم أميل الى ضروب الشعر الاخرى
اعتسروا القوافي على ذاء غرض منهم ولم تشعرا آذانهم بهذا
الذى سماه العرب ضبون عيبا في الزفيرة فاحتملت لغتهم

المحرقة وقوافيهم للمقاربة . ما لم تحتمله أوزان الجاهلية
وقوافيها ، على أن مراعاة الغافية والنغمة الموسيقية في غير
الشعر المعروف عند الأفرنج بشعر الغناء (Lyric) فضول
وتقيد لا فائدة منه . ا . هـ ،

ومتى أقررنا ذلك فقد أدركنا أهمية اختراع الموشحات
وعرفنا خطرها العظيم . واي خطر أجل واكبر نفعاً من
تخطيم ذلك القيد الذي رزى به الشعر العربي ؟ .

وفي هذا الكفاية الآن في الاستدلال على الشكوى
من الغافية ، وعلى فضل الغناء وأثر مجالسه في نظمه الشعر نفسه
وتحوير أوضاعه

- ٨ -

موشحة ابن المعتز^(١)

ولو لم يخترع الاندلسيون هذا النوع المسمى
بالموشحات ، لاخترعه الشرقيون ، فقد كان حتماً أن يؤدي
الفناء ومجاسه في الشرق ، الى نفس هذه النتيجة التي انتهى
اليها في الاندلس .

وفي موشحة ابن المعتز الرائعة التي سنسردها على
حضرانكم ، اكبر دليل على صحة ما نقول ، فقد انشأ ابن
المعتز تلك الموشحة الفذة ، في القرن الثالث الهجري - أي

(١) ابن المعتز

ولد سنة ٢٤٩ - وتوفي سنة ٢٩٦ هـ

اسمه عبد الله بن المعتز ولقبه أبو العباس ، تمزب له جماعة
من الاثراك وخلعوا المقتدر سنة ٢٩٦ وبايعوا ابن المعتز وهموه
المرتضى بالله ولكنه لم يلبث في الخلافة الا يوماً وليلة ، فقد تمزب
أصحاب المقتدر وتغلبوا على أعوان ابن المعتز وأعادوا المقتدر
الى دسته ، فاخفى ابن المعتز في دار بعض التجار ، فقبض عليه
وخنق من ليلته ودفن بحوزة بجوار داره .

في نفس القرن الذي اخترع فيه مقدم بن معافر الفريري
موشحاته في الانداس (١)

(١) كان مقدم بن معافر مخترع الموشحات في الانداس من شعراء
الامير عبد الله بن محمد ، أى كان معاصراً لابن المعتز ، وليس
لدينا الآن ما نرجح به أسبقية احدهما عن الآخر في اختراع هذا
الفن الجميل ، على أننا لا نستبعد أن تكون روح ذلك الصرافى
أوحت الى احدهما بهذه الفكرة ، هي نفسها التي أوحت للآخر بها
فقد كان الاهتداء في الموشحات أمراً طبيعياً ، ونتيجة
لازمة لما يقتضيه تطور الغناء ورقيه ، ويتطلبه الافتنان فيه من
زيادة الالحان وتنوعها ، وثم يزداد الشعور بنقص تلك البحر
المصطلح عليها ، عن سد هذا الفراغ الشديد ، فيندفع الناس الى
زيادة أوزان الشعر ولا يقفون به عند الحد الذى وقف
عنده أسلافهم .

ونحن نرجو أن يساعدنا الوقت على تحقيق هذه المهمة المهمة
وتحصيلها - رغم ندرة المصادر التي يرجع اليها في هذا الموضوع

ولعل أغرب ما نذكره بهذه المناسبة ، اغفال ورخي لآدب
جميعاً ، ذكر هذه الموشحة التي قلها بن المعتز ، كأن هذا الحدث
١٨ - نظرات

واليكم موشحة ابن المعتز :
أيها الساقى اليك المشتكى ! قد دعوناك وإن لم تسمع !

* * *

ونديم همت فى غرته
وبشرب الراح من راحته
كلما احتفظ من سكرته
جنب الناس اليه ، وانكى وسقانى أربما فى أربع

الجليل ، لدى ترك أوضح أثر فى البلاغة العربية ، أقل خطراً
من اهتمام ابن المعتز بالمحسنات البدعية .

ماذا ؟ بل من ذلك البيت السخيف ، الذى لم يفت مؤرخاً
منهم ، أن يستشهد به ، دليلاً على ابداع ابن المعتز ، ولو أنصفوا .
لعدوه من هنائه ، والبيت هو قوله :
وبد الهلال كرورق من فضة قد أثقلت حمله من عنبر !

* * *

وهو يكاد لنداء على صدر خفي كذب ليرمى أن يلاحظه العوز
وأنفة لم يمسح هذا البيت السخيف ، واكبار معناه التافه ،
لأنهم لم يعجزوا عن محبة شاعرهم ، بل يبه المتكلم ، تلقاً
منه رفة . . .

* *

ما اعینی عشیت بالنظر ؟
 أنسکرت بعدک ضوء القمر
 واذا ما شئت ، فاسمع خبری :
 غشیت عینای من طول البکا
 وبکی بعضی علی بعضی معی !

غممن بن مال من حیث التروی
 مات من یهواه من فرط الجوی
 خفق الاحشاء موهون القوى
 کله فکر فی البین بکی وبکا : بکی ما لم یقع !

~

ایس بی صبر . ولا فو حد
 یقهون عرو ورجوع
 انسکرز شکوای مما حد
 مثل حلی حقّه نیشته کی . کما نیس . رذن نسمع !

~

كبد حري، ودمع يكف
 يذرف الدمع ولا يندرف
 أيها المعرض عما أصف!
 قد نما حي بقلبي وزكا لا تقل في الحب إني مدعي^(١)

(١) وقد قلده ابن بقي في هذه الموشحة فقال :
 غلب الشوق بقلبي فاشتكى ألم الوجد فابت ادمعي

أيها الناس فؤادي شغف
 وهو من بني الهوي لا ينصف
 كم اداريه ودمعي يكف
 أيها الشادن من علمكا بسهام اللحظ قتل السبع

بدرتم تحت ليل أغطش
 طالع في غصن بان منتش
 أهيف الند بخمد ارقش
 ساحر الطرف وكم ذفتكا بقلوب الامد بين الاضلع:

— ٩ —

كيف كان الغناء

سببا في اختراع الموشحات

عرفنا أن الباعث الأول الذي دعا العرب الى قول

أى ريم رمته فاجتنبنا
وانتني يهتز من سكر الصبا
كقضب هزه ربح الصبا
قلت: هب لي يا حبيبي مسلكا واطرح أسباب هجري ودع

قال : خدى زهرة مذ فوفا
جردت عيناى سيفاً مرهفا
حذراً منه بان لا يقطفا
ان من رام جناء هلكا فازل عنك غلال الطمع

* * *

ذاب قابي في هوى ضبي غريب
وجهه في الدجن صبح مستنير
وفؤادى بين كفيه أسير
لم أجد للصبر عنه مسلكا فانتصاري بانسكاب الادمع
ولكن شتان بين الموشحاتين شتان !

الشعر هو الغناء وقلنا أنه اُهمِلَ بعد حين من الزمن مدة طويلة . ولكن لم يلبث العرب أن اختلطوا بالفرس حتى عاودهم الهيام بهذا الفن مرة أخرى، ثم شاع الغناء في الشعر ووصل تأثيره الى حد عظيم في اواخر الدولة الاموية، وما زال يزداد حتى وصل في العصر العباسي الذهبي الى أقصاه، وقد كان اكبر عامل على رقيه في الاندلس زرياب الموسيقي تلميذ اسحق الموصلي الذي كان امام المغنيين في الشرق . وقد وصل تأثير الغناء في الشرق أيضا الى حد عظيم . وكثيرا ما لجأ اليه الناس في اخرج الاوقات عند الخلفاء في الشرق ليأمنوا غضبهم فقد كانوا يلجئون الى القيان فينظمون المعنى ايغنيته للخليفة وهن بئامن من غضبه لاحتمائهن بسلطان الغناء . انظروا كيف أن اعداء الهرامكة لما اعميتهم الحيلة لجؤا الى التأثير على الرشيد بالغناء، فلقنوا احدي قياته هذين البيتين، وهما من كلام ابن أبي ربيعة.

ليت هندا أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة انما العاجز من لا يستبد
وأيس في هذين البيتين معنى كبير، ولاهما من خير

الشعر واروعه، بل هما عاديان جدا . ولم يكن تأثيرهما على
 الرشيد ليبلغ ذلك الحد، لولا الغناء وترجيع الاصوات مرارا،
 بحيث لا تنتهى القينة من غنائها، حتى يكون معناها قد
 تمكن من نفس الخليفة وأصبح مختلطا بلحمه ودمه لجلال
 الغناء ودقة تصويره وتجسيمه لأضال المعاني وأحقرها، كما
 يجسم المجهر أصغر الاشياء لعين الراي . وما انتهت القيمة
 من انعام غنائها حتى قل الرشيد لنفسه " نعم اني عاجز .
 اني عاجز "، وذكر سلطان البرامكة وقوة نفوذهم فكان
 ذلك سببا في القضاء عليهم



وما شاع فن الغناء في الاندلس وحاد الشعر الى طريقتيه
 الطبيعية الأولى مل نداء تكرار الانعام التي تفلوها عن
 أسلافهم فطاعوا الى ادخال بعض تحسينات على شعر
 وأوضاعه وزادت حاجتهم الى رفع شيء من هذه القيود
 التي رزى بها الشعر العربي . ولكن التقليد الذي أظهرنا
 لحفر انكم أثره الشديد في نفوسهم ونظرتهم الى العرب
 السابقين نظر التلميذ الى استاذه وقفا في وجوههم زمننا

طويلاً . ثم ماذا كان ؟ تغلبت طبيعة الرقى وسلطان الغناء
على تلك المرافيل ، فاندفعوا بجرأة وقوة في تحطيم الكبر قيد
كان له أشنع الأثر في تأخر الشعر العربي . نعمى به ذلك
النظام الخاص الذى اتبعه أسلافهم في طريقة النظم ، وهو
أن يتقيدوا بخمسة عشر بحراً فلا يجيدون عنها ولا يتخطونها
بحال ما ، وليس لهذا التطور العظيم من سبب سوى الغناء ؛

كانت الموشحات مما يتغنى به

وقد اذتاب حفصة الدكتور ضيف في أن الموشحات كانت مما يتغنى به ، وطلب اليها أن تأتي بمثل نستدل به على ذلك . وانا موردون هنا الحكاية التالية . مجتزئين بها عن سواها لضيق المقام ، قال ابن خلدون في مقدمته : « وكان في عصرهم ^(١) أيضا الحكيم أبو بكر بن باجة صاحب التلاحين المعروفة ^(٢) . ومن الحكايات المشهورة أنه حضر مجلس بخدومه ابن تيفلويت ، صاحب سرقسطة ، فلقى على قيانة موشحته :

جرر الذيل أيما جر وصل الشكر منك باشكر
فطرب الممدوح لذلك ، فلما ختمها بقوله :
عقد الله راية النصر لأمرير الملا بني بكر
قلوا : « وما طرق ذلك التلاحين سمع ابن تيفلويت ،
حتى صاح : « واطرباه » وشق ثيابه وقال : « ما أحسن ما بدأت

(١) يعني في عصر ابن بقي والبطلومي

(٢) انظر الى قوله صاحب التلاحين المعروفة

به وما ختمت وحاف الايمان المنظطة لايشي ابن باجة الى داره الا على الذهب^(١) نخاف الحكيم سوء العاقبة فاحتمال أن جعل ذهباً في نعله ومشى عليه^(٢) »

حسبنا هذا المثل لنستدل به على أن الغناء في الموشحات كان امرأه ألوفاً - وهو في نظرنا أمر يترفع عن الجدل والتشكك ، إذ نظرة واحدة بادنى تأمل الى نسق الموشحات وطريقة إنشائها ، كفيلة باقناعنا أنها لم تخاق الا لمتغني بها .

* * *

ولا بأس أن نختم هذه المحاضرة بكلمة جامعة شاملة لابن خلدون تمد بثانة المامة ، وجزرة بتاريخ الغناء وهي الكرامة التي وعدنا حضراتكم بها في أوائل هذه المحاضرة حتي يسهل علينا الخروج بصورة واضحة عن محتويات هذا الفصل

(١) المعنى تافه صحيح قد انهكه طول التكرار والشبوع فاسر في كل هذا الادجاب ، ايس لهذا من سبب سوى روعة الالخان وجمال التوقيع وحسن صوت المغني ، والا فانا نستبعد ان يصل عقل صاحب مرقطة من السخف الى حد ان يؤثر فيه هذا المعنى وأشباهه دون أن يكون لهذا سبب آخر ؛

(٢) مقدمة ابن خلدون

الغناء

قال ابن خلدون من فصل عقده على الغناء تقتطف لكم منه مايلي .
« هذه الصناعة (١) هي تلحين الاشعار الموزونة ، بتقطيع
الأصوات على نسب منتظمة معروفة ، يوقع على كل صوت منها
توقيعاً عند قطعه ، فيكون نغمة ، ثم تؤلف تلك النغم بعضها
الى بعض ، على نسبة متعارفة ، فيلذ سماعها لاجل ذلك التناسب
وما يحدث عنه من الكيفية في تلك الاصوت »
الى أن قال بعد كلام طويل :

« واذا قد ذكرنا معنى الغناء فاعلم أنه يحدث في العمران اذا
توفر وتجاوز حد الضروري الى الحاحي ثم الى الكمالي وتفننوا .
فتحدث هذه الصناعة ، لانه لا يستدعيها لا من فراغ من جميع
حاجاته الضرورية والاهمة من المعاش والمأزل وغيره ، فلا يحلها
الا انقارغون عن سائر احوالهم تفنناً في مذهب الهندوزت ،
وكان في سلطنة المجمع قبل ايلة منها بحر زاخر في امصارهم
ومدنههم ، وكان ملوكهم يتخذون ذلك ويولعون به ، حتى لقد
كان للملوك اهتمام بأهل هذه الصناعة ولهم مكان في دولتهم ،

(١) هي صناعة الغناء

وكانوا يحضرون مشاهدتهم وعجائهم ويننون فيها ، وهذا شأن
 للعجم لهذا العهد في كل افق من آفاقهم ومملكة من ممالكهم -
 وأما العرب فكان لهم أولا فن الشعر يؤلفون فيه الكلام اجزاء
 متساوية علي تناسب بينهما في عدة حروفها المنحركة والساكنة
 ويفصلون الكلام في تلك الاجزاء تفصيلا يكون كل جزء منها
 مستقلا بالافادة لا ينقطع الى الآخر ويسمونه البيت ، فتلائم
 الطبع بالتجزئة أولا ، ثم يتناسب الاجزاء في المقاطع والمبادئ ،
 ثم بتأدية المعنى المقصود وتطبيق الكلام عليها ، فلم يجوا به ،
 فامتاز من كلامهم بمحض من الشرف ليس لغيره ، لاجل اختصاصه
 بهذا التناسب ، وجملوه ديوانا لأخبارهم وحكمهم وشرفهم ،
 ومحكا لقرائتهم في اصابة المعاني واجادة الاساليب ، وامتروا
 على ذلك وعلى هذا التناسب الذي من أجل الاجزاء والمتحرك
 والساكن الحروف كما هو معروف في كتب الموسيقى ، الا انهم لم
 يشمروا بما سواه لانهم حينئذ لم ينتحلوا علما ولا عرفوا صناعة
 وكانت البداوة أغلب نحلهم ، ثم تفتى الحداة منهم في حداث ابلهم
 ولتفتيان في فضاء خلواتهم فرجموا الاصوات وترنموا ، وكانوا
 يسمون الترتم اذا كان بالشعر غناء ، واذا كان بالتهليل أو نوع
 القراءة تفييرا ، بالثنين المعجمة والباء الموحدة ، وظلها ابو اسحق
 الزجاج بأنها تذكر بالثني ، وهو الباقي ، أي بالاحوال الآخرة ،

وربما ناصبوا في غنائهم بين النغمات مناسبة بسيطة كما ذكر ابن
 رشيقي آخر كتاب العمدة وغيره ، وكانوا يسمونه السناد ، وكان
 أكثر ما يكون منهم في الخفيف منه ، الذي يرقص عليه ويشي
 بالدف والمزمار ، فتطرب ويستخف الحلو ، وكانوا يسمون هذا
 الهزج وهذا البسيط كله من التلاحين ، وهو من أوائها ولا يبعد
 أن تنفطن له الطباع من غير تعليم ، شأن البسائط كلها من الصنائع
 * * *

ولم يزل هذا شأن العرب في بداوتهم وجاهليتهم ، فلما جاء
 الاسلام واستولوا ، على ممالك الدنيا ، وحازوا سلطان المعجم
 وغلبوهم عليه ، وكانوا من البداوة والغضاضة على الحيات التي
 عرفت لهم ، مع غضاضة لدين وشدة في ترك أحوال الفريغ وما
 ليس بشافع في دين ولا معاش ، فهجروا ذلك شيئاً ما ،
 ولم يكن المذوذ عندهم إلا ترجيع القراءة ولاترثم بلشعر
 الذي هو دينهم ومذهبهم ، فمأجدهم اتف ، وغلب عليهم الرفه
 بما حصل لهم من غناء لأمم ، صاروا الى نضرة العيش ورقة
 الحاشية واستحلاء قمر غ

وافترق المغنون من الفرس والروم ، قوقعوا الى الحجاز .
 وصاروا موالى للعرب ، وغنوا جميعاً بالعبيد والصاير ،
 والمعازف والمزامير ، وسمع العرب تلحينهم للاصوات ؛ فلحنوا
 عليها أشعارهم ، وظهر بالمدينة نشيط القرمي ، وخويس وسائب

خازر ، مولى عبد الله بن جعفر ، فسمعوا شعر العرب ولحنوه ،
وأجادوا فيه وطار لهم ذكر
ثم أخذ عنهم معبد وطبقته ، وابن سريج وأنظاره ، وما
زالت صناعة الغناء تتدرج الى ان كملت أيام بنى العباسى ، عند
ابراهيم بن المهدي ، وابراهيم الموصلي ، وابنه اسحق وابنه حماد ،
وكان من ذلك في دولتهم ببغداد ، ما تبعه الحديث بعده به
وبجلسه لهذا العهد ، وأمعنوا في اللهو واللعب ، واتخذت
آلات الرقص في الملبس والقضبان والاشعار التي يترنم بها عليه ،
وجعل صنفا وحده ، واتخذت آلات أخرى للرقص تسمى بالكرد ،
وهي تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة بأطراف أقبية يلبسها
المنسوان ويحاكبن بها امتطء الخيل ، فيكرون ويفرون ويشافقون ،
وأما ذلك من اللعب الممدقولا ثم والامراس وأيام الاعياد
ومجلس التفرغ والتمهو



وكثر ذلك ببغداد ومصار العراق ، وانتشر منها الى غيرها
وكان الموصليين ببلادهم زرياب ، أخذ عنهم الغناء فأجاد ،
وبعدهم غيره ، فالحكم (بن هشام ابن

، وقد سمعته في طريق لذهاب اليه ،

عبد الرحمن الداخل أمير الاندلس ، فبالغ في تكريمته ، وركب
للقائه ، وأسنى له الجوائز والافطاعات والجريات (١) ، وأحله
من دولته وندمائه مكاناً ، فأورث الاندلس من صناعة الغناء
ما تناقلوه الى أزمان الطوائف ، وطما منها باشبيلية بحر زاخر ،
وتناقل منها بعد ذهاب غضايتها الى بلاد العدو بافريقية والمغرب ،
وانقسم على امصارها ، وبها الآن منها صباية ، على تراجع
عمرائها ، وتناقص دولها . اهـ »

الأزجال

« ولما شاع فن التوشيح في أهل الاندلس ^(١) ، وأخذ به الجمهور اسلاسته وتنميق كلامه وترصيع ابتدائه ، نسجت العامة من أهل الامصار على منواله ، ونظموا طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلزموا بها اعرابا ، واستحدثوه فأسموه بالزجل والتزموا النظم فيه على مناصبهم الى هذا العهد فجاءوا فيه بالغرائب ، واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة ، قالوا : وأول من أبدع هذه الطريقة الزجلية أبو بكر ابن قزمان ، وإن كانت قيات قبله في الاندلس ، لكن لم يظهر حلاها ، ولا انسبكت معانيها ، واشتهرت رشاقتها إلا في زمانه ، وكان العهد المثلثين ، وهو امام الزجاليين على الاطلاق »

قل ابن سعيّد : « ورأيت أزجاله مروية بيغداد أكثر مما رأيت ، بمواضر الغرب ^(٢) »

(١) ابن خلدون

(٢) نفس ابن قزمان بقرطبة ، وكان كثير التردد على اشبيلية

واليكم بضع أمثلة من أعلى نماذج الزجل :

(١)

قال قاسم ابن عبود الرياحي في ختام زجل له :
 ما أعجب حديثي إيش هذا الجنون ؟
 نطلب وندبر أمراً لا يكون ؟
 وكم ذاهون أمراً لا يهون ؟
 واش مقدار ما نصبر لبعده الحبيب ؟
 رب اجمعني معنو عاجلاً قريب .

وقد وصلت شهرته لي حد أن عدّه الناس في زجل كالمثني في الشعر ، وذاعت ازجاله حتى رويت ببغداد ، حيث تقيت نجاحاً أكبر من نجاحها بحوضر المغرب ، كما قال ابن سعيد .

ثم جاء عبدة المعروف بمدغليس ، بمد بن قزمان همد ؛ فكان خليفته بحق ، وقد زادت شهرته حتى عد في الزجل كأبي تمام في الشعر .

وانما شبه ابن قزمان بالمتنبي ومدغليس بـ أبي تمام لالتفات الاول الى المعنى والتفات الثاني الى النظم .

(٢)

وقال بعضهم :

يا حادى العيس ازجر بالمطايا زجر
وقف علي منزل احبابي قبيل الفجر
ومسيح في حبيهم : «يا من يريد الأجر !
ينفض بعلي على ميت قتيل الهجر ! »

(٣)

وقال آخر :

عيني التي كنت أداكم بها باتت
ترعى النجوم ، وبالتسميد اقتاتت
وأسمهم البين صابتي ولا فانت
وسلوئي - عظم الله أجركم - ماتت

(٤)

وقال رابع :

لى دهر بمشق جفونك وسنين
وأنت لاشفقة ولا قلب يلين

الى أن يقول في ختام زجله :
خلق الله النصارى للغزو^(١) وأنت تغزو قلوب العاشقين

(٥)

وبما اختاره ابن خلدون ، من زجل أهل مصر القاهرة ،
وأحسن في اختياره كل الاحسان ، قول بعضهم في ذلك العصر

هذى جراحى طريا والدما تنضح
وقاتلى يا أخينا فى الفلايمرح !
قالوا : « وناخذ بئارك » قلت : « ذا أبيع ! »

* * *

« وقد عم فن الزجل فى الاندلس ، حتى كان العامة
ينظمون فيه بطريقتهم العامية فى سائر البحور الخمسة
عشر^(٢) »

(١) وهذا المعنى يمثل لكم نفسية أهل هذا العصر ، وروحهم
المشتبعة بالغزو والجهاد . (٢) ابن خلدون

هشام الثاني^(١)

وحاجبه المنصور^(٢)

خلف الحكم الثاني^(٣) لولاية الحكم من بعده ، ولداً في الحادية عشرة من عمره ، وهو هشام الثاني^(٤) الذي انتقل اليه لقب الخلافة ، في حين كانت تدير دفة سياسة الحكومة امه صباح ، وحاجبه الشديد الطموح والأثرة ، محمد بن أبي عامر ، الذي كان ملك اسبانيا الحقيقي

(١) معربة عن كتاب الاستاذ نيكلسون .

(٢) اسمه محمد بن عبد الله بن أبي عامر ، وكنيته أبو عامر . ولم يتلق بهذا اللقب «المنصور» الا فيما بعد ، حين اسند له الامر ، وحصر السلطة في يده ، كما سيمر بك وأصله من المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ؛ من قرية من أعمالها تسمى طرش على نهر وادي آروا

(٣) مات الحكم الثاني اثر اصابة فلج ألزمته القراش والحث عليه حتى أودت به في سنة ٣٦٦ هـ

(٤) ولي هشام الملك في سنة ٣٦٦ ومات في سنة ٤٠٣ هـ .

ومما حدثنا في تلك الوسائل التي نهض بها الى مكاتبة
الرفيعة ، ومما قيل عن سوء معاملته لذلك الخليفة التمس
(هشام) الذي تعمد المنصور قتل مواهبه العقلية وقضي
عليه أن يعيش مبعداً عن الناس ، في عزلة كعزلة الرهاب ،
فان من المحال أن ننكر عليه أنه ساس البلاد بإحكام ونبل ،
وأنه كان سياسياً محنكاً ، كما كان جندياً عظيماً :

* *

واتقد لقب نفسه « بالمنصور » فلم يجروا أحد أن ينكر
عليه جنوده بهذا القاب ، أو يمدوا من فيل ولوع الكسالى
بالفخر الكاذب ، وحسبك دليلاً على أحقيته به ، أنه كان
يقود جيشه لغزو المسيحيين مرتين في كل عام ، وأنه عاد
ثلاثين مرة من غزواته ، فلهذا غزوه في كل عام ، وأنه عاد
التي أوبت على جنوديه :

ج

(.) ! حدثت ورخوناً غزوة نحو سبت وخمسة غزوة في حياته ،
لم تذكر في أخباره ، ولا في حياته .

ولما مات المنصور في سنة ١٠٠٢ م^(١) كتب راهب
مسيحي في سجل مذكراته الذي كان يقيد فيه الحوادث ،
الجملة التالية ، تعليقاً على خبر موته : « وقد دفن في الجحيم ! »
أما المسلمون ، فنتشوا على قبر بطلمم البيتين التاليين :
آثاره تنبيك عن أوصافه حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتي الزمان بمثله أبداً ، ولا يحصى الثغور وسواه
« . | . ه »

(١) سنة ٣٩٤ هـ . من سبع وعشرين سنة من ملكه .

كيف وصل المنصور الى الملك؟

— ١ —

وفوده الى قرطبة

وفد المنصور الى قرطبة شابا ، فوجه عنايته الى تحصيل العلم والآداب وحفظ الحديث ، فبرع في ذلك كله ، وتفوق على اقرانه

— ٢ —

تعلقه بالسيدة صبح^(١)

وتم اقامته دكانا عند باب القصر ، يكتب فيه لمن يعن له كتب من الخدم و لرافعين الى السلطان ، الى أن طابت السيدة صبح ، من يكتب عنها ، فمرفها به من كان يأنس اليه بطبوس من فتية القصر ، فترقى الى أن كتب عنها ، فاستحسنته^(٢) .

(١) هي أم الخليفة هشام بن عبد الملك وقد مر ذكرها في ص (٢٩٢)

(٢) بن سعيد

تدرجهم في المناصب

و فنبهت عليه الحكيم ، ورغبت في تشريفه بالخدمة ،
فولاه قضاء بعض المواضع ، فظهرت منه نجابة ، فترقى الى
الرياسة والمواريث بأشبيلية
وتكن في قلب السيدة بما استمالها به من التحف
واخذته ، ما لم يتمكن غيره ^(١) ،
وما زال يرتفع شأنه ، وينبه ذكره ، حتى نقله الحكيم
من خطة القضاء الى وزارته

طريقه الى الوزارة

وابتدأ بخدمته الخدم ، حتى تولى حاكمه الثاني ،
فترقى الى رتبة الوزارة ، فظهرت منه نجابة ،
فترقى الى رتبة الوزارة ، فظهرت منه نجابة ،
فترقى الى رتبة الوزارة ، فظهرت منه نجابة ،

الحال ، واستقرار الملك لابنها ^(١) وأمدته بالمال الكثير ،
الذى استمال به الجند اليه

- ٥ -

استبداد السلطان

« ثم ساء له أمل في التغلب على هشام ^(٢) لمكانه في
السن ، وثاب له رأى في الاستبداد ، فسكر بأهل الدولة ،
وتغلب على هشام وحجره . ^(٣) واستولى على لدولة وه الأ
الذي وعو في « انه ، مع تضيق خلافة . ، خضوع له ،
ورد الامور اليها » ^(٤) وترديد الغزو والحد ، فنه انت له

« مصور غير خفي » حاكم مدينه فمصر .
في نفس ايامه في « مدينه » « مدينه » « مدينه »
« مدينه » « مدينه » « مدينه » « مدينه »
غير مدينه « مدينه »

(١) بن مدينه

(٢) حتى « مدينه » « مدينه » « مدينه » « مدينه »
« مدينه » « مدينه » « مدينه » « مدينه »

« مدينه » « مدينه » « مدينه » « مدينه » « مدينه »

أقطار الأندلس كلها ، ولم يضطرب عليه شيء

أثر المنصور في الأندلس

— ١ —

حق العصبية

أظهر المنصور من ضروب الحزامة والدرية ما دانت له به
أقطار الأندلس كلها ، فلم يضطرب عليه شيء منها في أيام
حياته ، لدهائه وحسن سياسته ، وقوة شخصيته
واعمل أكبر عمل قام به في توطيد الأمر بالأندلس ،
هو استئصاله تلك العصبية الممقوتة التي كانت ضاربة
أطرافها في الأندلس ^(١)

عليهم وحطهم عن مراتبهم ، وقتل بمصاً يبعث ، كل ذلك عن
أمر هشام وخطه وترقيعه ، حتى استأصلهم وفرق جوعهم ،
« ولما خلا الجو من أولياء الخلافة والمرشحين للرياسة ، رجع
إلى جندة تستدعي أهل العدة من رجال زفاته والبرابرة ،
فرتب منهم جنداً ، واصطنع أولياء »
(١) « وكان عرب الأندلس يعترفون بألقبائهم والشائير

بناء مدينة الزاهرة

ولا يسعنا أن ننقل الإشارة إلى تلك المدينة العظيمة
« الزاهرة »، التي بناها لنفسه، وتقل إليها خزائن الأموال
والأسلحة (١)

والبطون والأفخاذ، إلى أن قطع ذلك المصنور بن أبي عامر
الداهية، الذي ملك سلطنة الأندلس. وقصد بذلك تهيتهم،
وقطع التزامهم وتعصبهم في الاعتداء.
وقدم القواد على الأجناد، فيكون في جند القائد الواحد
فرق من كل قبيل.

فتمسكت عادة الفتن والاعتزاء بالأندلس، إلا ما جاءت على
غير هذه أم. « امقرى

(١) وقد حدث لمؤرخون أنه قدم على سر روث وأمر
أن يجي بتحية مؤن، وتسمي منذ ذلك الحين بالحب منصور،
وفذت الكتب ونحطبات والأوامر باسمه، وأمر بالدعاء له في
المابر باسمه عقب الدعاء للخليفة الذي حرم من كل سلعة و
يق له من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء على المبر، فقد استثر
المنصور دونه بكل شيء حتى كتب اسمه في للسكة والطرر.

ولعه بالغزو

واقعد بالغ به حبه الشديد للغزو، حداً قل أن نرى له مثيلاً
في سواه، فقد بالغ عدد غزواته ستاً وخمسين غزوة، كما
قدمنا ^(١) فنزع منه نصارى الأندلس، واشتد بهم الرعب
حتى 'قبوه بمطربة الغضب الإلهي كما رواه دوزي في الفصل
الذي عرّبناه لخصراتكم في محاضرة سابقة ^(٢)

وفي الحكمة الثانية التي نقلها عن كتاب المصنف
ما نريدكم قنءاً بذئك ، قال .

وفتح فتوحا كثيرة ، ووصل الى معان قد كانت
منتهت عنى من كان قبله ، وملك الانعام غنائم وسبيها من
الاشيريين وارضهم وارضهم . وبنى على الناس
التي فيها يحوزوا به بناتهم من الشباب راخبر و لدر ،
نات برخصه . فكنى له من يرغبون في
الزواج ، ثم ذكر ، روي ذلك لم يزوج

ج ۱۳ - ونی و : آخری ۵۲ خزروہ

أحد حرة !، قال : ” بلغنى أنه نودى على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة ، وكانت ذات جمال رائع ، فلم تساراً أكثر من عشرين ديناراً عامرية ،

مثال من صرامته

قالوا : ” وقد انتهت هيبة المنصور بن ابي عامر ، وضبطه للجند ، الى غاية لم يبلغها ملك قبله ، فكانت موافقهم في الميدان على احتفاله ، مثلاً في الاطراق ، حتى إن الخيل لتتمثل اطراق فرسانها فلا تكثر الصهيل والجمحة ،



” ولقد وقعت عينه على بارقة سيف قد سله بعض الجند بأقصى الميدان - لهزل أو جد ، بحيث ظن أن خنط المنصور لا يناله - فقال : ” علي بشاهر السيف ، فثقل بين يديه لوقته ، فقال : ” ما حملك على أن شهرت سيفك في مكان لا يشهر فيه الا عن اذن ؟ ”

فقال : ” انى أشرت به علي صاحبي منعدا ، فدق

من غمده !،

فقال : « ان مثل هذا لا يسوغ بالدعوى ! » ، وأمر به
فخضرت عنقه بسيفه ، وطيف برأسه ، ونودي عليه بذنبه

مثال من فطنته

قدم بعض التجار ومعه كيس فيه يافوت نفيس ،
فوجد دليسا في النهر ، وترك الكيس - وكان احمر - إلى
تيابه ، فرغمته حداثة في مخاليلها ، فخرى تابعا لها وقد ذهل ،
فتغلغل في البساتين ، وانقطعت عن عينه ، فرجع متحيراً
فشكا ذلك الى بعض من يأنس به ، فقال له : « وصف
حالك لابن أبي عامر » ،

فناطف في وصف ذلك بين يديه ، فقال : « ننظر
إن شاء الله في شأنك » ، وجعل يستدعي أصحاب تلك البساتين
ويسأل خدامها عن ظهر عليه تبديل حاله ، فأخبروه أن
شخصاً ينقل الزبل ، اشترى حمرا ، وظهر من حاله ما لم
يكن قبل ذلك .

فأمر بجيئته . فلما وقعت عينه عليه قال له : « أحضر
"كيس الأحمر" فتملك الرعب قلبه وارتعش ، وقال :

” دعني آت به من منزلي “،

فوكل به من حملة الى منزله وجاء بالسكيس وقد نقص
منه ما لا يقدح في مسرة صاحبه ، فخبّره ودفعه الى صاحبه
فقال : ” والله لا حدثن في مشارق الارض ومغاربها
أن ابن أبي عامر يحكم على الطيور ؛ وينصف منها “،
والنفث ابن أبي عامر الى الزبال وقال له : ” لو أتيت
به أغنيته “، لكن تخرج كفا فلا عقابا ولا ثوابا ^(١) “،

نفاذ بصيرته

” وكان من عادته ، اذا أراد أمرا مها ، شاور أرباب
الدولة ‘الاكابر ، من خدام الدولة الاموية ، فيشيرون
عليه بالوجه الذي عرفوه ، وجرت الدولة الاموية عليه ،
فيخالفهم الى المنهج الذي ابتدعه ، فيقضون في نفسه
بالهلاك في الطريق الذي سلكه ، وانهم الى اختراعه ،
فتسفر العاقبة عن السلامة التامة ، التي اقتضاها سعيه .
فيكثررون التعجب من موارد امرره ومصادرها ^(٢) “

(١) ابن سميذ (٢) نفح الطيب

شعوره بجده

ولعل أهم ما يسترعى نظر الباحثين ، من مزايا المنصور شعوره بجده ، فقد صحبه هذا الشعور من عهد حداثة ، وكان له في رفعته أكبر أثر ، فشجعه على مواجهة الشدائد ، وتذليل العقبات التي اعترضته في سبيل نهوضه وكان المنصور كان يحس في نفسه احساسا خفيا ، بسعود جده ونباهة شأنه في مستقبل أمره ، وكأنه كان يشعر تماما أن الزمان لا شك محالفه ، وأن الظروف بلا ريب ستعينه على بلوغ اربته ، فكان له من ذلك الشعور الخفى قوة هائلة سحقت امامها كل اعتبارا

* *

وليس أدل على ذلك من الحكايات الثلاث التالية ، التي تمثله اولاهها وثانيتها ، وهو في بدء حياته ، يحلم بالسيطرة والحكم ، أبعد ما يكون عن الوصول اليهما ، ولكنه يراهما - رغم ذلك - قاب قوسين منه أوادنى ، ويشعر تماما أنهما في متناول يده بعد قليل ، وتشتد به الثقة الى حد أن

يحدث بعض أصدقائه بما يقع له في ذلك ، بل إلى حد
أن يفكر في تعيين من يصلح للمناصب ، وهو ناشئ
يطلب العلم

* *

ونراه في الحكاية الثالثة - وهو في أيام رفته بعد أن
حافه الجد وتم له الأمر - واثقا من دوام محافة الزمان له ،
مطمئنا إلى جده ، ساخرا بكل شؤم بصادفه ، ليقينه من
تقلب سعادته على كل عقبة تعترضه

— ١ —

واليك الحكاية الأولى :

حكى أبو عبد الله بن اسحق التميمي ، قل :

« كان محمد بن أبي عامر نزلا عندي في حجرة فوق
يمنى ، فدخلت عليه في بعض الليالي في آخر الليل ، فوجدته
قاعدا على الخيل التي تركته عليها أول ما كان حين فضاء
عنه ، فقلت له : « ما أراك نمت الليلة ؟ » ، قل : « لا ؟ » ،
قلت : « فما أسهرك ؟ » ، قل : « فكرة عجيبة ! » ، قلت :

« فَمَاذَا كُنْتَ تَفَكَّرُ ؟ » ، قَالَ : « فِكْرْتُ إِذَا أَفْضَى إِلَيَّ الْأَمْرَ وَمَاتَ مُحَمَّدُ بْنُ بَشِيرٍ الْقَاضِي ، بِمَنْ أُسْتَبَدَّلُهُ ، وَمَنْ الَّذِي يَقُومُ مَقَامَهُ ، فَجَلْتُ الْإِتْدَلْسَ كُلَّهَا بِخَاطِرِي ، فَلَمْ أَجِدْ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا » ، قَالَتْ : « لَعَلَّهُ مُحَمَّدُ بْنُ السَّلِيمِ ؟ » ، قَالَ : « هُوَ وَاللَّهِ هُوَ ! لَشَدَّ مَا اتَّفَقَ خَاطِرِي وَخَاطِرُكَ ^(١) » ،

- ٢ -

وَالْبَيْكُ الْحَكَايَةُ الثَّانِيَّةُ

كَانَ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ ^(٢) يَوْمًا جَالِسًا مَعَ ثَلَاثَةِ مِنْ أَصْحَابِهِ مِنْ طَلِبَةِ الْعِلْمِ ، فَقَالَ لَهُمْ : « لِيَخْتَرِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ خُطَّةَ أَوَّلِيهِ إِيَّاهَا إِذَا أَفْضَى إِلَيَّ الْأَمْرَ » ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ : « تَوَلِّينِي قَضَاءَ كُورَةِ رِيَّةٍ - وَهِيَ مَالِقَةُ وَأَعْمَالُهَا - فَإِنَّهُ يَعْجِبُنِي هَذَا الْبَيْتُ الَّذِي يَجِيءُ مِنْهَا » ، وَقَالَ الْآخَرُ : « تَوَلِّينِي حِسْبَةَ السُّوقِ » ، فَتَنَّى أَحَبُّ هَذَا الْإِسْفَنْجِ « ، وَقَالَ الثَّالثُ : « إِذَا أَفْضَى إِلَيْكَ الْأَمْرَ ، فَأَمْرُ أَنْ يَطَافَ بِي فَرَطْبَةُ كُلِّهَا عَلَى سَمَارٍ وَوَجْهِي إِلَى النَّائِبِ وَأَنَا مَطْلِي بِأَعْسَلٍ ، لِيَجْتَمَعَ عَلَيَّ الذَّبَابُ وَالنَّحْلُ ^(٣) » ،

(١) الْمَعْجَبُ (٢) الْمَعْجَبُ

(٣) « وَافْتَرَقُوا عَلَى هَذَا ، فَلَمَّا أَفْضَى الْأَمْرُ إِلَيْهِ كَمَا تَنَى » ،

واليكم الحكاية الثالثة^(١)

قيل له مرة : " ان فلانا مشغوم ، فلا تستخدمه ! " ،
فقال : " اف لسعد لا يغطى على شؤمه ^(٢) " ،

مثال من تأملاته

وكان كثير التأمل ، شديد الخوف على هذا الملك
العظيم الذى بذل قصارى وسعه فى تثبيت دعائه ، أن
تذهب به عواصف الفتن بعده ، وكأنه كان على ثقة أن
سيل الفوضى اجارف - الذى وقف أمامه سدا منيعا ،
فانقذ البلاد من طغيانه ، بحكمته وشدته أيده ، سوف لا بد
يغمرها دمة واحدة ، بعد ممته بقليل ، ومن أمثلة هذه
التأملات التى كانت تشغل رأسه أحيد - م يروي - ضرب
فى الفضة النائية :

بلغ كل واحد منهم منيته على نحو ما يجب .

(١) نصح الطيب (٢) قلوبنا لا تستخدمه ، مرة من شؤمه
لدى حرت به .

كان المنصور في قصره بلزاهره ، فتأمل محاسنه ،
ونظر الى مياهه المطردة ، وانصت لاطياريه المغردة ، وملاً
عينه من الذي حواه من حسن وجمال ، والتفت في الزاهرة
من اليمين الى الشمال ، فأنحدرت دموعه ، وتجهم ، وقال :
« وبها لك يا زاهرة ! فليت شعري من الخائن الذي
يكون خرابك على يديه عن قريب ؟ »

فقال له بعض خاصته : « ما هذا الكلام الذي ما سمعناه
من مولانا قط ؟ وما هذا الفكر الرديء الذي لا يليق بمثله
شغل البال به ؟ »

فقال : « والله لترون ما قلت ، وكأني بمحاسن الزاهرة
قد محيت ، ورسومها قد غيرت ، وبما فيها قد هدمت ونحيت
وبخزائنها قد نهبت ، وبساحاتها قد اضرمت بنار الفتنة
وألهمت (١) »

(١) ولقد صحت نبوءته ، وحقت الايام صدق حدوسه ،
قال الحاكبي . « فلم يكن الا أن توفي المنصور ، وتولى المظفر - ولم
تطل مدته - فقام بالامر أخوه عبدالرحمن الملقب « بسنجول »
فقم عليه المهدي والعامه ، وكانت منهم عليه وعلى قومه الطامة -

أثر البلاغة في نفسه

وكان المنصور ككل عربي ، تهزه البلاغة ، ويملك نفسه الجواب الحاضر ، وربما كان ادل مثل نسوقه على ذلك ، الحكاية التالية :

— ١ —

« كان بقرطبة على عهد المنصور ، فني من أهل الادب قد رقت حاله في الطلب ، فتعلق بكتاب العمل ، واختلف الى الخزانة حتي قلد بعض الأعمال ، فاستهلك كثيرا من المال ، فلما ضم الى الحساب ، ابرز عليه ثلاثة آلاف دينار فرقع خبره الى المنصور ، فأمر بإحضاره ، فلما مثل بين يديه ، ولزم الافرار بما يبرز عليه ، قل له :

« يا فاسق ما الذي جرأك على ما السلطان تنهيه ؟ »
فقال : « قضاء غاب الرأي ، وفقر أفسد الامانة ! »

وانقرضت دولة بني طاهر ، ولم يبق منهم أمر :
كان لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ، ولم يسمر بمكة سمر
بلى ! نحن كنا اهلها ، فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر

فقال المنصور : « والله لا جعلناك نكالا لغيرك ، ليحضر
كبل وحداد »

فاحضرا ، فكبل الفتى ، وقال : « أحملوه الى السجن ،
وأمر الضابط بامتناعه والشدة عليه ، فلما قام أنشأ يقول :
أواه ! أواه ! وكم ذا أرى أكثر من تذكار أواه
ما لأمري حول ولا قوة الحول والقوة لله !
فقال المنصور « رده ! » فلما رده ، قال « أنتم لتأم
قلت ؟ »

قال : « بل قلت » فقال : « حلوا عنه كبله » فلما حل
عنه ، أنشأ يقول :

أما ترى عفو أبي عامر لا بد أن تتبعه منة
كذلك الله إذا ما عفا عن عبده أدخله الجنة
فأمر بإطلاقه ، وسوغ ذلك المال ، وأبرأه من التبعة فيه (١)

مثال من بلاغته

نموذج من نثره

المنصور والرمادى

وننتهز هذه المناسبة ، لنعرض على حضراتكم مثلاً من
نثره ، تبيينون منه القمة التى وصلت اليها بلاغته ، ونمسك
القلم عن التعاليق عليه رغبة فى توخى الایجاز الذى يضطرنا
اليه ضيق الوقت ، واليكم يساق الحديث :
قال المنصور للرمادى الشاعر المشهور :
« كيف ترى حالك معي ؟ »

فقال : « فوق قدرى ودون قدرك ! »

فأطرق المنصور كالغضبان ، فأنسل الرمادى ، وخرج
وقد ندم على ما بدر منه ، وجعل يقول : « أخطأت والله ،
ما يفاح مع الملوك من يعاملهم بالحق ، ما كان ضرئى لو قلت
له : « انى بلغت السماء ، وتمطقت بأجوزاء ، وأنشدته :

متى يأت هذا الموت لم يلف حاجة

لنفسى الا قد قضيت قضاه

لا حول ولا قوة الا بالله !»

ولما خرج كان في المجلس من يحسده على مكانه من المنصور ، فوجد فرصة ، فقال : « وصل الله لمولانا الظفر والسعد ، إن هذا الصنف صنف زور وهذيان ، لا يشكرون نعمة ، ولا يراعون إلا ولا ذمة ، كلاب من غلب ، وأصحاب من أخصب ، وأعداء من أجذب ، وحسبك منهم ان الله جل جلاله يقول فيهم : « والشمراء يتبعهم الفاوون » الى آخر الآية ، فالابتعاد منهم اولى من الاقتراب ، وقد قيل فيهم : ما ظنك بقوم ، المصدق يستحسن الا منهم ؟ »



فرفع المنصور رأسه ، وقد اسود وجهه وظهر فيه الغضب المفرض ، ثم قال :

ما بال قوم يشيرون في شيء لم يستشاروا فيه ، ويسبثون الأدب بالحكم فيما لا يدرون أيرضي أم يسخط ؟ وأنت أيها المنبعث للشر دون أن يبعث ! قد علمنا غرضك في أهل الأدب والشمر عامة ، وحسدك لهم ، لأن الناس كما قرأ القرآن :

من رأى الناس له فضلا عليهم حسدوه
وعرفنا غرضك في هذا الرجل خاصة ، ولسنا ان
شاء الله نبلغ احدا غرضه في أحد ، ولو بلغناكم بلغنا في
جانبيكم ، وانك ضربت في حديد بارد ، وأخطأت وجه
الصواب ، فزدت بذلك احتقارا وصغارا ، واني ما اطرقت
من خطاب الرمادي انكارا عليه ، بل رأيت كلاما يحل
عن الأقدار الجليلة ، وتمجبت من تهديده بسرعة ، واستنباطه
له على قلبه من الاحسان الغامر ، ما لا يستنبطه غيره
بالكثير !

والله لو حكمته في بيوت الاموال ، لرأيت أنها
لا ترجع ما تكلم به قلبه ذرة

❖ ❖

واياكم أن يعود احد منكم الى الكلام في شخص قبل
أن يؤخذ معه فيه ، ولا تحكموا علينا في أوليئنا ، ولو ابصرتم
منا التغير عليهم ، فانا لا نتغير عليهم بغضا لهم ، ونحرف
عنهم ، بل تأديبا وانكرا !
فانا من نريد ابعاده ، لم نظهر له التغير ، بل ننبذ

مرة واحدة ، فان التغير انما يكون لمن يراد استبقاؤه ،
ولو كنت مائل السمع لكل احد منكم في صاحبه ، لتفرقتم
أيدي سبا وجوبت أنا مجانية الاجرب

واني - وقد اطلعتكم على ما في ضميري ، فلا تعدلوا
عن مرضاتي ، فتجنبوا - خطي بما جنيتموه على انفسكم »

* * *

قالوا : ثم أمر أن يرد الرمادي ، وقال له : « أعد على
كلامك ! » فارتاع فقال : « الامر على خلاف ما قدرت ،
الثواب اولى بكلامك من العقاب » فسكن لتأنيسه وأعاد
ما تكلم به ، فقال المنصور : « بلغنا أن النعمان ابن المنذر
حشي فم النابغة بالدر ، - كلام استحسنه منه ، وقد امرنا
لك بما لا يقصر عن ذلك ، ما هو أنوه واحسن عائدة ،
وكتب له بمال وخلم وموضع يتعيش منه

* * *

ثم رد رأسه الى المتكلم في شأن الرمادي ، وقد كاد
يفوص في الارض - لو وجد - لشدة ما حل به ، عما سمع
ورأى ، قل : « والعجب من قوم يقولون : « الابداع من

الشعراء اولي من الاقتراب « نعم ! ذلك لمن ليس له مفاخر
يريد تخليدها ، ولا أيادي برغب في نشرها ، فأين الذين
قيل فيهم :

على مكثريهم رزق من يمتريهم

وعند المقلين الساحة والبذل

وأين الذي قيل فيه :

انما الدنيا أبو دلف بين مبداه ومختصره

فاذا ولى أبو دلف ولت الدنيا على أثره

أما كان في الجاهلية والاسلام أكرم ممن قيل فيه

هذا القول ؟ بلى ! ولكن صحبة الشعراء والاحسان لهم

أحييت فابر ذكركم ، وخصتهم بمفاخر عصرهم ، وغيرهم

تخلد الامداح مآثرهم ، فدثر ذكركم ، ودرس نكرم^(١) ،

مثالان من شعرة

أما شعره ، الذى عثرنا به ، فلا يتجاوز بضع أبيات قال
بعضها مفتخرا بمصاميته ، وبعد مرقى همته ، وقال بعضها
الآخر فى إظهار طموح نفسه الى ملك مصر والحجاز

- ١ -

أما أولها فقوله :

رمىت بنفسى هول كل عزيمة
وخاطرت ، والحر الكريم بخاطر
وما صاحبي الا جناف مشيع
وأسمر خطى ، وأبيض باتر (١)
فسدت بنفسى أهل كل سيادة
وفاخرت ، حتى لم أجد من أفاخر

(١) لعل خير من أبدع فى هذا المعنى ، هو عمرو بن سراقه
الهمداني ، فى ميميته المتأججة بنار الحماس ، حين يقول :
متى تصعب القلب الذكى ، وصارما
وأتما حيا ، نجتنبك المظالم !

وثانيهما قوله :

منع العين أن تذوق النما
حبها أن ترى الصفا والمقام
لى ديون بالشرق ، عند أناس
قد أحلوا بالمشرعين الحراما
ان قضوها نالوا الأمان ، وإلا
جعلوا دونها رقبا وهاما
عن قريب ترى خيول هشام^(١)
يبلغ النيل خطوها والشاما

(١) يعنى جيش هشام الثاني ، الخليفة الصوري

فماذج

من مجالس الأدب ومجالس اللهو في الاندلس

في زمن المنصور

« وكان للمنصور مجلس في كل »

« أسبوع يجتمع فيه أهل العلم »

« للمناظرة بحضرته ، ما كان »

« مقبلاً بقرطبة المعجب »

املأ صدق مرآة يستجلى بها الانسان صورة عصر
من المنصور ، هي تلك المجلس ، وما قد يدور فيها من الحوار
والملاح ، ففيها يرى الانسان بنفسه عادات القوم واخلاصهم ،
ومن ثدياها يلمح وجهة تمكبرهم وطريقة محادثتهم ، ويشاهد
الناحية التي تنبج اليها عقولهم ، والنقط الرئيسية التي يدور
عليها محور مناقشتهم وجدلهم ، ورب عبارة واحدة ، يفوه
بها حشد دون تخرج ، وعلى غير عمد ، تدلنا على قالمية الوسط
في ذلك العصر . وبقوره لمبدأ اجتماعي هام ، غفل المؤرخون

عن ذكره ، أو أهملوا الإشارة اليه



ولنذكر أن الأدب هو أصدق مرآة للنفوس ، وأن
عمر طيبة كانت تحوى فى ذلك الزمن صفوة أدباء الأندلس ،
وأن الملوك والأمراء كانوا لفرط عنايتهم بالأدب يضمون
الى مجالسهم ، خير ما تحويه هذه الصفوة الراقية من أساطين
الأدباء والعلماء الذين أنجبهم ذلك العصر الزاهر ، والذين كانوا
قدوة جمهور الأدباء فى ذلك العصر ، وكانت مجالسهم المعين
الذى تستقى منه الحركات العلمية والأدبية والأخلاقية ،
ومنى أقررنا ذلك أدركنا خطر هذه المجالس ، وأهمية
المناقشات التى كانت تدور فيها .



ونحن نسرده على حضراتكم بضع نماذج لتلك المجالس ،
محاوئين جهودنا ، أن نرسم صورة دسعة ، من الصور
المشرقة بالحياة التى نشهد فى ذلك العصر الزاهى الذى
اعتزت به الأندلس . واعتز به الأدب العربى
بجزء فى هذه الأندلس . بأمثلة ثلاثة منها ،

بمسكين عن التعليق عليها - كما امسكنا عن التعليق على
غيرها من قبل ، رغبة في تحرى الاجاز الشديد
على ان مجال القول ذو سعة ، ونحن فلو شئنا ان نطلق
لانفسنا العنان في مناقشة كل ما نأتى به وتحليله ، لطلال بنا
القول وضاق الوقت عن ايفاء موضوع واحد من المواضيع
الكثيرة التي أخذنا أنفسنا بالكلام عنها ، فلنكتف بهذه
الملاحة الآن :

- ١ -

مجلس ادب

كيف امتحنوا صاعدا

جلس المنصور يوما ^(١) وعنده أعيان مملكته
ودولته من أهل العلم كالزبيدي والعامري وابن العريف وغيرهم
فقال لهم المنصور : « هذا الرجل الوافد علينا ^(٢) يزعم

(١) نفح الطيب (٢) يعنى ابا الملاء صاعدا وسيمر بك

ترجمته بعد قليل

أنه متقدم في هذه العلوم ، وأحب أن يتحن ، فوجه إليه ،
فلما مثل بين يديه ، والمجلس قد احتفل ، خجل ، ورفع المنصور
محلّه ، وأقبل عليه وسأله عن ابن سعيد السيرافي ، فزعم
أنه لقيه وقرأ عليه كتاب سيمويه

فبادره المصمى بالسؤال عن مسألة من الكتب ،
فلم يحضره جوابها ، واعتذر بأن النحول ليس جل بضاعته
فقال له الزبيدي : « فأتحسن أيتها الشيخ ؟ »

فقال : « حفظ الغريب ، قل : « فما وزن اواق ؟ »
فضحك صاعد وقل : « أمثلي يسأل عن هذا ، إنما
يسأل عنه صبيان المكتب ! »

قال الزهري : « قد سألتك ، ولا نشك أنك تجهله »
فتغير لونه وقال : « أفعلى وزنه »

فقال الزبيدي : « صاحبكم ممخرق ! »

وقال له صاعد : « يا شيخ بضاعته الأبنية : » فقال
له : « أجل » فقال صاعد : « وبضاعتي أنا حفظ الاشهر ، »

ورواية الاخبار ، وفك المعمي ، وعلم الموسيقى !
 قالوا : « فناظره ابن العريف ^(١) فظهر عليه صاعد
 وجعل لا يجرى في المجلس كلمة ، إلا أنشد شعرا شاهدا ،
 وأنى بحكاية تجانسها »

— ٢ —

محاسن آخر

بداهة صاعد ^(٢)

كان صاعد بين يدي المنصور ، فاحضرت اليه

(١) سيمر بك بعد قليل شيء من مناقضات ابن العريف مع
 صاعد ، تبين منه المنافسة الشديدة التي كانت بينهما ، والحق
 الذي كان يضمه كل منهما للآخر

(٢) ترجمة صاعد

اسمه صاعد بن الحسن الربيعي ، وكنيته أبو العلاء ، وأصله
 من الموصل ، وقد تعلم في بغداد ، واستمر بها حتى تبحر في اللغة
 والأدب ، ثم ورد على المنصور ابن أبي عامر سنة ٣٨٠ ، في أيام
 منته ، فإراد المنصور أن يعفي به آثار أبي علي القالي ، فلم يجد

وردة في غير وقتها لم يستتم فتح ورقها ، فقال فيها صاعد مرتجلا :

حده ما يرتقبه ، وأعرض عنه أهل العلم ، وقدحوا في علمه وعقله ودينه ، ولم يأخذوا عنه شيئا ، لقلة الثقة به .

وقد ذكر ابن بسام أن الاندلسيين دحضوا كتابه «الفصوص» للذى ألفه المنصور - ونحابه منحي كتاب النوادر للقالى - وأنهم نبذوه في النهر ، وذكر المراكشى صاحب كتاب المعجب والمقري وغيرها ، هذه الحكاية بروايات أخرى ، أشهرها أنه دفع الكتاب للغلام بعد تمامه ، فعبر فزلت قدم الغلام به - وهو يمر نهر قرطبة - فسقط هو والكتاب في النهر .

قالوا : ففرح ابن العريف بذلك وقال مرتجلا بحضرة المنصور :

قد غاص في البحر كتاب الفصوص

وهكذا كل ثقل يغوص :

فضحك المنصور والحضرون ، ولكن ذلك لم يبرح منه عدو .

فقال :

عاد الى معدنه انما توجد في قعر البحار الفصوص

وكان السبب في تأليفه هذا الكتاب : أن منصور رآه كتاب النوادر للقالى ، فأكده صاعداً أن في قدرته أن يؤلف

أنتك أبا عامر وردة يذكرك المسك أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر فغطت بأكمامها رأسها

كتابا خيرا منه ، وقال له : « ان أراد المنصور أمليت على كتاب دولته كتابا أرفع منه وأحل ، لا أورد فيه خبرا مما أورده أبو علي ! » فلما أذن له المنصور بذلك جلس بجامع « الزاهرة » على كتابه « الفصوص » حتى اكمله
قالوا : فتبعه أداء ذلك الوقت فلم تمر فيه كلمة صحيحة عندهم ، ولا خبر ثبت لديهم !

ولقد أحسن ابن بسام كل الاحساذ ، وتوخى شرعة الانصاف والعدالة ، في تعليقه على هذا الخبر ، حين قال : « ما أظن أحدا يجترئ على مثل هذا ! وإنما صاعد اشترط أن لا يأتي الا بالخبر غير المشهور ، وأعانهم على نفسه . بما كان يتقف به من الكذب ! »

وقد صدق ابن بسام ، فان اندفاع صاعد في الاجابة على كل سؤال ، من غير تدبر ولا اعمال روية ، قد كلفه ثمنا غالبا جدا ، هو عدم تحري الصدق في قوله وروايته ، وثم قلت ثقة لا داعين ، وعرفوا عن علمه

فسر بذلك المنصور ، وكان ابن العريف حاضرا ، فحسده
وجرى الى مناقضته ، وقل للمنصور : هذان البيتان لغيره

وكيف يثق الاندلسيون بكلام رجل هو أسرع الناس بديهه
في ادعاء الباطل ، يكذب لافل مناسبة حتى لا يرمى بالقصور أو
غلة الاطلاع ،

أمتة من اكاذيبه

(١)

في اكاذيبه العديدة ، ما أجاب به المنصور حين سأله يوما
عن الحبش ، فقال له : « هوحشية بمقدبها ان ابن بادية الاعراب ،
وفي ذلك يقول شاعرهم :

لقد عقدت محبتها بقنبي كما عقد الحليب بحنبلشار ! »
وقد شتهر هذا البيت حتى أصبح مثلاً يقتدر به كثير
الأدباء ، كما عنت لهم مناسبة تذكرهم به :

(٢)

وقدم له منصور يوما طبق فيه تمر . وسأله عن تمر كل في
كلام العرب . فاجبه بغير احتراش : « يقل تمر كل نرجل تمر كلا
اذا التف وكهه ! »

وقد أنشدنيها بعض البغداديين بمصر لنفسه ، وهما عندي
على ظهر كتاب بخطه ، فقال له المنصور : « أرنيه » فخرج

(٣)

وأثوا اليه مرة بكراريس بيضاء ، جموها في مجلد ، وأرأوا
جدها حتى تروم القدم ، وترجم عليه : « كتاب المکت تأليف
أبي علي الفوت الصنماني »

فترأى اليه صاعدا حين رآه وجعل يقبله ويقول : « أي والله
قرأته بالبلد العلافى على الشيخ أبي فلان »
فأخذه المنصور من يده خوفا أن يفتحه ، وقال له : « ان
كنت قد قرأته كما تزعم فعلام يحتوي ؟ »

فقال : « وأبيك ! لقد بعد عهدي به ولا أحفظ إلا ذممه
شيئا ، ولكنه يحتوي على لغة منشوره ، لا يشوها شعر ولا خبر
فقال له المنصور : « أبعد الله مثلك ! فما رأيت أ كذب منك »
وأمر بأخراجه !

وقد هج صاعد كثيرا من معاصريه وهجوه ، ولعل أقطع
ما قيل فيه من الهجاء ، قول بعضهم :
اقبل هدبت أبا العلاء نصيحتي بقولها ، وبواجب الشكر
لا تهجوؤن من منكم ، فربما تهجوؤنك وأنت لا تدري !

ابن العريف، وركب وحرك دابته حتى أتى مجلس ابن
برد، وكان أحسن أهل زمانه بديهة، فوصف له ما جرى،
فقال هذه الآيات ودس فيها بيتي صاعد :

عشوت الى قصر عباسية وقد جدل النوم حراسها
فألقيتها - وهي في خدرها وقد صرع السكر أناسها -
فقات «أسار على هجمة؟» فقات «بلي!» فرمت كاسها
ومدت يديها الى وردة يحاكي لك الطيب انفاسها
كدراء ابصرها بعر فنطت بأكلها راسها
وقات خف الله لا تفضحن في ابنة عمك عباسها
فوايت عنها على غفلة وماخذت ناسي، ولا ناسها
فطار ابن العريف بها - وعاقها على ظهر كتب بخط

معري، ومداد أشقر، ودخل بها على المنصور

فلما رآها اشتد غيظه، وقل للحاضرين :

«غدا امتحنه، فإن فضحه، لا امتحان اخر جته من بلاد

ولم يبق في موضع لي عليه سلطان !»

فلما أصبح، وجه إليه، فحضر، واحضر معه جميع

الندماء، فدخل بهم الى مجلس محفل. قد أعد فيه ضبة، عظيم

فيه سقائف مصنوعة من جميع النواوير، وضع على السقائف
لعب من ياسمين في شكل الجوارى، وتحت السقائف بركة
ماء قد القى فيها اللائىء مثل الحصباء، وفي البركة حية تسبح
فلما دخل صاعد ورأى الطبق، قل له المنصور:
« ان هذا اليوم، اما أن تسعد فيه معنا واما أن نشقى
بالضد عندنا، لأنه قد زعم قومه أن كل ما نأثى به دعوى
وقد وفقت من ذلك على حقيقة، وهذا طبق، ما توهمت
أنه عمل لملك مثله، فان وصفته بجميع ما فيه، علمت صحة
ما تذكره »

فقل صاعد بديهة :

أبا عمر ! هل خير جدواك واكف ؟
وهل غير من عدك في الارض خائف ؟
يسوق اليك الدهر كل غريسة
وعجب ما يلهو عندك واصف
وشائع نور. صاغها همم احيا
على حافتها عبقر ورفرف



ولما تنهى الحسن فيها ، تقابلت
عليها بأنواع الملامى الوصائف
كمثل الأطباء المستكنة كنسا
تظللها بالياسمين السقائف
وأعجب منها أنهم نواظر
الى بركة ضمت اليها الطرائف
حصاها الآلى ، ساج في عياها
من لرقش مشنوم الثعابين زاحف
ترى ما تراه الحسن فى جنباتها
من الوحش ، حتى يبينهن السلاحف

قالوا : « فاستغربت له يومئذ تلك البديهة ، فى مش
ذلك الموضع ، وكتبها المنصور بخطه »
وكان الى ناحية من تلك السفوف سفينة فيها جرية
من النور تجذب بجم ذيف من ذهب لم يره صاعد ، فف
له منصور : « حسنت ! لانت اغفات ذكر سركب
واجارية ، فقال لوقت ،

وأعجب منها غادة في سفينة
 مكالة تصبو اليها المهاف
 اذا راعها موج من الماء تنقى .
 بسكانها، ما إن ذرته العواصف
 متى كانت الحسناء ربان مركب
 تصرف في يني يديها المجاذف
 ولم تر عيني في البلاد حديقة
 تنقلها في الراحتين الوصائف
 ولا غروان ساقط معاليك روضة
 وشتها ازاخير الربى والزخارف
 فأنت امرؤ، لورمت نعل متالم
 ورضوى، زوتها من سطاك نواصف
 اذارمت قولاً، أو طلبت بديهة
 فمكلى له، إني لمجدك واصف
 قلوا : فامرؤ المنصور بألف دينار ومائة ثوب،
 ورتب له في كل شهر ثلاثين ديناراً (١)

مجلس ثالث

مناقشة صاعد مع ابن العريف في حضرة المنصور

ونلتهم هذه المناسبة فنفتار من الامثلة الكثيرة التي
 ثابت حضور ذهنه وقوة عارضته ، حكايته مع ابن العريف
 بحضرة المنصور ، وقد رواها ابن سعيد وخلاصتها أن ابن
 العريف دخل يوما على المنصور ، وعنده صاعد ، فأنشده -
 وهو بالموضع المعروف بالعارية - من أبيات :

فله امرية تزعمى على جميع البني

وأنت فيها كسيف قد حل في غمدان

فأظهر صاعد المنصور أن في استطاعته أن يرتجز

خيرًا من هذا الشعر الذي اعده ابن العريف وروى فيه .

فطلب منه المنصور أن يفعل ، ليظهر صدق دعوه ، فتد
 من غير فكرة طويلة :

يا أيها الخاجب المني نلى عى كيور

ومن به قد تناهى نزار كل يمانى
 العامرية أضحت كجنة الرضوان
 فريدة لفريد ما بين أهل الزمان
 ثم مر فى الشعر الى أن قال فى ختام الايات :
 قدم مدى الدهر فيها فى غبطة وأمان
 فأعجب المنصور ببدايته وقال لابن العريف : « مالك
 فائدة فى مناقضة من هذا ارتجائه ، فكيف تكون رويته ؟ »
 فأجابه ابن العريف : « انما انطقه وقرب عليه المأخذ
 احسانك ! »

فقال له ساعد : « يفهم من هذا أن قلة احسانه اليك
 أسكتتك وبعدت عليك المأخذ ! »
 فضحك المنصور وقال : « غير هذه المنازعة اليق
 بأدبكم ! »

نموذج من مجالس اللهو

مجلس انس ورقص

« كان صاعد اللغوى كثيرا ما يمدح بلاد العراق بمجلس
النصور ويصفها ويقرظها ، فكتب الوزير عبد الملك ابن
شهيد ^(١) الى النصور في يوم برد ، بهذه الايات :

أما ترى برد يومنا هذا صيرنا للكمون افذاذا ؛
قد فطرت صحة الكبود به حتى لكادت تعود أفلاذا ؛
قادع بنا للشمول مصطليا نفذ سيرا اليك اغذاذا
وادمع المسمى بها ، وصاحبه تدع نبيلاً ، وتدع استاذا
ولا نبالى أبا العلاء ^(٢) زها بخمر قطربل وكلواذا
مادام في أرملاط مشربنا دع دير عمى ، وطيرنا باذا
وكان النصور قد عزم ذلك اليوم على الانفراد باخره

(١) عبد الملك ابن شهيد هو والد الوزير أبى عامر حمد ابن
شهيد ، وابنه هذا هو الشاعر المشهور الذي تقدم ذكره وصرّف
من أخباره في ص (٢١٤)
(٢) يعنى أبا العلاء صاعداً وقدم ذكره وترجمته في ص (٣٢٢)

فأمر باحضار من جرى رسمه من الوزراء والندماء ، واحضر
ابن شهيد في محفة ، لنقرس كان يعتاده ، وأخذوا في شأنهم ،
فرلهم يوم لم يشهدوا مثله ، ووقت لم يمهّدوا نظيره
وطما الطرب ، وسماهم حتى تهايج القوم ورقصوا ، وجعلوا
يرقصون بالنوبة ، حتى انتهى الدور الى ابن شهيد ، فأقامه
الوزير ابو عبد الله بن عباس ، فجعل يرقص ، وهو متوك
عليه ، ويرتجل ، وبوي الى المنصور ، وقد غلبه السكر :

هك شيخا قاده السكر لكا قام في رقصته مستهلا
لم يطق يرقصها مستتبنا فاثني يرقصها مستمسكا
عانه عن هزها منفردا نقرس ، اخني عليه ، فانكي
من وزير فيهم رقاصه قام للسكر ينأى ملكا ؛
أنا لو كنت كما تعرفني قت اجلا لا على رأسى لكا
قپقه الابريق منى ضاحكا ورأى دعة رجلی فبکی
قلوا : « وكان حاضرهم ذلك اليوم ، رجل بغدادی
حسن النادرة سريما ^(١) فلما رأى ابن شهيد يرقص قائما

(١) وكان يدرف بالمكيك ، وكان ابن شهيد استحضره
الى المنصور ،

من ألم المرض الذي كان يمنعه من الحركة ، قال : « الله درك
يا وزير ! ترقص بالقائمة وتصلي بالقاعدة ؟ »
فضحك المنصور وأمر لابن شهيد بمال جزيل ولسائر
الجماعة وللبنغدادى (١) »

خط انشيكاتي في البلاغة الأندلسية

١

البلاغة العربية في الاندلس^(١)

— ١ —

ملوك الطوائف

لقد قيل بحق إن وجه الشبه كبير جداً بين تاريخ
اسبانيا في القرن الحادى عشر وتاريخ إيطاليا في القرن الخامس
عشر - فلقد تفرقت امبراطورية عبد الرحمن الثالث العظيمة
وظهر على انقاضها عدة ممالك صغيرة انشأتها الظروف
والمصادفات ، وكان يحكمها بعض القادة المظفرين

(١) معرفة عن كتاب الاستاذ نيكلسون

(Condottieri) وكان من بينهم ملوك العبادية الذين
قطنوا أشبيلية وم ، أقوى ملوك ذلك العصر وقد اطلق
عليهم كتاب الماسمين اسم « ملوك الطوائف »
وعلى الرغم من أن ذلك العصر كان عصر تدهور سياسي
وعلى الرغم من أن اسبانيا كانت تشكو عجز مواردها
الاقتصادية - فقد وصل المجتمع في تلك الأيام الى مستوى
لم يصل الى مثله من قبل ، وهنا يجدر بنا أن نقف لحظة
علما نستطيع أن نستعرض فيها أمامنا الشوط البعيد المدى
الذى قطمته الآداب والمعلوم في طريق النجاح في ذلك
العصر الذى يعد أزهى عصور الاحتلال الاسلامى في اوروبا

— ٢ —

أُرائق بنديب العربى فى نفوس الاسبانيين
فبينما ترى العرب الفاتحين فى سبى - كما بينا ذلك - قد
سجرتهم حضارة قديمة تفوق حضارتهم بما لا نهاية -
فأذعنوا لها وظهر أثرها فيهم - اذ تراهم لم يكادوا يعبرون
مضيق جبل طارق فى الغرب حتى انعكست الآية تماما -

وذلك أنهم - بعد أن تغلبوا على شبه الجزيرة - وقع في أيديهم آلاف المسيحيين من كل جهة فتحوها. فعاث أولئك المسيحيون في كنف المسلمين . وأحسنّت الحكومة معاملتهم ومنحتهم الحرية الدينية، وكثيرا ما رفعتهم الى مناصب عالية في الجيش وفي بلاط الملك . فاعتنق كثير منهم الحضارة الاسلامية وافتن بها افتنانا، حتى رأينا « الفارو » كاهن قرطبة في اواسط القرن التاسع الميلاد يولول في اوائل ذلك العصر شا كيا من ابناء دينه انكبابهم على مطالعة أشعار العرب واساطيرهم وهيامهم بدراسة كتابات لاهوتيي المسلمين وفلاسفتهم - لا بمصدق فنيدها - بل رغبة في التعبير عن خواجهم بأسلوب عربي رشيق وصحيح -

شكوى الفارو

وكان الفارو يتسأل قائلا : « أنى يتاح للإنسان في هذه الأيام ان يقابل واحداً من ابناء جنسنا يقرأ التفاسير الترتيبية نكتب المقدسة ؟ ومن ذا الذى يدرس منهم فصول الا، جيل رسير الايديه والحواريين ؟ واحسرتاه ؟ ان كل «شبه أنى» مسيحيين ذوي المواهب ، لا يعرفون إلا

العربية وإلا كتابات العرب ، فهم يقرءونها ويدرسونها بحماس بالغ منتهاه - كما انهم ينفقون المبالغ الطائلة من النقود لاقتنائها في مكاتبهم . وتراهم - أني وجدوا - يذيعون ان تلك الاداب جديرة بالاعجاب ، فاذا تجاوزت عن ذلك وأخذت تحدثهم عن الكتب المسيحية ازور جانبهم ، وأجأوك باحتقار - « منها اسفار لا تستحق الذكر : » واحسرتنا عليهم ! لقد نسي المسيحيون لغتهم ، حتى ليندر العثور - بين آلاف منا - على فرد يستطيع ان يحرر الى أحد أصدقائه رسالة لاتينية بأسلوب لا بأس به - على حين ترى العدد الجم قادراً على الأمانة عما في نفسه بأسلوب عربي خلاب ، وعلى حين ترى حذقه في قرض الشعر العربي قد وصل الى حد يفوق معه لعرب أنفسهم ، « اهـ

ومهما يكن في كلام هذا الكاهن من المغالاة فما يترفع عن الجدل والنشكك ، أن التهذيب الاسلامي قد أخذ بأبواب المسيحيين الاسبان . كما افتتن به اليهود الذين خدموا الشعر والفلسفة بمساعداتهم العديدة وكتاباتهم التي انشئوها بلغتهم وبلغه ابنه عمه « العرب »

أما المولدون والصائبون من الاسبانيين الذين اعتنقوا
الدين الاسلامي فقد استعربوا تماما بعد أجيال قليلة -
ومن هؤلاء نبغ أشهر من ازدان بهم الادب العربي

— ٣ —

شعر العرب الاسبانيين

وقد كان للشعر العربي في أدوبا على وجه الاجمال
نفس الخصائص التي رأيناها في الشعر المعاصر له في الشرق
فان الاوزان المصطلح عليها والقيود التي لم يستطع أساطين
بغداد وحلب أن يحرروا أنفسهم من ربقها ظلت بحذافيرها
في قرطبة وأشبيلية

وكما تأثر الشعر العربي في الشرق بالاداب الفارسية
فقد تأثر في اسبانيا كذلك باتحاد الآريين والساميين
واندماجهم شيئا فشيئا - فكان ذلك سببا في ادخال عناصر
جديدة ظهرت في آدابهما

ولعل امتع ميزات الشعر الاسباني هي ذلك الوجدان
العاطفي الرقيق الذي يندر وجود مثله في النسيب ، والذي
ظهر كثيرا في اغانيهم عن الحب ، وهو وجدان لا يقتصر

على تصوير فروسية القرون الوسطى ، بل يتخطى ذلك الى حد أن تحسبه احساساً جديداً بحاسن الطبيعة التي جملته ؛ ولهذه الميزة سهل فيه ذلك الشعر على الكثيرين من الآريين الذين قد لا يسهل عليهم تفهم روح المعلقات وقصائد المتنبي

وقد كان يكون من الممتع - لولا ضيق المقام - أن نترجم هنا بضع قصائد وصفية فاته مما جمعه المتخبون ، على أن اغفل ذلك لا يحزنه كثيراً فقد نقل اليه شيخ عدة مجاميع من أبدع مترجمات في كتابه المسمى : شعر العرب وفنونه في سبانيا وصقلية : *p eise und kunst der arabes in spanien. v. S. . .*

وقد روى في شروبي عن مدينة شب (Sh) ؛ برفق أن من إحدى عجائبها تمت الحقيقة التي قرأ أفراد لا يحصون وهي قونه . وكان من مدنها مثل شب ، فإن ترى من أهلها من لا يقول شعراً ولا يعنى الأدب . ولو مرت بفلاح خلف فدانه وسأته عن شعر قرض من ساعته ، فترحت عليه وثى معنى طلبته منه ^(١) .

الاغاني الدارجة

وكان من بين تلك الاغاني الدارجة فنا الرجل^(١) والموشحات^(٢) وهما ضربان محبوبان ، وكلاهما مبتدع في اسبانيا ، ووضعها معروف وانشاؤها متجانس . ويتركب أغلب هذه الاغاني والاصناف الدارجة ، من العامية الرقيقة غير المفيدة بقواعد اللغة^(٣)

وأول من رفع الرجل الى مرتبة الادب هو ابن قزمان ، في سنة ١١٦٠ ميلادية .

ومما نقل اليها من مخلفات الامويين بالاندلس ، نرى أن شغفهم بالشعر والموسيقى والبلاغة الراقية ، قد زاد حتى عن حبهم القرآن^(٤)

(١) 'رجع الى ص (٢٨٨)

(٢) 'رجع الى ص (٢٣٣)

(٣) 'رجع الى ص (٢٨٨)

(٤) 'رجع الى ص (٤٠)

٢

عناية الأيدى بين الخلفاء

— ١ —

ألى أي حد بلغت !

✽ ✽

قُل الوزير أبو بكر ابن وزير بني مروان عبد الملك :
 « بينما أنا قائم في دهليز دارنا وعندى رجل ناسخ مرتبه
 ان يكتب في كتاب دعاني فجاءه ناسخ نكر ليس في
 كتبتها فقلت له : « أين الأصل » فكتبته منه لاقبل معي
 به ؟ » قُل : « ما أتيت به معي » فبينما أنا معنى ذلك قد دخل
 الدهليز عايناه رجل بذ طيئة ، عليه ثياب غليظة أكثرها
 صوف وعلى رأسه عمامة قد لاشها من ذيراقه نطأ ، فحسبته
 لما رأيته من بعض سكان أهل بادية ، فسلم وقعد ، وقُل :
 « يا بني ! استاذن لي على الوزير بني مروان » فقلت له هوناً ،

هذا بعد ان تكلمت جوابه غاية التكلف - حملنى على ذلك نزوة الصبي، وما رأيت من خشونة هيئة الرجل، ثم سكنت عنى ساعة وقال « ما هذا الكتاب الذى بأيديكما ؟ » فقلت له : « ما سؤالك عنه ؟ » قال : « أحب ان أعرف اسمه فانى كنت اعرف أسماء الكتب » فقلت : « هو كتاب الاعانى فقال انى أين بلغ الكتاب منه قلت « بلغ موضع كذا » وجمعت التحدث معه على طريق السخرية به والضحك على قايه، فقال : وما كتابك لا يكتب ؟ قلت : طلبت منه الاصل الذى يكتب منه لا عارض هذه الاوراق . فقال لم أجد به معنى . فقال : بنى خذ كراريسك وعارص . قلت : بماذا ؟ وثن الاصل ؟ قال : كنت أحفظ هذا الكتاب فى مدة صباهى فبسمت من قرئته فصار رأى تبسمنى قال : يا بنى امسك على . فأمسكت عليه وجعل يقرأ . فوالله إن أخطأ و'و' ولا و' . هكذا نحو كرارين . ثم خدمت له فى وسط أسفرو آخره فرأيت حفته فى ذلك كاه سواء . فاشتد عجبى، وثبت سرعا حتى دخلت على بنى فخبرتة الخبر ووصفت له الرجل . فقام كاه هو من فوره لا يرفق على نفسه

وأنا بين يديه، وهو يوسعي لوما حتى ترامي على الرجل وعاتقه، وجعل يقبل رأسه ويديه ويقول: «يا مولاي! أعذرني، فوالله ما أعلمني هذا أخلف إلا الساعة» وجعل يسبني والرجل يخفض عليه ويقول: ما عرفني. وأني يقول: هبسه ما عرفك فما عذره في حسن الادب؛ ثم أدخله الدارواكرم مجلسه وخلابه، فتحدث طويلا. ثم خرج الرجل وبني بين يديه حافية حتى بلغ الباب وتمر بدانته التي يركبها وسرحت وحبب عليه يركبها ثم لا ترجع إليه أبدا. فما انفصل قلت لأبي: من هذا الرجل لنذي عظمته هذا التعظيم؟ فقال لي: اسكت؛ ويحك! هذا أديب الاندلس وسيدها في علم الادب. هذا أبو محمد عبد المجيد بن عبدون. أيسر محذوذه كتاب الاغانى، وما حفظه في ذكر مدخره وجودة قريحته (١)،

✽

أتينا بهذه الحكاية لطوية ممتعة. الحافة بكثير من عادات العرب وكيفية تقديرهم لادب ولادباء. أتبين منها ما يلي:

أولاً - عناية الوزراء وأرباب السلطان بالأدب ورجاله،
ووضعهم إياهم في المكان الأول من الاجلال والرفعة، وقد
اطنبت الحكاية في وصف ذلك

ثانياً - اهتمام الانداسيين الشديد بنقل كتب الشرق
ونسختها لتعم فائدتها واتقد يزيدكم اقتناعاً بهذا الرأي
ما سمعتموه في حينه عن الحكم الذي وعنايته الفاتحة الحدود
باقتناء الكتب النفيسة وجلبها من اقصى بلاد الشرق حتى
لقد بادر بشراء كتاب الاغانى قبل ان ينشر في الشرق نفسه^(١)
ثالثاً - شغف الانداسيين بالاكتناز من المحفوظات
الى حد يصعب تصديقه على من لم يدرس العرب دراسة
جيدة، فن من لا يعرف المنزلة العالية التي وصلت اليها
الملكوت العرب في "شرق"^(٢) لا يستطيع تصديق هذه
الحكاية وأمثالها مما يروونه عن عرب الاندلس^(٣)
رابعاً - كذا يكفي لاعتبار الانسان أدبياً أن يكون

(١) ارجع الى ص (٢٢٨ و ٢٢٧)

(٢) سيمر بك شيء من ذلك في (ص ٣٤٧ - ٣٤٩)

(٣) سيمر بك حرف من ذلك في (ص ٣٥٠)

ذا محفوظ كبير . كما كان يكفى المقارنة بين أدبيين أن يعرف
أيهما أكثر محفوظاً من صاحبه . وهو عندى بالاريد
الأجدر بالفضل والاجلال . كذلك كانوا يفعلون وكذلك
كان يفعل العرب الشرقيون من قبلهم^(١)

(١) وحديثك دليلاً على صحة ذلك ما تملأت به كتب
الادب من الحكايات المدهشة التي استشهدوا بها على تفوق العرب
فى الحفظ . والى احدى عدة مثله هي قليل جداً من كثير جداً
من أشبهها :

(١)

روى الأصمعى أن فتياً نازحاً الى أبي ضمضم بعد العشاء
فقال لهم : « ما جاء بكم يا خثع ؟ » قالوا : « حشنة نتحدث »
قال كذبتكم ! بن قلم : كبر الشيخ وتبدلت (حشنة) نسوة
عسى أن تأخذ عليه سقطه »

فأشدهم لمائة شعره معهم عمرو . قال لأصمعى : قد كنت
وخلف لأحمر فلم تقدر على أكثر من « خير ! »
وقد صدق ابن قتيبة على هذا الخبر قوله : « هذا ما حفظه
أبو ضمضم ، ولم يكن بأروى نسوة »

وهكذا كان يشجعهم ملو كهـم واولو الامر فيهم على

(٢)

واستدل مؤرخو الآداب على سعة حفظ الخوارزمي وغزارة
مادته ، بحكايته مع الصاحب ابن عباد حين قصده وهو بأرجان ،
فلما وصل الى بابه ، قال لأحد حجابيه : « قل للصاحب على الباب
أحد الأدباء ، وهو يستأذن في الدخول » فدخل الحاجب وأخبره
أن الصاحب لا يقبل الا من يحفظ نحو ستة عشر ألف قصيدة ،
فقال له الخوارزمي : ارجع اليه وقل له : « هذا القدر من شعر
الرجال أم من شعر النساء ؟ »

قالوا : فدخل الحاجب ، فأعاد عليه ما سمع ، فقال الصاحب
« هذا يكون أباً بكر الخوارزمي ! » وأذن له في الدخول فدخل
عليه فعرفه وانبسط له !

(٣)

ولنجتزئء بالقطعة التالية التي نقتطفها من فصل ممتع كتبه
الأديب البستاني في مقدمة الإلياذة عن الحفاظ ، قال :
« وأما مبلغ الذاكرة عندهم (العرب) فما لا ينوقه شيء في
أخبار اليونان والرومان والافرنج ، وفي أخبارهم ما لو حذف
منه شيء كثير ، لربا باقيه على روایات اليونان قديمهم وحديثهم »
الى أن قل :

الإكثار من الحفظ حتى وصلوا في هذه الطريق إلى حد
 « فما بالك لو سمعت ما ذكروا عن غرائب حافظة حماد الراوية
 اذ امتحنه الوليد بن يزيد ، و وكل به من يسمع انشاده ، فأشدد
 تباعاً الفين وتسعمائة قصيدة من شعر الجاهلية ، أو لو قيل لك .
 « ان الاصمعي كان يحفظ ستة عشر ألف أرجوزة كاملة ، ما خلا
 القصائد والمقاطيع ، وأخبار العرب ، بدوهم وحضرهم »
 وهذا قول - مهما أنس فيه من المبالغة - لا يخلو من صحة
 بعضها كاف لا ثبات ما توخيناه »

ولم يقل البستاني ان لذة كرة عند العرب مما لا يفوقه شيء
 في اخبار اليونان والرومان والافرنج ، الا بعد أن أتى لك بوضع
 أمثلة صادقة تقين من خلالها تفوق تلك الامم في الحفظ - ومن
 تلك الامثلة التي استشهد بها ما نقله من رأى الكسندر شذكو
 الذي ورد في ص (٥٥٩) من الجزء الثالث عشر من مجلة العالمين
 Revue des deux Mondes وهو قوله :

« ان حفاظ العجم يتلون لك من شعر شعرائهم ما لا تصدق
 أن ذاكرة تعبها لكثرة ، فقد يظل المذند يتغنى بأشعار الشهنامة
 (وهي الباذة للفرس) نهراً كاملاً » وما أدراك كم بيتاً يقل في نهار
 الى أن يقول :

« وقد ذكر كتاب لافرنج كثيرين ممن عنوا بحفظ كتاب
 أو منظومة ، فما لبثوا أن أدركوا بفيتهم كما كولى (Macaulay)
 الذي أنشد نصف منظومة ملتن الانكليزية في الفردوس للأخبار » هـ

يدعو للحيرة والدهشة (١)

(١) فقد أكثر ملوك الاندلس من اقتراح حفظ كتب
بمعينها ، وخصوصاً من يفعل ذلك بجوائز مالية ، فاشتد اقبال الناس
على تنفيذ رغباتهم طمعاً في ذلك ، وثم وصل حفاظ الاندلس الى
درجة لا تقل عما وصل اليه حفاظ المشرق

حدث المراكشي صاحب كتاب المعجب ، مخبراً عن أستاذه
أبي جعفر احمد بن يحيى الحميرى المتوفى سنة ٦١٠ ، وكان قد حضر
عليه بقرطبة في سنة ٦٠٦ هـ . فقال :

« كان أبو جعفر آخر من انتهى اليه علم الآداب بالاندلس ،
لزمته نحراً من سنتين ، فرأيت أروى لشعر قديم ولا حديث
ولا أذكر بحكاية تتعق بأدب أو مثل سائر أو بيت نادر أو
سجعة مستعمدة منه ، أدرك جلة مشايخ الاندلس ، فأخذ عنهم
علم الحديث والقرآن والآداب ، وأعاهه على ذلك طول عمره
وصدق محبته ، وانفراط شفقه بالمعلم

قل لي ولده حمام ، وقد رأيت عنده نسخة من شعر أبي
الطيب قرئت لي أو أكثرها ، ولميتها شديدة الصحة ؛ فقلت
لقد كتبتم من شعر صحيح ، ونحزرت في قتلها ، فقال : « ما يمكن

ابن عبدون والأصمعي

على أننا لو رجعنا الى أنفسنا قليلا ، وذكرنا الاجلال
والخفاة اللذين لقيهما الأصمعي مثلا من الملوك ، لادررنا
أن فكرة الاكثار من المحفوظ ، ليست غريبة في الاندلس
فقد كانت بنفسها في المشرق^(١)

وبعد ، فمن هو الاصمعي ؟

أليس هو آدب أديب في المشرق : فاذا لم تشأ أن تعد

أن يكون أصل أصح من الأصل لدى كتبت منه » فقلت : « ابن
هو » فقال لي : « عن يمينك » فعدت أنه يريد الشيخ ، فقلت :
« م ع ي م ي لا لأستاذ ! » فقال لي : « هو أصلي ، رأيت له
كتبت ، كان يمي من حفظه » فجعلت أتعجب ، فسمع الأستاذ
حديثا ، فالتفت اليه وقال : فيم اتما ؟ فآخبره ولده بالخبر ، فلما
رأى تعجبي ، قال : « بعيد أن تعلموا ! يعجب احدكم من حفظ
ديوان المتنبي ؟ والله لقد ذكرت اقوالا لا يمدرك من حفظ كتاب
صغيره حافظا ، ولا يرويه مجتهدا . »

() (ارجع لي ص ٣٤٧ - ٣٤٩)

مسرفاً، قلت هو من أساطين ادباء الشرق ! ثم ما هي ميزته على سواء ؟ وما هي الموهبة النادرة التي أحلته ذلك المسكن الأول بين اساطين الادب ورجال الافذاذ ؟ أهى آراؤه القيمة وانتقاداته الثمينة ؟ أم هي انه كان ذا مذهب خاص في الأدب كمذهب عبد القادر الجرجاني أو مذهب تين أو غيرهما ؟ أم هي أنه تفرد بين رجال البلاغة بمقريية جبارة كانت سبباً في نقل الشعر من مكانه وتقدم البلاغة العربية خطوات واسعة ، وتطور الافكار من حالة الى حالة ؟

اللهم لم يكن واحداً من هؤلاء ، ولم تكن شهرته العظيمة لسبب من هذه الاسباب ، فان تاريخ الرجل ينبئنا أنه لم يكن ذا رأى خاص في الأدب العربي ولا في سواء ، ولكنه كان رجلاً يمتاز عن غيره بأن من أيسر محفوظاته كذا من آلاف القصائد والاراجيز ، تلك هي أهم مواهبه فاذا طلبت من تاريخه أكثر من ذلك لم تعد بطائل ، فلقد قرأ كل أحاديثه واخباره فلا تجد فيها ما يشعرك حتى بأنه مفكر غير عادى !!

كذلك كان ابن عبدون صمورة مصغرة للأصمعي ، فاذا

كنا أخطأنا في تقديره وكان هو أكبر من ذلك ، فهو صورة تامة للأصمى ، فاذا زادت رقبته فهو صورة مكبرة له ، وهو بعد كل هذا رجل راوية ، ملا حافظته بكلام طويل لم يفكر في انتقاد غته من سمينه (١)

— ٣ —

أثر الحفظ في الشعر العربي

وانا انساأل أنفسنا الآن ، وحق لنا ذلك : أنذا شغلت احفظه بمثل هذا السفر الكبير الذى بلغ عدد أجزائه واحد وعشرين مجلدا من أكبر المجلدات - يبقى ثمت شيء يذكر المفكرة والخيلة وغيرهما ؟ ثم ماذا يبقى بعد من شخصية الشاعر التى اندمجت كل الادماج فى أروح من سبته (٢) ... لا شيء لا شيء !

(٢) بحضور هذه المناقشة قول الاستاذ الامام محمد عبده ، حين بلغه ان اديبا مستظهر غنا - الصحاح ، فاجاب : « حسنا جداً . لقد زادت عندنا دجة تحري من نسخ هذا الكتاب ! » (١) ولا بأس ان غاب من سبقوه قد كانوا كذابين متعدي بهجت ، لان ملكيتهم تكونت من مخاضات !

٢٣ - نظرت



اذن فليس بعجيب أن يعجز ذلك الشاعر عن ابتكار
شيء جديد أو انتحاء طريق خاصة في التفكير، فإن تكوينه
لا يساعده على ذلك، وإذا كنا نعتقد أن الانسان قد يقرأ
كتاباً من كتب الادب أو صحيفة من الصحف فيعلق
بذهنه بضع أساليب يستعملها من غير أن يشعر بذلك،
أفلا يجوز لنا أن نفهم السر في تشابه الشعر العربي وتقارب
معانيه وأغراضه - ان لم تقل تطابقها في اغلب القصائد -
ثم أفلا نستطيع أن ندرك بعد السبب الاكبر في وقوف
الشعر العربي نحو عشرة قرون وعدم انتقاله من مكانه انتقالاً
يدعو الى الغبطة؟ - لقد طالما احتار الانسان في تعليل تلك
النكبة التي أصابت الشعر العربي فأرهقته، ولطالما حاولنا
الوصول الى تعليل معقول نهتدى به الى السر في اتفاق
أساليب شعراء العربية - على الخصوص - وسبب تلاشي
شخصياتهم جميعاً الا الشاذ منهم الذي قد لا يتجاوز عدده أصابع
اليدين الواحدة، بالرغم من أن الشعر العربي كله تقريباً شعر
وجداني - أي شعر عالمي تنجلي فيه شخصية الشاعر واضحة

لكل ناقد خبير - ولكن هذه الحكاية وأشباهها الكثيرات ،
التي ندين منها عناية العرب الفائقة الحدود بالاكثر من
المحفوظ ، وقول أحد ادبائهم :

احفظ تقل ما شئت - ان الكلام من الكلام ؛
كل ذلك يعمط لنا اللثام عن السر في تأخر الشعر العربي ،
ويعلل لنا السبب في تلاشي شخصية شعراء العرب بل فنائها
في اغلب قصيدم



ولا يحق لنا أن ننسى أن كثرة المحفوظ تدعو الى متانة
الأسلوب ، ولكنها من ناحية اخرى تدعو الى فناء الشخصية
وقتل المفكرة قتلا - ولو أنهم كانوا يحفظون فينتقدون
ما يحفظونه انتقادا يظهر صادق الادب من زائفه ابقيت
أمل كبير في انتقال الشعر العربي وتدرجه في سبيل السكنا ،
ولكن أني يكون ذلك وقد اتخذوا ما حفظوه عن أسلافهم
نماذج عاية وأهثة من مثل السكنا التي تسمو عن مستوى
النقد ، كما تلقفوا بجانب ذلك عدة أحكام على الشعراء
والأدباء لا تدل على امة فكية مطلقا ؛



ذلك في نظرنا - داء عيـاء استحكـم فيهم فرجع ٣٢ .
 القهقري ، ونكبنا في الشعر العربي والبلاغة العربية ولو
 اتيح لهما افراد قلائل على شاكاة عبيد الفاهر الجرجاني
 وعبد العزيز الجرجاني ، لعرفوا كيف ينتقلون بالبلاغة العربية
 الى المكان الذي وصلت اليه بلاغة الغربيين في هذه الأيام !

اخـطأ والصواب

في الكتاب عدة اخطاء ، طبعية قليلة وقعت سهوا ، ولا
 نحسبها تخفى القارىء ، ولكن لا يسعنا أن نغفل التنبيه على ما يلي :

صحيفة	مسطر	خطأ	صواب
٥	٦	الناصر	الدخل
٧	٢	الحادي عشر	التاسع
٩٢	٨	الرابع	الخامس
٤	٩	٣٥٩	٤٥٩

